روايات 24 الزمن
2017

علي القاسمي

مرافئ الحب السبعة

لوحة الغلاف : إبداع زهرة الزيراوي

مكتبة نوميديا 131
Telegram@ Numidia_Library

منشورات الزمن

سلسلة روايات الزمن

العدد 24

يناير 2017

جميع الحقوق محفوظة للزمن

المدير: عبد الكبير العلوي الإسماعيلي
الإخراج الفني: طاقم الزمن
الإيداع القانوني: 2016 MO 3610
ردمك: 978 - 9954 - 516 - 82 - 9
التوزيع: سبريس
العنوان: 153, شارع سيدي محمد بن عبد الله. رقم 7 العكاري - الرباط
الهاتف + الفاكس: 44 98 29 37 5 212 00
البريد الإلكتروني: manchourat@gmail.com

روايات الزمن 24

علي القاسمي

مرافئُ الحبِّ السبعة

رواية

منشورات الزمن

القسم الأول:

بغداد - بيروت

1

لو كنت أنت طرقت الباب، لرمّمتُ حطام نفسي، ولملمتُ روحي المبعثرة، ورسمتُ على شفتيّ بسمة، وخلعتُ المصاريع، وقلعتُ العتبات، وأوسعت لك المداخل والممرّات، وفرشتُ لك أهداب العين والجفن.

لو كنت أنت طرقت الباب، لنثرتُ تحت رجليك الفلّ والريحان، وغسلتُ قدميك بحليب القَبّرة وعسل الملكات ودموعي، ونشّفتهما بالآهات وزهر الياسمين وشقائق النعمان، وعطّرتهما بالعود والمسك والزعفران.

لو كنت أنت طرقت الباب، لأوقدتُ لك الأصابع شمعاً، وأنرتُ دربك إلى سويداء القلب ودثّرتك فيه، وأشعلتُ لك مهجتي بخوراً، وانشغلتُ بك انشغال الصوفي بعبور المسالك واختراق الحُجُب، إلى شواطئ أفقك الخفي البهي.

لكن، لكنّ طيفك، يا أثيرة، هو الذي أطلّ عليّ في غير الأوان، ليسخر من محاولاتي البائسة للنسيان، ويُريق شرايين الذكرى في فضاء حجرتي، ويوثّث سريري بالحمّى وأوجاع الذكريات.

2

عندما أوت حميدة إلى سريرها تلك الليلة، كانت تشعر بانقباض لا تعرف له سبباً. لم تتمكن من النوم. تناولت كتاباً وراحت تقرأ في الفراش فلم تستطع أن تفهم شيئاً مما قرأتْ. ألقتْ بالكتاب جانباً، وغطت رأسها في دعوة منهكة للنوم. في منامها المنغّص، رأت بغداد تحترق في الليل. كانت ألسنة اللهب تتصاعد إلى عنان السماء، وتغطي المدينة الغافية على ضفتي دجلة، بدثار من دخان. في كابوسها المُريع، أطلّتْ من شرفة شقّتها على شارع أبي نواس، فتراءت لها كراسي المقاهي الممتدّة على النهر تلتهمها النيران، وهي تلقي بنفسها في ماء النهر، للنجاة من ألسنة اللهب. وراح تمثال الشاعر أبي نواس يتلوّى وسط النيران وكأنّ يوم القيامة قد حلّ، وألقي بالشاعر السكّير في جهنم، دون أن تشفع له زُهديّاته وابتهالاته الشعريّة التي نظمها في أواخر حياته.

ومن بعيد، تراءت لها السواري الرخاميَّة لجامعة المُستنصِريَّة تتهاوى الواحدة تلو الأخرى تحت النيران، وتتداعى جدرانها المزخرفة، وتذوب ألواح شبابيكها الزجاجيَّة الملوَّنة، فتجري ذائبةً في سواقٍ من لهبٍ، تجتاح الأزقَّة القريبة المؤدِّية إلى شارع المتنبي، فتحرق في طريقها الكُتُب والمخطوطات المكدَّسة في دكاكين الورّاقين، وفي المعاهد العلميَّة، وفي المكتبات، وفي بيوت الخواصّ، وفي صدور الرجال. تحترق أوراق الكتب ولا يتناثر منها في الفضاء إلا التكبيرات: « الله أكبر»، « الله أكبر»، « الله أكبر »، لتملأ الجوَّ مثل طائراتٍ ورقيَّةٍ لا تشدّها خيوط ولا يسوسها أطفال. وأمام أنقاض جامعة المستنصريَّة، وقف شبحُ الخليفة المستنصر بالله، حاسر الرأس، مُعفِّر الجبين، حافي القدمَين، وقد أذهلته الكارثة التي حلَّت بالجامعة التي شيَّدها.

كانت النيران تسري في كلِّ درب من دروب المدينة العريقة، وتجتاح كلَّ مَعلمة من معالمها: المكتبات، المدارس، المصانع، المنازل، المعاهد، وأطلال الأحيَّة. حتّى الحدائق العامَّة لم تسلم منها، فقد كانت النار تلفُّ جذوع الأشجار وتمحق أغصانها، فتتكسَّر باعثةً أزيزاً وأنيناً وأصواتٍ متنافرةً تختلط في ضجَّة رهيبة. وكانت ألسنة اللهب تلاحق الفراشات المتطايرة فراشةً فراشةً، فتحيلها إلى رماد؛ وتمتدّ إلى الزهور المتمايلة زهرةً زهرةً فتذرو وريقاتها هباءً.

أفاقت حميدة مذعورة وهي تتساءل :

أين أنتَ يا زكي الآن؟

3

كيف اهتدى طيفُك إليَّ بعد أن ارتحلتُ بعيداً، معتمراً فشلي، متلفّعاً بغربتي، متخفيّاً بخيبتي، متشرّداً من بلاد إلى أخرى؟ أجوب فيافي التاريخ ومتاهات المستقبل، صادياً دون أن أتزوّدَ بقربةٍ من ماء الفرات، أجترُّ ندمي وألمي وحسرتي، غريباً حتّى مع نفسي.

كيف اهتدى طيفك إليّ؟ أمن لون الجرح عرفني، أم من دخان الحرائق في الأعماق استدلّ عليّ؟ وكيف قطع كلّ تلك المسافة ليصل إليّ؟ أعلى جناح نسمة أم على أَلق نجمة؟.

4

استيقظت حميدة صباح ذلك اليوم واتّجهت، كعادتها، إلى شرفة الشقّة المطلّة على شارع أبي نواس المحاذي لشاطئ نهر دجلة، لتستنشق نسيم الصباح المنعش القادم من النهر، وتستمع قليلاً إلى زقزقة العصافير التي تعشش على أغصان أشجار الصفصاف المتناثرة على شاطئ النهر. ولكنّها فوجئت بحركة غير عاديّة في الشارع، وسرعان ما وقع نظرها على دبّابة عسكريّة تمركزت في مدخل الشارع وقد وجّهت ماسورتها صوبَ الكرخ، وكانٍ يحيط بالدبّابة عدد من الجنود وقد ارتدوا ملابس القتال المرقّطة واعتمروا خوذهم الفولاذيّة، وحملوا رشّاشاتهم بأيديهم، وتمنطقوا بأحزمة العتاد. وراحت حاملات الجنود تمرق في الشارع تحتها مسرعةً في اتّجاه الجسر المؤدّي إلى دار الإذاعة بحيّ الصالحيّة في جانب الكرخ.

عادت حميدة مذعورةً إلى غرفة أبوَيها تستفسر منهما عمّا يحدث، فألفتهما واجمَين أمام المذياع الذي أخذت تنبعث منه موسيقى عسكريّة متواصلة. وقفت إلى جانبهما متلهّفةً إلى سماع صوت المذيع ومعرفة الخبر. وبعد دقائق بدت لها مثل ساعات طويلة، انطلق صوت أجش قائلاً بنبرة آمرة: « **البيان رقم واحد. صادر من مجلس قيادة الثورة** ». وبينما تابع المذيع كلامه، كانت أقواله وعباراته تختلط في رأس حميدة مع الظنون والهواجس وكثير من الصداع الذي ألمَّ بدماغها. «.. **من أجل حرّيّتكم، يا أبناء الشعب الأشاوس** ». أين زكي يا إلهي الآن؟ هل يستمع إلى المذياع؟ « **ومن أجل الديمقراطيّة والحرّيّة، يا أبناء الشعب المغاوير، قمنا بثورتنا ...** » هل يتوجّه زكي الآن إلى عمله في الجريدة أم مازال مع أهله في

القرية؟ « ولهذا كلّه فقد قرّر مجلس قيادة الثورة حلّ البرلمان، وإقالة الحكومة المجرمة، وإلغاء الأحزاب السياسية المتعفّنة، وإغلاق الصحف العميلة، وفرض منع التجول...».

دلفت حميدة إلى مدخل الشقّة، وتناولت سماعة الهاتف، ولكنَّ الخطَّ مقطوع لا حرارة فيه. « من أجل حرّيّتكم الغالية، ندعوكم، أيُّها المواطنون النشامى، إلى الالتزام بمنع التجوُّل وعدم مغادرة منازلكم حتّى إشعار آخر، فقد أشرق يوم الحرّيّة... إنّه انقلاب عسكريٌّ آخر. ما زالت حميدة تتذكّر انقلاباً عسكرياً سابقاً وقع قبل أقل من خمس سنوات. وبعد كلّ انقلاب يغادر البلاد عددٌ من أقاربها، ويُعتقَل العشرات من أصدقائها. « لأجل الوطن، ولأجل الحرّيّة، ولأجل الكلمة الشريفة، يا أبناء شعبنا، قررنا إيقاف صدور جميع الصحف حتّى إشعار آخر. فلتحيا الحرّيّة، وليحيا الوطن».

التفت والد حميدة إلى زوجته وقال بصوت خفيض يقرب إلى الهمس:

ـ لم يعُد لنا موطئ قدم في وطننا، لا بدَّ أن نهاجر إلى بلد آخر.

ـ ونترك الأهل والأحباب؟

ـ ستكسد تجارتنا هنا، وأنا لا حياة لي دون مهنتي.

رجعت حميدة إلى الشرفة، ألقت نظرةً فاحصةً على الجنود وهم في عرباتهم العسكريَّة، وأسلحتهم مصوَّبة إلى جميع الاتجاهات. شعرت بشيءٍ من الخوف يدبّ كأفعى رقطاء إلى مسارب الروح. عادت إلى غرفتها. وضعت رأسها بين يدَيها. حاولت أن تهدأ، وتطرد الخوف. راحت تردِّد في نفسها : « أنا لا أخافهم، لأنَّهم منا، من أبناء هذا الوطن. لا أخافهم». كانت تخشى أنَّها إذا ما خافتهم، فإنَّها ستكرههم. والكراهية ستحطّمها من الداخل. أخذت تجد الأعذار لهم. إنَّهم تحت إمرة ضباطهم. يطيعون الأوامر ولا يناقشون الدوافع والأسباب. لا ذنب لهم. إنَّ ثقافة الحرّيَّة لم تتجذّر في نفوسنا بعد، لم تعُد جزءاً من منظومتنا الفكريَّة. وظلّت حميدة

تنتقل، ملتاعةً، ذهاباً وإياباً بين النافذة لتطلَّ منها على الشارع، وبين غرفة الجلوس لتسمع البيانات العسكريَّة يتلوها ضابطٌ كبير، وقد لفتَ انتباهها كثرة الأخطاء اللغويَّة والنحويَّة والنطقيَّة في هذه البيانات. فهذا العقيد المحترم الذي استولى على الحكم لترقية حياة المواطنين وتثقيفهم، يرفع المنصوب ويجرُّ المرفوع بصورةٍ مطردة، حتّى خيِّل لحميدة أنَّ مجلس قيادة الثورة اتَّخذ قراراً من بين قراراته الكثيرة بتغيير عمل حروف الجر بحيث أصبحت ترفع الأسماء، فالعسكر اليوم يملكون كلَّ شيءٍ في الوطن حتّى اللغة وحروف الجرّ.

واجمةً حزينةً أخذت تتساءل في نفسها: أين أنتَ يا زكي الآن؟

5

في وحدتها وفي سكون الليل، كانت حميدة تفكر برحيل زكي المحتمل، فتناهى إلى سمعها صوت الشاعرة التونسيّة فوزية ليلة سقوط بغداد للمرَّة السابعة والسبعين، بعد أن نامت الكواكب على بوابة الفجر، وراحت الحياة ترتعش في أزقة المدينة على بساطٍ نسيم متكاسل، وقد تربَّعت الشاعرة خارج دارها في صحراء القصرين، ونَثرت شعرها، وعفّرت وجهها بالتراب، وشقَّت جيبها، وخمشت خدّيها، وراحت تنتحب مثل ثكلى قرطاجيَّة، أو نائحة سومريَّة، أو خنساء جاهليَّة، وهي تنشد قصيدتها « هل راقصتنيَ الخيل ليلتها؟ »:

كنتَ ترافقُ وحدتي هذا المساءْ
وتؤجِّلُ الترحالَ عن كبدي
وتُطيلُ في عمرِ الرجاءْ
ماذا يضيرُ النجمَ لو هدهدتني
ومددتَ في عُمْرِ الضياءِ دقيقةً

6

إذن، هذه ليلةٌ للذكرى، وهذا أوان الألم، فمرحباً أيُّها الأرق. كانت الحمى كافيةً لتسهيدي، والوحدة كفيلة بذرّ الملح في جفوني. فلماذا اخترتِ هذه الليلة بالذات لتبعثي بطيفكِ إليّ، يا أثيرة؟ ربَّما لم يكُن ذلك من اختياركِ بقدر ما كان من سوء حظّي العاثر.

أثناء وحدتي القاتلة في الليل قبل اليوم، كنتُ أستمطر حضوركِ طيفاً عابراً أو لحناً غائراً، وأنا أتلوّى في فراشي كما يتلوّى كاهن هندي أحمر أثناء رقصة الأفعى التي يؤديها طقساً من طقوس استنزال المطر، عندما يحيق الجفاف بالسهول، ويندثر النبع، وينمحق الزرع، ويذبل الأحباب.

أمّا في هذه الليلة، وأنا أتوسَّد الأرق وأحتضن الحمّى، فإنَّني لا أحتاج إلى ذكراكِ، تنكأ الجرح، تزيده عمقاً، تدميه. ما أحوجني الليلة إلى لمسة حنان وكلمة مؤاساة، وأنا محموم، مهموم، مغموم، وحيد، حزين. عندما كانت الحمّى تصيبني في طفولتي، كانت أمّي، تُقْبِل عليّ، مذعورةً باسمة، تضع يدها على جبهتي، تقرأ آياتٍ من القرآن، تحتضنني، تحملني إلى باحة الدار، تضعني برفقٍ تحت نخلتنا، تدثّرني بشالها، وتُسمعني أحلى الكلام. تقول بلهجتها البدويَّة: «**فديتك بروحي. ليت دموعك غسّلتني. وليتك كفّنتني قبل أن أراك تتوجّع، يا حبيبي**». نعم كانت دوماً على أهبة الاستعداد لتفديني بحياتها حتَّى يوم كنت رضيعاً أحبو وسقطتُ في البئر.

7

بسمته العذبة تنساب إلى مقلتيها كألَق نجمة ليلة صيف، فيتسرَّب إحساسٌ لذيذٌ إلى حنايا جسدها يحملها إلى الأعالي كنسمة، كحمامة، كسحابة نشوى. صوته الناعم الرقيق يناديها، فتتناهى إلى مخيَّلتها أنغام قريتها الصغيرة البعيدة التي تمتزج

فيها ألحان العنادل، ودندنة رَبابةٍ يداعب وترها أحد الرعاة العشّاق.

يحبو بحيويَّة نحوها، فتتعلق عيناها بأطراف أنامله الطرية البضَّة. ويتراءى لها شاباً وسيماً طويل القامة، عالي الهمة، مسموع الكلمة كأبيه. يخفق قلبها عند كلّ حركة من حركاته، ويتلفَّت لدى كلّ لفتة من لفتاته. عيناها مشدودتان بطلعته، تبتسم الدنيا لها حين يفترُّ ثغره عن ابتسامة رضا أو حين يناديها بـ (ماما)، وتغطي وجهها غمامة همٍّ وقلق إذا ما قطب جبينه الصغير، وقبل أن يشرع في البكاء تحمله بين ذراعيها، تضمّه إلى صدرها، تشبعه تقبيلاً وشمًّا في جميع أنحاء جسمه اللين، فتعود البسمةُ إلى عينَيه، ومعها الفرحةُ إلى قلبها.

بعد أيام قليلة ستعود لأوّل مرَّة إلى قريتها منذ أن زُفّتْ منها عروساً قبلَ ثلاثِ سنين، وسيرافقها زوجها، وستحمل وليدها على صدرها كعِقد لؤلؤ ثمين. وستنهال عليها وعلى ابنها كلمات الإعجاب وعبارات الإطراء كما تتساقط الثمار الناضجة الشهية من أغصانها مع نسمات الربيع. سيملأ الزهو أعطافها أمام أتراب طفولتها وهنّ يرين زوجها، فهي الوحيدة من بين فتيات القرية التي تزوَّجت رجلاً من وجهاء المدينة الصغيرة. وقعتْ عليها عينُه ذات يوم في سوق المدينة وهي صحبة والدها فأعجب بملاحتها ورشاقتها، وخطبها مفضلاً إياها على جميع بنات المدينة. لا شكّ في أنَّ فتيات القرية غبطنها على نصيبها، إذ لم تعُد مضطرَّة لرعي الغنم تحت أشعة الشمس المُحرقة نهاراً، ولا لحراسة البستان وهي تنوء بحمل بندقيتها ليلاً، وأكثر من ذلك، إنّها محظوظة فقد وضعت طفلاً ذكراً. أخبرتها أمُّها عندما جاءت لزيارتها أنَّ ثلاثاً من صاحباتها اللواتي تزوَّجن كذلك رزقن ببنات، والرابعة لم يرزقها الله بحمل على الرغم من مرور ثلاث سنوات على زواجها. أمّا هي فطفلها الأوّل ذكر كامل الخلقة، سليم الأعضاء، تشع النباهة من عينَيه اللامعتَين كنجمتَين.

ها هو ذا يجلس والبسمة تعانق شفتَيه، يلعب بدُمية على فراش وثير في الظل. وما دامت ستفارقه لبضع دقائق لإعداد الخبز في التنّور، فلتضمّه إلى صدرها، وتشمّه، وتقبّله في جميع أجزاء جسمه البضّ الصغير. وعلى أيّ حال، فإنّ عينَيها لن تفارقاه، لأنّ التنور يقع في الطرف المقابل من حوش الدار على بُعد أمتار معدودة منه، لا تفصلها عنه سوى الجنينة الصغيرة التي يتوسّطها بئر كانت واحدة من آبار عديدة حفرها الجنود البريطانيون خلال الحرب العالميّة الأولى طوال خطّ إمداداتهم في البلاد. وعندما توسّعت البلدة صارت تلك البئر جزءا من الدار التي ابتناها زوجها.

تجتاز الجُنَينة صوبَ التنّور وهي تتلفّت إليه، تناغيه، تناديه، فتسمع ضحكاته الحلوة لحناً من الفرح يحملها إلى الأعالي كنسمة، كحمامة، كسحابة نشوى. تصل التنّور، تضع وعاء العجين إلى جانبه، تستلّ الثقاب لتوقد الحطب الموجود في قعر التنّور، يأخذ اللهب في التصاعد من فوهة التنّور، ثمّ يتضاءل رويداً رويداً إذ تتحوّل عروق الحطب إلى جمر، حينئذٍ تتناول حفنةً من العجين بيدها اليمنى، تكوّرها بكلتا يديها، ثمّ تبسطها على شكل رقاقة دائريّة وتدحوها بسرعة خاطفة بيدها اليمنى في التنّور لتلصقها على جانبه الأيسر، ثمّ تتناول حفنةً أخرى من العجين... ولكنّ دقّة عالية كقرع الطبل تتناهى إلى سمعها من الخلف، فتلوي عنقها بعنف إلى الوراء، تصوّب عينَيها إلى وليدها، فلا تجده في مكانه، ينتفض قلبها بين ضلوعها كعصفور بلله القطر بغتةً، ويغلي الدم في عروقها، تحدّق مرّةً أخرى، ثمّ تنتقل نظراتها إلى البئر فلا ترى الدلو المنتصبة على حافتها، عند ذلك تنطلق وثباً إلى البئر وتقفز فيها.

8

محموماً وحيداً كنتُ، وقلبي سفينةٌ مثقلةٌ بالهموم، تتقاذفها زوابع الخيبة والغربة والحنين. وروحي تخفق فوق أشرعة الحزن

وعلى صواري الألم. وأنا ملاحٌ سومريٌّ تائه، أضاع وجهته، ولا ساحل أملٍ في المنظور، ولا طوق نجاةٍ على المركب. تنكسر شمس العمر على أفق الغربة، وليس سوى فوانيس الشوق تضيء جوانحي، لكنَّها لا تكشف ما حولي من عاتي الشكوك والأمواج. هكذا كنتُ حينما عادني طيفكِ هذه الليلة، يا أثيرة.

داهمني طيفكِ الليلةَ وأنا في فراش الحسرة، أتوسَّدُ ذراع الذكريات وألتحفُ الألم. جاءني قادماً من لا مكان، من وراء الغيم، من بين النجوم الآفلة، حاملاً إليّ باقاتٍ مُغلَّفَة من هداياه المعتادة: الألم والأسى والحزن، الكثير منها، ودمعة تلمع في المآقي ولا تنحدر على وسادة المواساة.

باغتني طيفكِ، يا أثيرة، هذه الليلة، وأنا تائهٌ في دروب موحِشة، أصعدُ لاهثاً إلى قمّة الوحدة، يلفُّني صقيع الصمت، ولا يتناهى إلى سمعي سوى هسيس أوراق خريف العمر التي تُسقطها رياح الألم الرعناء، وأنا تفترسني الحمّى.

9

عندما كانت تصيبني الحمّى في طفولتي، كانت أُمّي تضمُّني إلى صدرها، تحملني بين ذراعيها، تأخذني من غرفتي إلى باحة الدار، تمدِّدني على فراش وثيرٍ هناك تحت نخلتنا الباسقة.

كنتُ أتمدّد في ظلّ تلك النخلة وأتطلَّع إلى الأعلى. تفتح النخلة صدرها، تكشف عن عذقَيها الناهدَين المحمَّلَين برُطبٍ أصفرَ لاهثٍ كالذهب. أطيل النظر إلى سعفاتها مأخوذاً بالألوان البرّاقة على أطرافها. أحدّق في خوصاتها، فتبدو لي، تارةً، كما لو كانت مرسومةً على صفحة السماء، فتضيف إلى زرقة الكون خطوطاً خضراء زاهيةَ اللون. ثمَّ يهبُّ نسيمٌ يحرّك سعفاتها بلطفٍ من الأعلى إلى الأسفل في حركة موحية، كما لو كانت ترقص رقصةً بطيئة. تتموسق في أذني المواويل. تقترب أذرعها

السعفيَّة منّي، أمدّ يدي نحوها كما لو كنتُ أهمّ بلمسها، تبتعد عنّي نحو السماء. ترتفع روحي معها. تقترب منّي ثانية. أتهيّب لقاءها. أبقى مبهوراً بتحوّلات الضوء والألوان، فأظلّ ساكناً في بساطي، وشيئاً فشيئاً أحسّ بأنّ تلك السعفات المقوّسة أضحت جزءاً من كياني، أو أنّها امتداد لذراعي. أنسى بكائي. في تلك الأيام، كانت زرقة السماء أصفى، والقمر أكبر وأبهى، والنجوم ألمع وأبدع، والفرح كبيراً شاسعاً كعينيكِ.

كانت عذوق تلك النخلة، في ذلك الوقت، محمَّلةً بالرُّطَب المُنَصّف، نصفٌ أصفرُ فاقعٌ يلهث كالجمر، ونصفٌ بُنّي اللون يعطي الانطباع بالقوّة، في حين أنّه هو النصف الليّن الرطب. كانت أمّي تغذّيني منذ طفولتي بالحليب والتمر، ولكن لا حليب كذاك الذي أرضعتني من ثديَيها، فقد كان له مذاق الوطن. ترتاح جبهتي للمسة أمّي، تسرح عيناي على منحنيات الرطب في عذوق النخلة، أحاول أن أعدَ الرطب رطبةً رطبةً، تضيع مني الأعداد، أعيد العدّ، تقاطعني زقزقة العصافير المتطايرة في أعلى النخلة، كما لو كانت قد اكتشفت شيئاً مفاجئاً فانطلقت جميعها تزقزق في وقتٍ واحد، يتناهى إلى مسمعي صوت أبي من حجرته المطلّة على باحة الدار وهو يرتل القرآن: ﴿فَأَجاءها المَخاضُ إلى جذعِ النخلة، قالت يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسيّاً. فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعلَ ربُّكِ تحتَكِ سَرِيّا. وهُزّي إليكِ بجذعِ النخلة تسّاقط عليكِ رُطباً جَنيّا، فَكُلي واشربي، وقَرّي عينا...﴾. وفجأةً أشعر برغبةٍ في الأكل والشرب، فأقول: ماما! يأتيني الجواب في الحال: يا روحَ ماما؟، أقول:

أريد رُطباً وحليباً. تنطلق منها ضحكةٌ عاليةٌ، وتنهض بخفّة وفرح لتجلب لي ما طلبتُ.

لقد ألِفتُ تلك النخلة في دارنا القديمة. كنت أراها أينما كنتُ في المنزل، في أيّ حجرة من حجراته، وفي أيّ ركن من أركانه. كانت دارنا داراً عربيّة تقليديّة، مربّعة الشكل تتألف من طابقيْن

وتتوسطها باحةٌ واسعة، وجميع غرفها تطلّ على الباحة المزدانة بحديقة أندلسيّة تحفّ بها نباتات الورد والنرجس والقرنفل والياسمين. وفي وسط الحديقة كانت النخلة تقف شماء باسقة مثل عروس فارعة الطول تختال بجمالها وقوامها الأنيق وسط الوصيفات ليلة الزفاف. ولهذا كنتُ أرى النخلة في أيّ طابق كنتُ ومن أيّ غرفة أطللتُ. وحتّى لو كنت داخل حجرتي أذاكر دروسي، كنتُ أرى ألْفَ أثرٍ وأثرٍ يذكّرني بتلك النخلة، فأخْصرة المنزل كانت مصنوعة من خوصها، وسقوف حجراتنا مبنيّة من جذعها، ونارنا التي نتدفأ عليها في الشتاء توقد بكَرَبها، وكذلك تنوّر أمّي. ورفوف مكتبتنا المنزليّة الكائنة في غرفة الاستقبال في الطابق الأرضيّ مصنوعة من جرّيد سعفها. أمّا وجبات طعامنا فقلّما كانت تخلو من تمرها. وكم كان يلذّ لي أن آكل الرز ممزوجاً بدبسها. كنتُ أحسّ بنسغ تلك النخلة يسري في عروقي وأوردتي وشراييني وكلّ خليّة من خلايا بدني.

آه يا نخلةَ أمّي. لقد طوّفت في مدن الأحزان، وتنقّلت بين البلدان، عبرت البحار والشطآن، فلم أرَ مثلك في شموخكِ، وتناسق شكلكِ، وروعة لونكِ، وطيب ثمركِ. كلّ الأشجار قميئة القدر بعدَكِ. شاهدتُ أشجار الأرز الضخمة في ذرى جبال لبنان، ورأيت شجرة الباوباب العملاقة في جزيرة مدغشقر، وفي جنوب أفريقيا شاهدت الأهالي يتجمّعون في الربيع حول شجرة الجكراندا الزاهية بأوراقها القرمزية وهم يتمتمون بأمانيهم كيما تُستجاب، وفي أقصى بلاد سوس تلمّست شجرة الأركان الصلدة التي قاومت زلزال أغادير؛ ولكن لم تدخل قلبي شجرةٌ مثلكِ، يا نخلةَ أمي، ولم يلذّ لي ثمرٌ كما لذّ لي رُطَبكِ عندما كنتَ أتناوله مع اللبن المخيض. كلّ الثمار لا طعم لها في فمي بعد رُطَبك، يا نخلة أمي. وكلّ الأشجار تضاءل، تتقزم، تتلاشى، إذا ما قورنت بقامتك الفارعة وأنت منتصبة بإباء في دارنا القديمة الفسيحة الأرجاء. كم تمنيتُ أن أكون طائراً يحلّق في الأعالي، يخترق الحدود دون أن تلحظه

العيون، لأحطَّ على سعفة من سعفاتك التي يهزّها النسيم، كما كانت أمّي تهزّ مهدي تحت ظلالك، أو كما كنتُ وأخوتي نتأرجح في أرجوحة نربطها إلى جذعكِ وأحد شبابيك المنزل. آه، يا نخلةَ أمّي، كم أتمنّى اليوم لو أنّني صنعت تمثالاً معبوداً من تمرك، على عادةِ بعض عرب الجاهلية الرُّحَّل، وحملته معي في حقيبتي كيما ألتهم شيئاً منه عندما يعضّني جوع الحنين إلى الوطن.

10

أشَحْتُ بوجهي عن طيفك، يا أثيرة، أغمضتُ عينَيَّ، لكنّه حاصرني، طوّقني من جميع الجهات، ولم يترك لي منفذاً للنجاة. ودون أن يطرق بابَ قلبي، ودون أن يستأذن منّي، أطاح بحصوني الواهية جميعاً، نفَذَ من مسامات جلدي، اجتاح ذاكرتي، استباح كهوفها العتيقة، تسرَّب إلى جميع زواياها مثل نهرٍ منفلتٍ.

هل قلتُ، سيدتي، مثل نهر؟ عفواً. هذا سهوٌ، خطأٌ، هذيانُ حمّى؛ فالأنهار تغيّر وجهتها، تنضب، تجفّ، تندثر؛ أمّا طيفك فإنّه يتّجه دوما إليّ أينما كنتُ، يطاردني بعنادٍ من مدينة إلى أخرى، بنفس العنفوان، وبذات الإصرار. إنّه يحيلُ ربيعي خريفا بغمزةٍ منه؛ يقطع أزاهيري، يقتلع شجيراتي، يحرق مروجي، ينقلني في لحظة من حقولٍ يانعةٍ إلى أقحل صحراء. يعبث بي كما يشاء.

يحاصرني طيفك من جميع الجهات. أجدهُ أنّى تلفَّتُّ: عن يميني وعن شمالي، قدّامي وخلفي. يطوّقني من كلّ جانب. لا مفرَّ لي منه ولا مهرب ولا خلاص من سطوته، ولا مناصَ من جبروته. كيف أنعتقُ من عبوديَّته؟ إنّه مردوخ، كبير آلهة البابليّين، يبسط سلطانَه على البرّ والبحر، وعلى الأرض والسماء، ولا شفيع لي من قضائه.

ها أنا ذا ألوذ بكِ منك، أحتمي بذكراكِ من طيفك، كالمستجيرِ من الرمضاء بالنار. ها أنا ذا أعرض عليكِ همّي وأشتكي منك إليكِ، كمَن يشتكي إلى القاضي الظلمَ الذي حاقَ به من هذا القاضي

نفسه، فأنتِ الخصم والحكم، وأنتِ الغاية والوسيلة، وأنتِ البداية والنهاية، يا أثيرة !

11

لم أحمل معي شيئاً يذكر من قريتي يوم غادرتها هارباً متخفّياً، غيرَ أشياء صغيرة ليست ذات شأن ولكنّها كانت تعني لي الكثير الكثير. وضعتُ في حقيبتي حفنةَ تراب من بستاننا، وخوصةً خضراء انتزعتها من إحدى سعفات نخلتنا برفق، بيدٍ مرتعشة وشفتَين واجفتين كأنّني أعتذر لها عمّا أفعل أو كما لو كنت أتلو عليها بكائيات الوداع، وريشةً من ريشات بطّتي الأثيرة كانت ملقاةً على حافة حوض السباحة في حديقة المنزل، وشالاً أسودَ لأمّي أخذته من صندوق ملابسها دون أن أخبرها، طويتُ فيه نايي وخبّأته وسط ملابسي في الحقيبة. ولكنَّ قصدي الحقيقيَّ منه أن ألفَّ به رأسي إذا ما داهمتني الحمّى أو ألمَّ بي الصداع يوماً ما، لعلّ رائحة أمّي العالقة به تشفيني مثل تميمةٍ أو بلسمٍ سحري.

ارتديتُ بدلتي الزرقاء كما لو كان لون الفراق أزرق كالسمّ. عبرتُ باحة الدار في اتّجاه الباب، ولكنّني توقفتُ في وسط الباحة عند البئر. رفعتُ الغطاء عنها، نظرتُ إليها، حدّقتُ فيها، رأيتُ القمر منعكساً في مائها العميق، فهذه البئر هي رمز الحياة والموت لي ولأمّي.

تسلّلتُ من دارنا قبيل الفجر والطيور مازالت في نومها صامتة، والأصوات خافتةً ما عدا صوت المؤذّن المتعَب يتناهى إليّ ضعيفاً واهناً من صومعة مسجد القرية، ونعيق غرابٍ في غير أوانه. مؤمناً ببلاغة الصمت، تأبطتُ أحزاني وسرتُ على رفات ذكرياتي، وودّعت الدار، والبط، والنخيل، والبئر، ومصابيح الشوارع المرتجفة المتناغمة مع صدى الأذان المتهدّج، وتركتُ قلبي كسيراً على قارعة دروب قريتي.

تحت ضوء القمر، كانت أوراقٌ صفراءُ تتساقط من الأشجار المنتشرة على طول الطريق. ووجدتُني أناجي نفسي قائلاً: في الخريف تتساقط أوراق الأشجار، وتُشذَّب أغصانها لتنمو من جديد. أمّا أنا فقد تساقطت أوراقي وقطعت أغصاني وأنا في ربيع العمر وبقيتُ جذعاً أجرد لا يستمرئ نسيماً ولا يمتصّ ندىً، ولا يرتوي من ضوء الشمس. بل إنّي مجرَّد ورقة ذابلة صفراء على قارعة الطريق، ستذروها الرياح بعيداً عن موطن الشجر. يا للفقدان.

أخذتُ أعبر الجسر في اتّجاه المقبرة، فقد كان موعدي مع رفيقي زكي الفجر وملتقانا المقبرة. ألقيتُ نظرة وداع كليلةً على الزهر الحزين المنبثّ في ضفة النهر، وعلى أمواج النهر الوانية المتعَبة، وعلى النجوم المتساقطة المتهاوية على مياه النهر، وعلى صومعة المسجد العتيقة، وأنا أجرجر خطوي المكابر عبر الجسر. لن أرى بلدتي بعد اليوم، ولن أرى أهلي، ولن أرى طلابي، سيفتقدني النخل وفرسي وأهلي وطلابي.

وأنا أعبر النهر، تناهى إلى أنفي أريج ماء الفرات المخضّب بالنعناع والدماء. أثار ذكرياتي، كما تثير رائحة طعام زكية، لدى جائع غرثان، ذكرى أوّل لقاء تناول فيه ذلك الطعامَ. كم عبرتُ هذا الجسر العتيق غادياً إلى مدرستي أو رائحاً منها. تذكرتُ اليوم الأوّل الذي ذهبتُ فيه إلى المدرسة.

12

كان ذلك في يوم من أيام أيلول، وكانت أمي قد أيقظتني في الصباح الباكر على غير عادتها:

ـ انهضْ، ستذهب هذا الصباح إلى المدرسة.

ـ صحيح، يا ماما؟

وقفزتُ من الفراش رافساً الغطاء برجلي. وبينما كنت أغسل

وجهي كانت أختي الكبرى تُعدّ لي بدلتي الجديدة التي كنا قد احتفظنا بها لألبسها في هذه المناسبة. ولم أجد في نفسي ـ لفرط فرحتي ـ ميلا لتناول الفطور، فأخذت لقمة أو لقمتين تحت إلحاح الجميع. لقد كان للمدرسة إجلالٌ وروعة في نفسي. كنت أرى والدي يُمضي معظمَ لياليه في قراءة الكتب على ضوء الفانوس النفطي وهو يرتدي نظاراته الطبية. وكلما سألتُه عن ما يقرأ، كان يجيبني ذات الجواب:

ـ ستعرف ذلك، يا ولدي، عندما تذهب إلى المدرسة.

وعندما ينتهي من قراءته، يضع كِتابه على رفٍّ عالٍ لا تصل إليه أيدينا، نحن الأطفال.

كنتُ غالبا ما أذهب إلى ضفة النهر مع عدد من أطفال القرية لنشاهد بناية المدرسة التي كانت تقع على الضفة المقابلة وتختلف من حيث حجمها وشكلها عن بيوت القرية جميعها. وكنا نطلق الضحكات عند سماع رنين الجرس العجيب وهتاف التلاميذ بالنشيد وقد تجمعوا في باحتها الواسعة فيردد التل الرابض إلى جوارها أصداء هتافهم. كنا نعجب بما يجري في المدرسة ونتناقل الروايات العجيبة عنها.

وتناول أبي يدي وسار بي نحو المدرسة، فكنت أهرول كي أستطيع اللحاق به. وما إن بلغنا الجسر حتى وجدنا قطيعا كبيرا من الماشية والجمال يقف عند رقبته، فقد كان الجسر مقطوعا لخلل فيه. وعلى مقربة منه رسا قارب صغير ذو مجدافين لنقل العابرين إلى الضفة الثانية. وحملني والدي بيديه ووضعني في القارب الذي أقلنا عبر النهر. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أركب فيها قاربا، لأن عالمي آنذاك كان يبلغ نهايته عند شاطئ النهر. وامتلأت نفسي زهوا وأنا أرى القارب ينساب كالوزّة على صفحة الماء.

ودخلتُ مع والدي غرفة مدير المدرسة، وكان رجلاً نحيفَ البنية على عينيْه نظارةٌ سوداء. فسألني عن اسمي وعمري ودوّن ذلك في سجل لم أرَ أكبر منه من قبل. وبعدها غادر والدي المدرسة وتركني في باحتها تلفني خشية وحيرة. ودقّ الجرس ودخلت مع التلاميذ الجدد إلى قاعة الدرس، وجلسنا على مقاعد خشبية صغيرة. ووقف في مقدمة الصف أكبرنا سنا وأقدمنا عهدا بالمدرسة (يبدو أنه أعاد السنة الدراسية)، عرفت فيما بعد أنّه العريف، وكان يُكثر النظر إلى خارج الصف. وبينما كان الجميع في لغط لاهين، إذا به يقول لهم بصوت خافت خائف: «المعلّم، المعلّم»؛ فيسود غرفة الصفّ صمتٌ ثقيل، ويشرئب التلاميذ كمَن يتطلّع إلى نيزك يهوي من السماء.

ووصل رجلٌ ضخمُ البطن يمسك بيده اليمنى عصاً غليظةً طويلةً أدخل مرآها الرعب في نفسي ونفوس الآخرين. ووقف عند باب الصفّ ولم يدخله، عندئذ صاح العريف بأعلى صوته بلهجة آمرة: « قيام ! » فوقف الجميعُ، وأردف العريف مترنّماً : « صباحُ الخير، يا سيدي ! » فردّد التلاميذ تلك العبارة متفنّنين بترنيمهم.

وكان المعلّم يقف خارج الصفّ بطريقة عسكريّة وهو يحدّق فينا دون أن يحرّك شفتيه بسلامٍ أو كلامٍ، منتظراً مراسيم استقباله. وما إن صاح العريف:

« جلوس ! » حتّى دخل المعلم الصفَّ دافعاً بطنه الكبيرة أمامه، رافعاً رأسه إلى أعلى، ماذًّا يده اليمنى المُمسكة بالعصا بصورةٍ أفقيّةٍ كبندقيةٍ، كأنّه يشنّ هجوماً بالسلاح الأبيض على كتيبةٍ كاملةٍ. وفجأةً عثر بعتبة الباب فسقط بكلّ ثقله أرضاً، على بطنه، ثمَّ تلقّى الأرض بيده اليسرى فاختلّ توازنه، وانقلب على ظهره، وارتفعت ساقاه في الهواء، كما يتهاوى هرمٌ من الأحجار رتّبها الأطفال.

ووجدتني أنفجر ضاحكاً لذلك المنظر البهلوانيّ، غير مقدّرٍ

خطورة عواقب فِعلتي، ولكنّي سرعان ما توقفت عن الضحك حينما ألفيتُ جميع التلاميذ صامتين وقد تملّكتهم رهبةٌ لما وقع للمعلّم العتيد. وأنتَ تعرف أنَّ الروح الجماعية في الضحك هي أساس استمراره ومتعته.

وانتصب المعلِّم واقفا وشظايا الغضب تتطاير من عينيْه، ثمَّ استدار والتقط العصا الغليظة وسأل صائحاً بلهجة الوعيد والتهديد:

ـ مَن ضحك؟

فاستمرَّ التلاميذ في صمتهم ولم ينبسوا بحرفٍ مشفقين عليَّ وعلى أنفسهم من عقابٍ رهيبٍ قد يحلّ بهم جميعاً.

وتمثَّل أمامي وجه والدي الصبوح وأحاديثه الودّية معي، وإرشاداته الخيِّرة لي، ووصيته التي كرَّرها كثيرا:

ـ قُلِ الحقَّ ولو على نفسك !

ولم أكُن أدرك لها مدلولاً.

ـ يا ولدي ! قلِ الحقَّ ولا تخف !

وطافت أمام عيني الفِكَر، ودوّت كلمات والدي مرَّةً أُخرى:

ـ الحقُّ هو الحقيقة، والحقيقة هي الصدق.

إذن:

ـ أنا ضحكـ..

وارتدّ بصري عن المعلِّم لأنظر إلى إصبعي المرفوعة ويدي المرتعشة، ولأتحسَّس جفاف شفتي، ولأستمع إلى صدى صوتي المختنق وكأنّه حشرجة جريح، يعقبه دويّ هائل :

ـ تعال هنا ! تعال !

بحثتُ عن ساقيّ لتنفيذ الأمر فلم أجد لهما ظلاً، إذن فلأندفع بصدري. واندفعت غير مِقدام وتعثَّرتْ قدمايّ بأطراف

ثوبي. وسقطتُ بدوري، ونهضتُ مرتجفاً مواصلاً سيري المتعثّر نحو البطن الكبيرة المنتصبة بجانب المنضدة. وأحسستُ بيدين كبيرتَين ترفعانني بقوّةٍ وعنفٍ إلى أعلى ما يستطيع أن يصل إليه بصري. إنّه سيضربني بالأرض عقابا وانتقاماً، كما فعل صاحب المطعم بعامله الصغير عندما أسقط قطعةَ لحم سهواً في الماء الآسن. وسأتلوّى مثله ألما على الأرض دون أنْ يجرؤ أحدٌ من هؤلاء الصغار على مساعدتي أو رفعي من مكاني. ثمَّ سيطردونني من المدرسة بالتأكيد، وسأحرم من متعها التي كنت أحلم بها كلّ يوم، وستفوتني ألعابها التي كنت أشاهدها من الضفة الأخرى وأنتظرها بشغف، وستبكي أمّي من أجلي، وسيعبّر أبي عن خيبة أمله فيّ.

وفيما كانت الدنيا تدور في عينَيَّ، شعرت بقدمَيَّ تلامسان سطح المنضدة برفقٍ لأقف عليها، وتناهى إلى سمعي صوت المعلّم الأجش الصارم وهو يصيح بحماس:

ـ تصفيق... تصفيق مرّة أخرى، لأنّه قال الحقيقة.

ولم أرَ الأيدي التي أطلقت ذلك التصفيق الحادَّ، فقد اغرورقتْ عيناي بالدموع.

كتب سليم ما حصل له في اليوم الأوّل من المدرسة على شكل قصّة حين كان يعاقر الغربة وينادم الشوق في أمريكا، وبعث بها من هناك إلى أبيه بالبريد. وما سمعه منه بشأنها زاد نيران الشوق اضطراماً، وعمّق جراح الألم المستتر في جوانح الروح. أخبره أبوه في رسالته أنّه عندما وصلته تلك القصة، جاء لزيارته الأستاذ فليح الذي صار شيخاً متقاعداً آنذاك، لزيارته. أعطاه القصّة وقال له مازحاً:

ـ انظر ماذا فعلتَ بولدي. شجعتَه على قول الحقّ في بلدٍ لا مكان فيه لقولة حقٍّ ولا فسحة لحقوق الإنسان.

قرأها الأستاذ فليّح، وانحدرت دمعةٌ على خدّه بلا إرادة منه دون أن ينبس بكلمة.

13

صار حنيني إليك، يا أثيرة، ملاحاً تائهاً يبحث عن مرافئ عينيك، وشوقي بحّاراً هدّه التعب ولا ساحل في المنظور. كنت أرجو أنَّ جرحي بمرور الأيام يبرأ، وأن زوبعة حنيني إليك ذات يوم تهدأ. وها هو عمري ينساب مثل انسياب مياه المطر من قمة التل إلى حضيض الوادي، ولمّا ينبلج الأمل. وها هي حياتي تميل إلى الغروب، وأنا مازلت أخادع نفسي كما يفعل الأبله، فأسمّي جراحي خميلة شقائق نعمان، وأدعو غربتي المغمَّسة بالعذاب سفَراً. وفي الليل، أغمض عينيَّ على خيبتي وأتظاهر بالنوم، وأنا على بُعد آهتين من السهاد والأرق.

لِمَ لَمْ أتعلَّم كيف أتحرَّر من جاذبيتك حتّى اليوم كما تعلمت الطيور التحرُّر من جاذبيّة الأرض والتحليق في الفضاء، أو كما تعلم الإنسان من الطيور كيف يتخلَّص هو الآخر من تلك الجاذبيّة وينطلق في أرجاء الفضاء. أمّا أنا، فرغم محاولاتي المستميتة، لم أستطع التخلّص من جاذبيتك، فبقيتُ طوال هذه السنين مشدوداً إلى خيالك، ملتصقاً بطيفك، مثل قطعةٍ صغيرةٍ من الحديد أمام مغناطيس كبير.

14

غادرتُ القرية في الفجر، ورحتُ أعبر الجسر للقاء زكي. تناهت إلى أنفي رائحة ماء الفرات المخضَّب بالنعناع والدماء. الكواكب لم تنم بعد، والقمر ما زال شاباً في كبد السماء، يرسل نوره باهتاً متبختراً إلى النهر. ألقيتُ نظرة عليه. بدت لي أمواجه متسارعة

كما لو كانت هي الأخرى ترحل خائفة مذعورة. وكانت أشعة القمر الفضيّة تنعكس عليها فتبدو صفحة الماء مطرّزة بلآلئ صغيرة لامعة كالدموع المترقرقة في العيون. ومن منحنى النهر من جهته الشماليَّة، ظهر سرب من البطّ يتهادى منحدراً مع تيار النهر، فذكّرني ببطّتي.

كان لون بطتي الناصع البياض يعانق اللون الفضي لماء النهر، فيتداخل معه ويمتزج به ويذوب فيه، حتى يغدوان لوناً واحداً متموجاً متلألئاً، بفعل حركة النهر ونور القمر المطلّ من الأعالي. وينعكس ألق الضوء الذي يلامس جسمها الممتلئ على عينَيّ وينفذ منهما إلى أعماقي فينبعث فيَّ إحساسٌ لذيذٌ بالنشوة والارتياح. تمدُّ عنقها الطويل، المقوَّس كالخنجر، إلى الأمام وتغمره في الماء هنيهة، وهي منسابة على سطح النهر كزورق ورقيٍّ أنيق، ثمَّ تستلُّه وتنفض رأسها، فتتطاير القطرات منه؛ ويلامس وجهي بعض الرذاذ البارد، فأشعر بانتعاش يسري في أوصالي، وأطلق ضحكاتي الطفوليَّة وصرخاتي المرحة. تفرد جناحَيها مشرعَين، وتحرّك ذيلها بسرعة، وبخفقاتٍ متناسقة متلاحقة من الجناحَين تندفع محلّقة على بساط الماء لمسافة بضعة أمتار، وهي تبعث بصيحاتٍ حادّة جذلى تمزّق سكون الليل، ثمَّ ترجع عائمةً صوبي فأستقبلها باسماً فرحاً بعودتها. وتقترب منّي وأنا على حافة النهر حتّى تلامس أصابعي ظهرها الناعم وأمسّد ريشها للحظاتٍ، فـتـتّجه عائمةً إلى وسط المجرى لتواصل سباحتها اليوميَّة.

شغفتُ بتلك البطة منذ اليوم الأوَّل الذي حملها فيه والدي هدية لي بعد نجاحي في السنة الرابعة الابتدائيَّة. كانت صغيرة أوَّل الأمر ثُم أخذت تكبر بسرعة، وتكبر معها الألفة والمودَّة بيننا حتّى أضحت صديقتي الأثيرة ودميتي المفضلة. اقترحتْ عليّ أختي أن نعطيها اسماً، فاخترت لها اسم (وفاء)، ودأبتُ على مناداتها به حتّى تعوَّدت عليه، وأخذت تلتفت إليّ عند سماعه أو

تجيب بـ (واق) وكأنّها تقول (نعم). لا أدري لماذا انتقيتُ لها ذلك الاسم؛ لعلّه كان سهل النطق، أو تيمنا باسم بنت الجيران الصغيرة التي كانت ترتدي فستاناً من الدانتيل الأبيض، أو لأنَّ أمّي البدوية كانت تحضنني وأختي في حجرها كلّ ليلة وتروي لنا حكايات عن وفاء البدو: وفاء الصديق للصديق، وفاء الزوج للزوج، وفاء البدوي بالعهد الذي يقطعه على نفسه، أو لأنَّ أبي كان يحفّظني تلك الأيام قصيدة للشاعر العربي الجاهلي السموأل الذي اشتهر بالوفاء والذي لا تبعد قريتنا كثيراً عن أطلال دياره. أعترف أنّني على الرغم من عدم استيعابي الكامل لمفهوم الوفاء يومذاك فقد استهواني الاسم وخلعته على بطّتي الحبيبة.

كانت بطّتي تشاركني في طعامي، فعندما كنت أجلس إلى المائدة مع أبي وأمّي وأختي، كانت وفاء تقف بجانبي حيث أضع لها شيئاً من السلطة فتلتهمها بنقرات سريعة خاطفة، وحينما كنتُ أراجع دروسي كانت تقف قبالتي فأرمي لها بعضَ الحبوب، وفي مثل لمح البصر تلتقطها حبّة حبّة بمنقارها العريض. وكانت ترافقني معظم الوقت في أرجاء المنزل، تتبعني من غرفة إلى أخرى ومن الفناء إلى الحديقة ومن هناك إلى السطح. وانتهى بها الأمر إلى النوم بالقرب منّي على السرير، وكانت يداي تمسّدان ريشها الناعم وأنا أستمع إلى حكايات أمّي حتّى تستسلم جفوني لسلطان النوم. وعندما أذهب إلى المدرسة صباحاً تمشي معي حتّى باب المنزل؛ وعند عودتي من المدرسة أجدها واقفة عند باب المنزل وهي تحرّك رأسها وذيلها باستمرار ، وحالما تراني تطلق صيحات جذلى. وقد أخبرتني أمّي أنّه حين يقترب موعد عودتي من المدرسة تتّجه بطتي نحو باب المنزل وتبقى هناك حتّى أدخل. وقد راودتني فكرة اصطحابها إلى المدرسة، ولكنّني خشيتُ أن يطردها المعلّم من الصفّ أو يستهزئ بي زملائي التلاميذ.

تقع دارنا في أطراف القرية لا تبعد كثيراً عن النهر، إذ لا تفصلها عنه سوى مزرعة للخضراوات لا تَحول نباتاتها دون رؤية النهر من شرفات منزلنا. وكان من عادة والدي أن يخرج كل مساء بعد صلاة العشاء ليتمشّى بعض الوقت ثمَّ يتوقّف على ضفة النهر قبالة دارنا ليتسلّى بصيد السمك. كان يضع الطعم في السنّارة ثمَّ يلقي بها بعيداً في الماء، وبعد وقت يقصر أو يطول، يهتزّ مقبض السنّارة بيده، فيبتسم إدراكاً منه أنَّ سمكة ما قد علقت بسنّارته، فيلفّ الخيط على الحامل حتّى تخرج السمكة من الماء وهي تضطرب وتهتزّ بشدة، يقبضها بيده، يتأمّلها قليلا، يخلّصها من السنارة، ويعيدها برفق إلى الماء. وكان من حين لآخر يصطحبني معه في نزهته المسائيَّة تلك. ومنذ أن حازت البطّة على عضويَّة العائلة، صرت أرافق والدي كلّ مساء في تلك النزهة، والبطّة في إثري، بطبيعة الحال. وفيما كان والدي يصطاد السمك ويتحدَّث إليّ، كانت البطّة تسبح بالقرب منا في النهر، غاديةً رائحةً. وعندما يحين موعد العودة إلى المنزل، يكفي أن أناديها باسمها لتقفل راجعةً نحونا بسرعة، ثمَّ تمشي متبخترة وراءنا إلى المنزل.

في مساء ذلك اليوم، كان والدي مسافراً إلى مدينة أُخرى في شأنٍ من شؤون تجارته. وبعد العشاء، استأذنتُ والدتي لاصطحاب بطّتي إلى النهر لتسبح. قالت أُمّي وهي متردِّدة: « إنَّ أباك غائب، أليس من الأفضل الانتظار حتى يعود صباح الغد؟ » أجبتُ محتجًّا: « ولكنَّني لم أعُد طفلاً، لقد أصبحت رجلاً. يمكنك الاعتماد عليّ، يا أمّاه ». ثمَّ انفلتُ خارجاً والبطة ورائي.

وسرعان ما وصلنا إلى النهر، واندسَّت البطة في مائه، وكنتُ والقمر نشاهدها تعوم طافيةً على الماء وتغطس فيه ثمَّ تبرز لتنتفض هنيهةً ثم تغطس ثانية، وأنا أستمرُّ في توجيه الكلام إليها ومداعبتها بأطراف أناملي، والقمر يواصل إرسال أشعته إليها ويغمرها بنوره.

وفيما كنّا على تلك الحال ظهر في أعلى النهر سرب من البطّ البريّ، تتقدّمه بطّة كبيرةٌ قاتمة اللون كالبجعة السوداء، وهو متّجه جنوبا مع مجرى النهر، ويطلق أفراده صيحات متلاحقة متقاطعة غير متناسقة. توقّفت بطّتي عن اللعب ولوت عنقها الطويل نحو سرب البطّ. وعندما صار السرب إزاءنا في وسط النهر، رأيت بطتي تتحرّك نحوه ببطء ثمَّ بسرعة متزايدة وهي تبعث بصيحات مماثلة، فتنضمّ إلى بقية البطّ، وتنساب معه في وسط الماء منحدرة مع المجرى، وتأخذ في الابتعاد شيئاً فشيئاً. ناديتُ: «وفاء»، وأنا أتقدّم خطوة أو خطوتين على جرف النهر، فلم تلتفت إليّ. وكررتُ النداء بأعلى صوتي: «وفاء، وفاء، وف...» فلم تعرني انتباها، بل لمحتُ عنقها الطويل يميل إلى البطات المجاورات عدّة مرات. وراح السرب يبتعد أكثر فأكثر حتّى قارب منحنى النهر، وأنا أتطلع إلى القمر في الأعالي بين الفينة والفينة وكأنّني استنجد به. وبعد لحظات اختفى سرب البطّ وراء المنحنى، ولم أعُد أبصرُ شيئاً في وسط المجرى سوى انعكاس نور القمر على صفحة الماء المتموجة.

وقلتُ في نفسي ستعود إليّ، إنّها تعرف الطريق تماماً، إنّها متمرّسة في السباحة في النهر. سأنتظرها ، سأظلّ في مكاني. وأحسستُ ببرودة الماء في قدميّ، فتذكرتُ حكايةً روتها لي أُمّي ذات ليلة. قالت: «إنّ ليلى التقت قيساً في صباح يوم ربيعي وهي تحمل جرَّةَ ماءٍ على رأسها، طلبتْ منه أن ينتظرها حتّى توصل الماء إلى أهلها وتعود إليه. وعندما شارفت مضارب أهلها ألفتهم يرحلون بجمالهم، وحملها إخوتها ووضعوها في الهودج، ولم يعُد بإمكانها أن ترجع إلى حبيبها لتخبره. وظلّ قيس ينتظر وينتظر حتّى أعشبت الأرض من بين أصابع قدميه». لا شكّ في أنّه شعر ببرودة في قدمَيه، هو الآخر. لقد انتظر طويلاً، وأنا سأنتظر بطتي فهي لا بُدَّ أن تعود إليّ.

وبقيتُ في مكاني منتظراً مصطبراً حتّى وافتني أمّي وأختي على ضفة النهر لتلفياني والدموع في عينيّ، وأخبرتهما منتحباً بما جرى، ولبثت أردّد « لماذا؟ لماذا؟ لماذا تخلّت عني؟ » وهما تقوداننني إلى المنزل. وقالت أمّي، وهي تقبلني وتضمني إليها وتمسح الدموع من خدّي: « لعلّ البط ومجرى النهر جرفاها من غير إرادة منها، ولعلّها تعود إلينا إن استطاعت لذلك سبيلا ». وأطبق الصمت شفتَي أختي، ولكنّني كنتُ ألمح نظرات الأسى والمؤاساة في عينَيها.

ونمتُ تلك الليلة على وسادتي المبتلة بعبراتي، وعندما استيقظت ضحى الغد لفت نظري رجلان يحفران شيئاً في فِناء الدار الواسع. وذهبتُ لأقبّل يدَي والدتي ووالدي كعادتي كلّ صباح، فوجدت أمامهما بطّتَين صغيرتَين. وقال لي والدي: لقد جلبتُ لك معي هاتَين البطّتَين هدية، وسنبني حوض سباحة في حوش المنزل لتعوما فيه دون أن تضطرّ إلى اصطحابهما إلى النهر.» ولكنّني أجبت بصوت متهدّج وأنا مطأطئ الرأس: « أريد بطتي، وفاء ».

15

عبرتُ جسر القرية في الفجر متوجّهاً للقاء زكي الذي كان ينتظرني خلف المقبرة. سرتُ بمحاذاة المقبرة الصغيرة في الصوب الآخر من البلدة. ألقيتُ نظرة على القبور المبعثرة هنا وهناك. الصمت ثقيل والسكون يرين. وهناك لاح لي، من بعيد، ضريح جدي تحت شجرة الصفصاف المتدلية الأغصان حتّى شاهد القبر. ونازعتني رغبة الاقتراب منه ووضع يدي على شاهد القبر للمرة الأولى بعد الألف وقراءة الفاتحة كما عوّدتني أمّي كلّ صباح جمعة. ولكن خشيتُ أن يفوتني الموعد المضروب.. وقلتُ في نفسي إنّ لحظاتٍ تكفي للوداع بلا دموع ولا نشيج؛ ما الذي سيحصل إذا ما

تأخَّرتُ دقائق معدودة عن الموعد المضروب للرحيل، لكنّها تكفي كي أترحم على جدي. سرتُ بين القبور المصطفَّة على الجانبيْن. وكان السكون يستغرق الأشياء، فالطيور لم تستيقظ بعد. غبطتُ ساكني القبور لأنَّهم باقون راسخون في تراب الوطن. واقتربتُ من قبر جدّي. وضعتُ يدي على شاهدة القبر ورحتُ أقرأ الفاتحة وأنا أحدِّق فيه بعينَيْن ترقرقتا بالدموعٍ. وفجأةً... لم أصدّق عينيّ. فجأةً رأيتُ الرمس ينشق رويداً رويداً. وشاهدتُ جدي مضطجعاً في اللحد. وما لبث أن نهض بقامته الطويلة الرشيقة. كان البرق ينهمر من عينيه، والرعد يقصف من نبرات صوته، والشفق مرسوم على شفتيه. أضاءت عيناه عتمة اللحد، وهزم صوته صمتَ المقبرة. لم يخترق صوته أذنيّ ولكنني أحسستُ بإيقاعه يشدّ أوتار قلبي.

ارتفع جدي في الهواء منتصباً على حافة الرمس ليصل إلى حيث كنتُ واقفاً، ثمّ عانقني بحرارة، كما كان يفعل عندما كنتُ طفلاً. كدتُ أسأله عن عصاه التي لم تكُن تفارقه. ولكنّه بادرني بالسؤال بعد أن لمح حقيبتي بيدي اليسرى. قال: إلى أين أنتَ راحلٌ يا سليم؟ أدعو الله أن تعود إلينا سالماً غانماً. حرتُ جواباً. الناسُ يسافرون للحج أو التجارة أو طلب العلم أو السياحة؛ وكلّهم يغنم شيئاً. أمَّا أنا فمغادر اضطرارا وفراراً، فأنا الخاسر الوحيد بين جميع المسافرين، بل أكبر الخاسرين؛ لأنّني سأفقد وطني، وأية خسارة أكبر من فقدان الوطن؟! بقيتُ صامتاً.

مدّ جدي يده إلى القمر فقبس شيئاً من نوره ووضعه على رأسي إكليلاً، ثم مدّ يده اليسرى إلى نهر الفرات وغرف حفنة ماء، مزجها بتربة القبر، وصنع منها خلطة علّقها تعويذة على عنقي. ألقيتُ بحقيبتي على الأرض. أمسكتُ كفَّه اليمنى بكلتا يديّ، قبّلت ظاهر كفه. تسرّبت رائحة المسك إلى أنفي. ورائحة الكافور. فقد كان والدي قد ضمّخ جسد جدّي، عند تغسيله على شاطئ الفرات قبل دفنه، بكثير من الكافور والدمع. وأنا من سيغسّلني

عند موتي؟ وبماء أيّ نهر؟ عدتُ أقبّل أصابع جدّي إصبعا إصبعاً. وتمثّلت أمام عينيّ تلك الليلة التي أسلم فيها جدّي الروح:

16

لن أنساها، تلك الليلة. كان أبي وأعمامي يُحيطون بالسرير الذي رقد فيه، وعيونهم شاخصة إليه، والحزن يتسرّب منها متعثّراً بأهدابها النديّة؛ على حين كانت أمّي وزوجات أعمامي جالسات واجمات في مؤخّر الغرفة والدموع تسيل بصمت من عيونهنّ. أمّا نحن الأطفال فقد كنّا فريسة الحيرة والأسى.

كان جدّي متأكّداً من أنّه سيفارقنا تلك الليلة. فقد أدرك ذلك منذ بضعة أشهر، وظلّ يردّد تنبؤه بأنّه سيموت عندما يعمّ الشّللُ أصابعَ يدَيه وقدمَيه جميعها، وأنّه سيلفظ أنفاسه الأخيرة حالما تموت الإصبعُ الأخيرة من أصابعه العشرين، أي إبهامُ قدمه اليمنى التي أصيبت صباح ذلك اليوم.

وحتّى اللحظة الأخيرة راحت شفتا جدّي تجاهدان لتلاوة آياتٍ من القرآن الكريم الذي كان يحفظه عن ظهر قلب منذ أن كانَ صبيًّا في الكُتّاب. وكانت آخر حركة له قبل أن يغمض عينَيه نظرةٌ وانيةٌ إلى كفّه اليمنى وأخرى إلى اليسرى. عندها قال معظم أبنائه الواقفين إلى جانبه: « نعم، نعم، الأصابع »، وانبجست الدموع من عيونهم، وعلا عويلُ النساء وضجّ الأطفال بالصراخ.

ألمّ بجدّي مرض غريب. بدا أوّل الأمر هيّنا ثمّ استفحل خطره، وعجزت كلّ تمائم فقيه القرية وخلطات عَشّابها عن علاجه وشفائه. وحتّى الأدوية التي وصفها له طبيب البلدة المجاورة فشلت في إيقاف سريان ذلك الداء الوبيل. كان جدّي قد لاحظ ذات يوم، وقد جاوز التسعين من عمره، أنّ خنصر يده اليسرى فقدت القدرة على الحركة، أو بالأحرى أنّه لم يعد قادراً على تحريكها إن أراد ذلك. وقد جزع لذلك جزعاً شديداً.

عندما علِم أبناؤه بالخبر، أسرعوا إليه من غرفهم واحداً واحداً، إذ كانوا يعيشون جميعا في دار واحدة، ويقتسمون أرزاقهم وطعامهم، طبقاً للتقاليد القديمة. وأخذوا يهوّنون عليه قائلين إنّه عارض طارئ وستعود الخنصر إلى سابق عهدها عمّا قريب. واستغربوا جزعه الشديد، خاصّةً أنّ بقية أعضاء جسده في حالة جيّدة، وأنّ الخنصر المشلولة لا تسبّب له ألما. أضف إلى ذلك أنّه لا يحتاج إلى تلك الخنصر ولا يستخدمها في عمل ولا حتّى في تناول الطعام. فلماذا كلّ هذا القلق وذلك الجزع؟.

ولكنّ جدي كان ينظر إلى الأمر بطريقة مختلفة، وكان له اقتناعه الخاصّ الذي لا يعرف أحدٌ كيف توصّل إليه وما مدى صحّته. كان يعتقد أن توقّف الخنصر عن الإحساس والحركة سيؤدّي حتما إلى إصابة البنصر المجاورة بالعارض نفسه، وأنّ شلل البنصر سيؤدّي حتما إلى شلل الإصبع الوسطى، فالسبابة، فالإبهام. وعندما تفقد جميعُ أصابع اليد قدرتَها على الإحساس والحركة، فإنّ الذراع برمتها ستكون معرّضةً للخطر. وسيصيب الداءُ أصابعَ اليد الأخرى، ثمّ أصابع القدمين واحدةً واحدة. وبعد أن تُصاب الأصابعُ كلّها بالشلل يموت الإنسان. ولكنّ أبي وأعمامي طمأنوه أنّ خنصره ستُشفى قريباً، وأنّه لن يتعرّض لسوء، فقد توهّموا أنّ جدّي سيعيش إلى الأبد، لطول ما ألفوه صحيح البدن معافى.

لم يعرف أحدٌ من أعمامي من أين أتى جدّي بتلك النظريّة الطبيَّة التي لا يوجد دليل على صحّتها ولا سابقة سريريّة ترجّح احتمال وقوعها. لم يسمعوا قطّ بإنسان مات بتلك الطريقة من قبل. بل، على العكس، سمعنا جميعاً بأشخاص فقدوا أصابعهم أو وُلِدوا بدونها وهم على قيد الحياة. وقد رأينا بعض هؤلاء الأشخاص. ولكنّ أيّا من أعمامي لم يتمكّن من إقناع جدي بخطأِ نظريّته؛ إذ كان كثيراً ما يتمسّك برأيه ويدافع عنه بصلابة تصل أحياناً درجة العناد، مُدعِّماً وجهةَ نظره بحجج واستشهادات مُستَمَدَّة

من الأمثال والأشعار والأقوال المأثورة وكلّ شيءٍ في مخزون ذاكرته الضاربة جذورها في أعماق الزمن. ولهذا كفّوا عن مناقشة الموضوع معه، آملين أنّ الأيام ستثبت عكس ما يتوهّم. وأكثروا من مصاحبته في النزهات القصيرة التي كان يقوم بها عصر كل يومٍ على شاطئ النهر.

غير أنّ الرياح جرت بما لا تشتهي السفن. فبعد مضي أسبوعَين فقط على إصابة خنصر يده اليسرى، استيقظ ذات يوم وهو يردّد أنّ البنصر التي بجانبها قد توقّفتْ عن الحركة. وهذا ما أكّد له نظريّته، وجعل أبي وأعمامي في حيرة من أمرهم، ولم يجدوا ما يقولون.

العجيب في الأمر أنّ جدّي كان يولي أهمّية قصوى لأصابع اليدَين والقدمَين، أكثر من أيّ عضوٍ آخر من أعضاء الجسد. فالأصابع، في رأيه، هي عنوان الصحّة والعافية، لأنّ نبضها يتّصل مباشرة بالقلب، وعصبها يمتدّ رأساً إلى الدماغ، " ألا ترون أنّ الطبيب يجسُّ الرسغ، قاعدة الكفّ التي تحمل الأصابع؟ " وجمال المرأة، في نظره، يكمن في شكل أصابعها وتناسقها ونعومتها ونظافة أظافرها. ويؤكّد ذلك قائلا : " حتّى الأعمى يستطيع التعرُّف على المرأة الجميلة من مجرّد مصافحتها ".

عندما كان جدّي يعرب لأبنائه عن حبّه لهم لا يقول : « أنتم أغلى من العينيْن ». كما يقول الناس في قريتنا عادة، وإنّما يقول لهم: « أنتم عندي أغلى من أصابعي ». ثمّ يذكر قول الأعرابيّة التي سُئِلت عن أيّ أولادها أحبُّ إلى نفسها فأجابت : « صغيرُهم حتّى يكبر، ومريضهم حتّى يشفى، وغائبهم حتّى يعود ». ويضيف قائلاً: « وفيما عدا ذلك فأنتم عندي متساوون في المحبَّة مثل أصابعي، لا فرق بين إصبع وأخرى ».

كنّا ـ نحن الأطفال من أحفاده ـ نُحسُّ بحرارة حنانه أكثر عندما يضع يده على رؤوسنا ويأخذ في تمسيد شعرنا بأصابعه،

أو يمرِّر أصابعه برفق على وجناتنا. كان ذلك بالنسبة لنا علامة لا تُخطئ على الحنان والرِّضا أكثر من قُبلة يطبعها على الخدّ أو ضمّة إلى الصدر. وعندما يداعبنا أو يلعب معنا لعبة (قراءة الكفّ) التي يسمِّيها هو (قراءة الأصابع). يمسك بأصابع إحدى اليدَين ويطيل النظر لا إلى باطن الكفّ وإنّما إلى خطوط الأصابع الداخليّة. فأنتَ ستعيش طويلاً عندما تكون خطوط أصابِعك متباعدة. وستتمتع بصحة جيِّدة عندما تكون في قاعدة كلِّ إصبع خطوط صغيرة متشابكة. أمّا وضوح خطوط أصابعك فيدلّ على السعادة التي تنالها، بشرط أن تذاكر دروسَك جيِّداً وتطيع والديك.

ما زلتُ أذكر تلك المرّة التي لعبنا مع جدّي لعبة الألغاز والأحاجي. كنّا نطرح عليه بعض الألغاز التي التقطناها في المدرسة من الأطفال الآخرين، فكان يعجز أو يتظاهر بالعجز عن حلّها، فتجيش صدورنا بالفرح والغرور، ونتسابق لإعطاء الإجابة الصحيحة بأصوات مرتفعة. وعندما جاء دوره لطرح لغز علينا، سألَنا ببساطة: « ما الفرق بين الإنسان والحيوان؟ » أجبنا بكلّ ثقة: « اللغة »، لأنّ مُعلّمنا حفّظنا التعريف القائل « الإنسان حيوان ناطق ». فلم تبدُ علامات الإعجاب أو الرضا على وجه جدّي وقال: « وللحيوان لغته الخاصّة، وإلا فماذا تسمّون نباحِ الكلب، وعواء الذئب، ونهيق الحمار، وصهيل الفرس؟ » فكّرنا قليلا ثمّ قال بعضنا: « التفكير. الحيوان لا يفكر ». وردَّد بعضنا الآخر: « أجل، الحيوان لا يفكر ». ابتسم جدّي بتواضع العارف وابتسامة المنتصر، وقال: « وكيف تفسّرون مكر الثعلب وحِيَله، إذن؟ » وعندما عجزنا عن الإتيان بجواب قد يرضيه، اتَّجهت أبصارنا إليه متلهّفة للجواب، فقال بنغمة الواثق من معرفته: « إنّ الفرق بين الإنسانِ والحيوان، يا أعزائي، يكمن في الأصابع. فقد أصبح الإنسان إنساناً عندما أخذ يتحكم في تحريك أصابعه واستخدامها في قطف الثمار من أشجار الغابة، ومسك الأحجار لإشعال النار، وصنع الأواني والأدوات. إنّنا نعمل بأصابعنا والحيوان لا يعمل... ». وأطرق قليلاً ثمّ رفع رأسه

ونظر إلى وجوهنا وأضاف قائلاً : « إنّ الأصابع لا تميّز الإنسان عن الحيوان فحسب، وإنّما تميّز الإنسان عن الإنسان كذلك. ألا ترون أنّ الشرطة تستدلّ على المجرم بعينه من بصمات أصابعه؟ ».

اعتقد جدّي بإخلاص أنّ الأصابع أهمّ بكثير من أيّ عضو من أعضاء الجسد. كان يُدهشنا حين يقول: « الأصابع أهمّ من اللسان والعين، مثلاً. فالأخرس يستطيع أن يعبّر عن معانيه بأصابعه بلغة الإشارات، والأعمى يستطيع أن يتعرّف على الأشياء عن طريق لمسها بأصابعه كذلك. ولكنّ اللسان والعين لا تعوّضان الأصابع ولا تقدران على تأدية وظائفها». فكنّا نحار جوابا، وإن كان بعضنا لم يقتنع تماماً بما قاله.

لا أدري كيف كان جدّي يستطيع إقحام الأصابع في أيّ موضوع نناقشه. فإذا تحدّثنا، مثلاً، عن الموسيقى والرقص، لم يفُته الإشارة إلى أنّ الأصابع هي الأساس فيهما، فأنتَ لا تتمكن من العزف على البيان أو العود أو الطبل بدون أصابعك. وحتّى الناي الذي ننفخه بالفم يبقى مجرَّد صوت أجش ما لم تُشكّله حركةُ الأصابع على الفتحات فتجعل منه نغماً شجيًّا. أمّا أفضل الراقصات، في نظره، فهي تلك التي ترقص بأصابع يديها وتدبك بأصابع قدميها.

باختصار، آمن جدّي بأنّ قوّة الإنسان وصحّته وإنسانيّته تتجلّى في أصابعه، بشرط أن تكون الأصابع مجتمعة متراصّة، فإذا تفرّقت فقدت قوّتها وصلابتها. بل أكثر من ذلك، كان يعتقد أنّ الأمراض تتسرّب إلى الجسم من الأصابع، وعلى وجه الدقّة من نهاياتها خاصة إذا كانت منفرجة. ولهذا كان يحرص على أن تكون أصابع يديه متلاصقة دائماً حتّى إن لم تكن ثمة حاجة لذلك.

ولا شك في أنّ جدّي لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتحسّر على عدم تمكّنه من جمع أصابع يديه المنفرجة، ولهذا أومأ إليها بعينيه فقط.

17

في فورة الحمى التي انتابتني هذه الليلة، رأيتكِ تقتربين مني، يا أثيرة؛ عيناكِ شاسعتان ترفلان بأزهار النرجس، وخداك تفاحتان حمراوان، وفي شفتَيكِ الكرز، ورمانتان يانعتان على صدرك النابض، وبين يديك سلّةٌ طافحةٌ بأزهار الليلك والفل والياسمين والقدّاح والخزامى. وأنتِ باسمة. حضرتِ فضجّتْ جميع عواطفي وأحاسيسي الخيرة العميقة في عزفٍ سمفونيٍّ سماويّ، وأنا ـ قائد الفرقة الموسيقيَّة المفترض ـ بقيتُ منبهراً عاجزاً عن تحريك أطرافي، أو حتّى أصابع يدي أو رموش أجفاني. تخلّيْتُ عن القيادة والتوجيه وبقيتُ غارقاً في أحلامي، وصكّ سمعي أنغامُ الحنان والحنين والمحبَّة.

رأيتكِ تضعين يدكِ برفق على جبيني، ثمَّ تطأطئين رأسك حتّى تلامس شفتاك شفتيّ، وتطبعين قبلةً حارَّةً طويلةً لذيذةً على فمي؛ لها طعم العسل أو طعم حلمة ثدي أمّي وهي ترضعني في طفولتي، وتهمسين إليّ: « سليم، يا حبيبي، لم يفارق خيالُكَ عيني ولا قلبي لحظةً واحدةً منذ افترقنا. لقد أحرقَتْ كبدي نيرانُ الندم. ماذا فعلتُ بكَ عندما كنتَ ضيفي في المغرب. أتيتكَ اليوم لأعتذر إليكَ، لأطلب الصفح منكَ، لأعوّضكَ عما فاتكَ من حناني وشهدي. سأنسيك أيام العذاب وليالي السهد. تعال إليّ، يا حبيبي، أضمّكَ إلى صدري، أخبّئكَ في قلبي، بين ضلوعي، ونرتوي حياةً وحناناً، ولن نفترق بعد اليوم. فقد أسأتُ إليكَ ما فيه الكفاية. أرجوكَ أن تسامحني، وتغفر قسوتي عليك وغدري بك. لقد تعلّقتُ بوهمٍ غابرٍ وأنتَ بجانبي دون أن ألتفتُ إليك. كنتُ أسمع صدى صراخَ الموتى من وراء حجار القبر البعيد، ولم أسمع همسات حبّكَ الرقيقة قربي، حتّى أحرقتك الغيرة، ثمَّ قضيتُ عليك بالحرمان والهجر، يا حبيبي. تعال إليّ، هنا في عيوني مسكنكَ، وستظلّلك رموشي من شموس التشرُّد؛ وفي فؤادي موطنكَ، سيحميكَ من

زوابع الترحال. وستقول وداعاً أيّتها الغربة، فقد عدتُ إلى خميلتي ولن أبرح أبداً. ولكن هل تعدني، ياحبيبي بأنّكَ لن تتخلّى عني كما تخلّيت عنكَ، هل تعدني بأنّكَ لن تنتقم مني لما فعلتُ بكَ، فتتركني كما تركتُكَ. هل ستسامحني حقّاً من أعماق قلبكَ، وتنسى الماضي كي نعيش للمستقبل؟ أتعدني، يا حبيبي؟ قُلْ لي، يا حبيبي، ما أنتَ فاعل بي؟؟ ».

تجمّعتْ دموع الفرح في عينيّ. وفجأة أخذتُ أصرخ: « أسامحكِ يا حبيبتي أثيرة، سامحتكِ منذ اليوم الأوّل، نسيتُ ما فعلتِ بي، لم تفعلي شيئاً، لا ذنب لكِ. ومِن أينَ للوجهِ الجميلِ ذنوبٌ؟! وأنا لم أنسَكِ يوماً. فعلى الرغم من بُعد المسافة، كانتْ علاقتي بكِ معجونة بالمحبّة والوفاء. بكيتُ من أجلكِ كثيراً. هل رأيتِ قتيلاً بكى من حبِّ قاتله قبلي؟ سعيدٌ برؤيتك مرّةً أخرى. ولنبدأ من جديد كأنّنا نلتقي أوّل مرّة. أو كما التقينا في قاعة الدرس في المرّة الأولى. عيناي تلتصقان في جبهتكِ، وعيناك تغرسان المحبّة في نفسي. هاتي يدكِ، ضعي أناملكِ على صدري، وستعلمين أنّني أحدّثك بنبض القلب، وهمس الروح».

وتسألينني: " وهل عرفتَ غيري من الفتيات خلال هذه السنوات، يا سليم؟ ".

فأجيب: " نعم، نعم، يا أثيرة، لكنّهن لم يدخلن مهجتي كما دخلتِ أنتِ. بقينَ هناك خارج أسوار القلب، صوراً في فضاء ضبابيٍّ، هيكلاً بلا روح؛ أمّا أنت فقد كنتِ تهَبين وجودي مذاقاً لا يتكرّر في العمر كله. أنتِ لحن حياتي الخالد توقعينه بإيقاعاتك كما تشائين. أنتِ روحي، تمنيتُ لو أستطيع العشق بعدك، يا حبيبتي... "

وتقاطعينني قائلة بغنج :

" لا. لا أريدكَ أن تنظر إلى واحدةٍ غيري... ".

وهكذا بكلّ بساطة، تلاشتْ جميع معاناة سنوات القحط

الطويلة في لحظة قصيرة. في لحظة واحدة تحوَّل علقم الفراق شهداً، وتبدَّل سمُّ الهجر رحيقاً. عشرون عاماً لم أجد فيها مخرجاً لمأزقي، عشرون عاماً لم أهتدِ خلالها إلى خاتمة لمأساة الجفاف الذي يحاصرني. وفي لحظة خاطفة تنثرين الحلَّ على فراشي كقطرات المطر، كبذور الزهور الندية، كأجنحة الفراشات الملوّنة. فيتبرعم في جوانحي الحنين، وتُورِق في أعماقي المحبّة، وتنمو حقول الفرح والأقحوان على ضفاف الروح، وتستحمّ عصافيرُ جذلى بعطر الربيع ونور الشمس. هكذا، بكل بساطة، وبلا عناء، وبابتسامة واحدة منكِ. ولكن هل تستطيع ابتسامةٌ واحدةٌ من زهرةٍ أن تغطّي غابة داكنةً من الأحزان؟ فقد مرق فرحي سريعاً مثل إطلالة شمسٍ في يومٍ غائمٍ ممطرٍ.

فعندما فتحتُ عيني، شربها السواد، فتحتُ عيني فأكلها الفراغ. لا شيء في الظلمة سوى أريجك. كنت أحلم. مجرَّد حُلم واحد من أحلامي المُعدَمة بلا مأوى، البائسة بلا أمل. إنَّه الحلم الذي يبتكر الحلول السهلة لأعقد مشكلات الحياة. وكنتُ، وأنا في هلوسة الحمى، بين اليقظة والحلم، بين الممكن والمستحيل. كنتُ على تخوم العدم، فوجدتِني سهلَ المنال، ملكَ يديكِ، حتّى بدتْ لي حفرةُ القبر المظلمة حديقةَ ورودٍ زاهية الألوان، في عالم عجائبيٍّ لم يحطّ عليه خيالٌ من قبل، ولم يناغِه تصوّر. وحالَما عدتُ إلى وعيي تبيّن لي أنّه مجرّد سرابٍ لا يروي ظمئي المزمن، ولا يُطفِئ أشواقي المستعرة الأوار. إنَّها أوهامكَ يا قلبي، فذُق مرارة الخيبة. كم مرَّة قلتُ لكَ يا قلبي: إنَّكَ تحلم بأعالي القمر المنيرة دوماً، وتنسى أنَّنا نعيش على وهاد الأرض القاحلة الكأداء. كم مرَّة، يا قلبي، قلتُ لكَ إنَّ المحبَّة كالماء من السهولة التفريط به، ولكن يصعب جمعه بعد إهراقه. آه، إنني لستُ نادماً على ما فعلتُ، ولكنَّني نادمٌ على ما لم أفعل.

18

عند آخر المقبرة، وجدت زكي في انتظاري، فمشينا سويّةً بصمت. ليس هنالك ما يُقال. فقد كان الجرح أكبر من الكلمات. وقبل أن أغادر القرية، التفتُ إلى نهر الفرات ورائي، طفتْ عيناي على مائه، والتصقت قطراته بسوادهما إلى الأبد. فما عدتُ أرى شيئاً إلا من خلال مياهه.

وعندما غادرتِ الحافلةُ الحدود، بدأ عصر نهاية الفرح وصار وطني مجرَّد حقيبة أحملها بيدي، ومحض ذكريات تختلج في وجداني، وأملاً يتوهَّج ويخبو أمام ناظريّ. وكنتُ أتساءل في نفسي وأنا أودِّع وطني في بهيم الليل ما إذا كنت سأعود إليه في وضح النهار. حينما عبرتُ الحدود، سقطَ من يدي شيءٌ اسمه السعادة، وضاع في رمال الطريق؛ وبقيتْ رسوم الوجوه، وتضاريس الأمكنة، وأشكال الأشياء، وأريج الروائح، لصيقةً عالقةً بشغاف القلب، لا سبيل لمحوها. ومنذ تلك اللحظة توالت حرائق العذاب، دون أن يخرج دخانها من نوافذ الكلمات.

لو كان الأمر بيدي لما هجرتك يا وطني، أبداً. ليتني متُّ فيك ولم أغادرك. فرفاتي في تربتك أسعد حالاً من وجودي على قيد الحياة بعيداً عنك. كنتُ أمنّي النفس بأنَّ إقامتي في لبنان لن تطول، فالله يغيِّر من حال إلى حال. ولبنان بعد ذلك كلّه جزء من وطني الكبير، ولا ينبغي أن أشعر فيه بالغربة. ففي لبنان أرى روابي وطني الخضر، وأتبين ملامح أهلي في وجوه المارة، وأسمع لغتهم تُنطق بلهجة محبَّبة، وتعانق سمعي أغانينا ومواويلنا وأهازيجنا، وأشمُّ فيه روائحنا. ولستُ أوَّل عراقي يفد إلى بيروت ولن أكون آخرهم. فمنذ زمن السومريِّين كان الناس يطلبون بلاد الأرز لاجئين ومستوطنين ومغامرين. إلى هنا وصل جلجامش برفقة صديقه الوفي أنكيدو باحثاً عن نبتة الحياة. وأنا أتيت إليك،

يا لبنان، مع رفيقي حفاظاً على الحياة. ففتحتَ وهادكَ لاحتضاننا، وصافحتنا بطيب رُباك، وبسمات أهلك.

دخل كلكامش واقترب من أمه، وقال:

« يا ننسون! لقد اعتزمتُ أمراً جسيما
اعتزمت سفراً بعيداً، إلى موطن « خمبابا »
إنّني مُقدِمٌ على قتالٍ لا أعرف عاقبته
ومُزمِعٌ على السير في طريق لا أعرف مسالكه

19

كانت الحافلة التي أقلت سليم وزكي من بغداد إلى بيروت تطوي الصحراء المترامية الأطراف طيّاً، والطريق تمتدُّ تحت أشعة القمر الفضيَّة امتدادَ البصر. لا شيءَ يحجب البصر أو يصدُّه في الصحراء، لا شيء سوى الرمال، رمال بكر لم يطرقها طارق، ولم ينبت فيها نبت. تصرف عينَيكَ عنها إلى السماء لترى القمر مضيئاً ومحاطاً بالنجوم اللاهثة، فتشعر بعظمة الكون واتّساعه. وتعجب من امتداد الصحراء وشسوعها. ينطلق العقل من عقاله مبهوراً بين رمال الصحراء الذهبيَّة والنجوم الفضيّة اللامعة، وتقول في نفسكَ لا غرو أنَّ جميع الأديان السماويَّة الكبرى وُلدت في هذه البيداء، لأنّ أفكار السماء لا يتسع لها مكان إلا إذا كان باتساع هذه الصحراء.

نام معظم الركّاب في مقاعدهم، حتّى زكي الذي لم يفه إلا بجملةٍ واحدةٍ بعد أن تحرّكت الحافلة في بغداد:

ـ ها أنا ذا أغادر بغداد دون أن أودِّع حميدة وهي على بُعد خطوات معدودة مني!

على حين ظلَّ سليم ذاهلاً صامتاً، ولم يحطَّ على عينيه طائر النوم.

إلى جانب سليم في الحافلة، جلس رجلٌ فلسطينيٌّ في الثلاثينيّات من عمره. بقي هذا الرجل يتطلع، مثل سليم، من النافذة إلى السماء والصحراء. التفتَ إلى جهة سليم فالتقت نظراتهما. قرأ سليم في عينيْه رغبةً في الكلام. كان يريد أن يتحدّث إليه أو إلى أيّ إنسان، أو يحدّث نفسه بصوت مسموع. قال له سليم :

ـ هل هيجتْ قريحتكَ الصحراء؟

ـ ليست الصحراء، بل الاقتراب من الديار.

سأله سليم:

ـ من أيِّ بلدةٍ أنت؟

ـ دير ياسين، دير ياسين.

كان اسمها كافياً لفتح الجرح فاغراً في القلب. لم يقُل سليم شيئاً ولكنَّ عينيه تضرَّعتا إلى الرجل أن يتحدَّث إليه، أن يزيد الحزن اشتعالاً، والجرح إيلاماً. قال الرجل:

« كنت نائماً مع أُمّي وأخي الكبير وأختي الصغيرة. أفقنا بعد منتصف الليل على صوت المدافع، ولعلعة الرصاص، من جميع الجهات. كان عمري تسعة أعوام. لن أنسى ذلك اليوم. خرج أخي الكبير ليستطلع الأمر. عاد بعد قليل بسرعة : اليهود يهاجمون القرية. كانت دير ياسين بلدةً صغيرةً جميلةً على ربوةٍ عالية. وكانت بيوتها المبنيَّة من الحجر الأبيض تنتشر على السفوح بشكل متناسقٍ جميل، وقد أحاطت بها أشجار الصنوبر والأشجار المثمرة. لم يكُن أبي معنا تلك الليلة، كان يقوم بالحراسة مع عمّي وخالي. عمّي كان مسؤولا عن المدفع الرشاش المنصوب على أحد مدخلي القرية. أخذَنا أخي الكبير إلى طريق عين كارم، وأعطاني أختي الصغيرة أحملها على ظهري، لأواصل السير مع عدد من الأطفال الآخرين وبعض النساء، ودَّعنا على

عجلٍ وعاد. مررنا على مدرستي الصغيرة. كانٍ الرصاص يمرّ فوق رؤوسنا مثل المطر. كانت دير ياسين مثالاً للتسامح والتآخي. حتّى اسمها مركّب من دير بناه راهب مسيحي منذ قرون واسم مسجد القرية الذي بناه الشيخ ياسين. عند انبلاجِ الفجر كنا منهكين مذعورين. توقّفنا على ربوة في الطريق تطل على سفح القرية. رأينا من بعيد اليهود يقتحمون بيوت القرية، يجمعون النساء والأطفال والشيوخ، يجعلونهم يقفون أمام جدار ويطلقون النار عليهم. كان بيتنا في منطقة الجلجال ليس بعيداً عن الجملونة أو الخربة. كان أهالي القرية لا يتجرأون على دخولها ظنًّا منهم أنَّ القبور بداخلها مسكونة. لم أرَ والدي ولا أخي ولا أمّي بعد ذلك اليوم. أمّي بقيت تساعد الجرحى. قتل اليهود أكثر من 250 شخصاً في يومٍ واحد. إنّها مجزرة. مجزرة...“

ثمَّ أطرق قليلاً، ورفع رأسه وأضاف:

- إنَّ الصهاينة يستلهمون تراثهم الحربيّ كما ورد في الأسفار التي كتبها أحبارهم، وهي مليئة بالحقد والكراهية. ففي سِفر يشوع 16:22: «وحرّموا كلّ ما في المدينة من رجلٍ وامرأة، من طفل وشيخ حتّى البقر و الغنم والحمير بحدّ السيف». وفي سِفر صموئيل 15:3: « فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كلّ ما له، ولا تعفُ عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأةً وطفلاً ورضيعاً وبقراً وغنماً وجملاً و حماراً». فتراثهم لا يشتمل بالمقابل على وصيةٍ مثل وصية الخليفة أبي بكر الصديق إلى يزيد بن أبي سفيان، قائد أحد الجيوش المتوجّهة إلى الشام لتحرير أهلها من قبضة الرومان: « إنّي موصيكم بعشر كلماتٍ فاحفظوهن: لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً صغيراً، ولا امرأةً، ولا تهدموا بيتاً أو بيعةً، ولا تقطعوا شجراً مثمراً، ولا تعقروا بهيمةً إلا لأكل، ولا تحرقوا نخلاً ولا تغرقوه...»، وهي وصية نعلّمها لأبنائنا في المدارس، وقد سبقت مفهوم الغرب لجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية بأكثر من ألف وأربعمائة سنة.

كان اسمه زيدان. وكان عائداً من بغداد في طريقه إلى لبنان، ليلتحق بالفدائيّين الفلسطينيّين. وكان وجهه موسوماً بالشهادة والموت.

20

في بيروت واجهت سليم وزكي مشكلة الوقت. ماذا يفعلان بهذا الوقت الفائض. كانا بدون عمل يشغلهما، ولا أهل يؤنسونهما، فعادت حياتهما فريسة السأم. عجيب أمر هذا الوقت: عندما يحتاج إليه الإنسان يفرُّ من بين يديه، يصبح بضاعة نادرة الوجود يستحيل اقتناؤها أو استعارتها. وعندما لا يحتاج المرء إليه، يكثر عنده حتّى يغدو عبئا عليه، ويمسي زهيد الثمن مثل سلعةٍ بائرةٍ لا يُقبِل عليها أحدٌ مهما رخص ثمنها.

لا بدّ أن يبتدعا الوسائل التي تستغرق الفراغ وتطرد الملل. كان اختيار سليم الأوّل القراءة والكتابة. وكان اختيار زكي اكتشاف الأماكن والآثار اللبنانيَّة، والتعرُّف على المثقَّفين في لبنان. كانت القراءة لدى سليم بمثابة هروبٍ كبيرٍ من المكان والزمان. كان يندمج مع الكتاب فيصطحبه المؤلِّف معه إلى فضاءاتٍ واسعةٍ جديدةٍ ينسى معها غرفته الصغيرة في النُّزل، ويأخذه إلى أزمنةٍ مغايرةٍ لزمانه، موغلةٍ في الماضي السحيق تارةً، ومستكشفةٍ المستقبل البعيد أحياناً، فيتفاعل مع تلك الأزمنة، ينبهر بها أو يستاء منها، ويودُّ أحياناً لو كان قد خُلِق فيها، وأحياناً أخرى يفضِّل زمنه عليها. أحبَّ سليم القراءة في صغره قبل أن يتعلّمها في المدرسة.

في بيروت، كان سليم كثيراً ما يجلس وحيداً في غرفة النُزل الكئيبة، يقرأ في جريدة، يفتِّش في زواياها، لعلّه يعثر على خبر صغير عن بلده، ثمَّ ينفلت فكره من قيود المكان، يقفز على ركام الزمان، فيجد نفسه في طفولته، وهو يجلس في خميلةٍ من خمائل

بستانهم، يقرأ في كتابٍ على مهل، والنخلات الحانيات تحتضنه، تظلّلنه بالسعف الطويل الذي يتمايل في رقصة بطيئة مع النسيم. تتناهى إلى سمعه من بعيد أصوات الطبيعة الحالمة: حداءُ قُبَّرةٍ محلّقة، خوار بقرةٍ سارحة، صهيلُ فرسٍ جامحة، نغمُ مزمارٍ يعزفه راعٍ عاشق، خريرُ جدولٍ منسابٍ بالقرب منه. وتتناغم كلّ هذه الأصواتِ في سمفونيَّة جميلة، تبعث البهجة في النفس، تحمله منتشياً إلى الأعالي مثل نسمة.

في بيروت، صارت القراءة والكتابة صاحبَيّ الوفيَّيْن اللذَيْن يؤنسانني في وحدتي، ويخفّفان عنّي وحشتي، ويحملانني بعيداً عن غربتي وتعاستي والتياعي. يمدّان يدين رحيمتين لانتشالي من رمال الكآبة المتحركة. كنتُ أعود في المساء، بعد جلسة مع زكي، إلى غرفتي العارية إلّا من فراشٍ ملقىً على سرير، فأمارس هروباً لذيذاً من عالمي الحزين والزمن الكئيب بالكتابة، كنت أتمتّع بالاقتراب من خميلة اللغة، والتوغل في أدغالها، واستكشاف خباياها وأسرارها. كنت ألوذ مختبئاً بين تلال العبارات، أنحت من الحروف والكلمات حوريات أراقصهنّ، أخلق من الفواصل والنقاط عالماً يستحيل وجوده في واقعي الأليم. كلّ كلمة بسمةٌ حيّيةٌ تغرق في سيلٍ من دموع، وكلّ عبارةٍ ضحكةٌ يتيمةٌ تختنق في غصص مكبوتةٍ، والنصُّ همساتٌ وجلةٌ تضيع في صخب المعاناة، وأوراقي تمسح دمعتي، وتحتضن أسراري في صدر كتوم مقفل لا ينفتح إلا لمن يملك مفاتيح التأويل.

عندما أتعامل مع الكلمات أزداد وعياً بواقعي، تكتسي دلالاتها بعداً عمليًّا جديداً، تتحرّك بحروفها مثل فراشة، تخرج من صفحة الكتاب، تحتلّ حيّزاً ملموساً، تسير في الواقع أمام عيني. عندما أتعامل مع الكلمات، يلتمع اللون في جراحي، وتوغل رائحة المأساة نفاذةً في أعماقي، فأحسُّ بوجودي. في الكتابة تنهدّ السدود وتنمحي الحدود، وأستطيع أن أفعل ما لا أناله في الحياة، تنعدم المحرّمات، أرفرف على وجه الصفحات، مثل عصفورٍ طليقٍ

في بستان. لم أتعلّم كيف أتنكب البندقية فتعلمت كيف أمسك بالقلم بأناملي.

حين أكتب تتجدَّد العلاقة بيني وبين الأشياء حولي ولا يظلُّ الوجود واجماً موحشاً كئيباً يخلو من رعشة العشق وسحر المغامرة. أنفعل بالكتابة، وبالكتابة ينفعل الوجود، ولولاها لما بقي لوجودي معنى. لكلّ حرف لونٌ ورائحة وطعمٌ. وحين أكتب أحسُّ برعشة الكلمات وشهقة المعاني وفرحة الاكتشاف. بالكتابة كنتُ أنتقم من الوقت فأنساه. تمرّ الدقائق والساعات دون أن أشعر بها، دون أن آبه لها. أسوّد بالليل عشرات الصفحات. وقبيل الفجر أقرأها. أمجّها. أمزّقها، أحرقها.

لم يكُن سليم أوّل مَن مزّق أو أحرق أو دمّر ما أبدع. النحّاتة الجميلة كامي كلوديل هشّمت جميع التماثيل الرائعة التي أمضت الأيام الطوال في إبداع ملامحها، لأنّ أيًّا منها لم يستطع أن يهَبها شيئاً من السعادة التي كانت تبحث عنها. حطّمت جميع تماثيلها. أبو حيان التوحيدي كتب عشرين كتاباً فخماً، ولكنّه كان يعيش في بؤس وشقاء. كانت حتّى الكلاب في بغداد تشبع من بقايا ولائم الحكّام والأغنياء، أمّا أبو حيان، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، فيهصره الجوع والسغب، فلماذا لا يحرق كتبه؟ إنّها لم تجلب إليه لقمة تسدّ رمقه.

21

عندما التقيتُ بك، يا أثيرة، كانت غربتي ضاربة، هل كنت تُحسّين بغربتي؟ كنتُ بعيداً عن مضارب أهلي، فأينما ذهبتُ وحيثما حللتُ، شعرتُ بأنَّ الناس حولي لا يشاركونني أفكاري، وتطلّعاتي، وآمالي. وأتيتِ أنتِ، وتوهمتُ أنّني لقيتُ جميع أهلي فيك، ظننتُ أنّكِ ستكونين لي الأمّ والأخت والبنت والحبيبة، ولكنّكِ وضعتِ ميّتاً بيني وبينكِ، وأقمتِ بيني وبين أحاسيسك

جداراً لا قِبَل لي على اجتيازه، ولا قوّة لي على الإطاحة به. فبقيتُ، كما كنتُ، أعاقر الوحدة، وأرتشف الغربة حتى الثمالة.

وعندما ارتحلتُ من بلادك، صار طيفكِ هو الذي يبعث فيّ الرغبة في الكتابة. ولكني كنتُ أقاومها، أجهضها، أشيح بوجهي عن القلم والورق؛ لأنّني لم أرِد أن أصبّ زيت المعاناة التي تصيبني أثناء الكتابة على نيران الغربة والخيبة والحسرة.

بالأمس فقط، عاهدتني، يا قلبي، أن لا نعود لذكراها، لا أنا ولا أنتَ ليلة البارحة، أخذتُ منك المواثيق للمرّة العاشرة بعد الألف أن لا نتذكّرها، لا أنا ولا أنتَ. أنتَ توصد أبوابك في وجه طيفها، وأنا أسدّ أنفي عن أريج عطرها، وأغمض عينَيَّ عن نظرة عينَيها، وأقطع لساني عن ترديد اسمها. ولكن، ها أنتَ ذا، يا قلبي، تخفق بشدّة عند قدوم طيفها من بعيد، وتفتح أبوابك مشرعةً أمامه، وتفرش له الطريق بالبساط الأحمر، كي يدخل كالفاتح العتيد، يا قلبي العنيد.

22

في بيروت، كان سليم يخرج أحياناً عصراً ليتنزّه بعض الوقت على شاطئ البحر (الكورنيش)، ثمَّ يجلس على مصطبة قبالة الصخرة (التي يسميها اللبنانيّون باسمها الفرنسي ـ الروشه ـ) ليقرأ في كتابٍ يحمله معه أو يشاهد روعة الغروب في البحر. أمّا زكي فقد كان يفضل رؤية الناس ومخالطتهم. كان يشعر بالدفء وهو بينهم. ولهذا فقد كان يخرج للتمشّي في أسواق بيروت، أو الجلوس في أحد المقاهي في شارع الحمراء، لقراءة كتابه هو الآخر.

كانا يعودان في المساء إلى النُّزُل ويلتقيان في صالته ليتحدّثا أو ليعدّا طعاماً خفيفاً يتناولانه معاً. لم يعلما مَن اشترى ماذا. كانا يتعاونان على المعيشة، فما عند احدهما هو عند الآخر، لا يعرفان فرقاً بين ملكيّة أحدهما وملكيّة الآخر.

ذوّبني الحنين إليك يا دارنا. حتّى النوارس تشتاق إلى اليابسة، تحطّ عليها، تلوذ بها، تتمسّح بترابها، تضع بيضها في مغارات صخورها، فكيف بي وقد أوغلتُ بعيداً في بحر الغربة، وعلتني أمواج البَين حتّى غمرتني؟! فسلامٌ عليك أيّتها الدار، يا مرفأ الطفولة، وسقياً لباحتك، وسلامٌ عليك أيّتها النخلة المباركة، ونسيمٌ بارد على سعفاتك الطوال، وغيث وياسمين على القبر الذي ضمّ رفاتك يا جدّي، وطلٌ وريحانٌ على جنباته.

23

عندما التقيتُ بكِ، يا أثيرة، لم أكن أمتلك شيئاً، فقد غادرتُ وطني خالي الوفاض. وطني المستلقي على بحيرة من ذهب أسود، وطني المدثّر ببيادر من ذهب أبيض، وطني المُتخم بالثروات والخيرات، يملكه اللصوص وسارقو الخبز وقاتلو الأطفال. أمّا أنا فلم أكُن أمتلك من وطني سوى حفنةٍ من ترابه، خبأتها في حقيبتي مثل تميمة. لم أكن امتلك من وطني سوى اسمه المجرَّد على جواز سفري المزوَّر الكسيح.

عندما التقيتُ بكِ، يا أثيرة، كانت قد جفّت جميع ينابيعي، وتصحّرت حقولي، واشتاقت سنابل نفسي إلى الغيث. ولكن غيومكِ رحلت في عليائها ولم تهطل على تخومي، فذوت سنابل حبّي قبل موسم الحصاد، وسأعاني سنواتٍ عجافاً لا أعرف أمدها ولا أعلم بضرّها.

في وحدتي وغربتي، أذرف الحنين، وأنزف شوقاً وحبًّا، وأنا أتساءل عن أسباب نكبتي، وأتلمس في أعماق نفسي جذور محنتي. أتراني كنتُ أبحث في ليل الوحدة عن مدينة لم تُبنَ بعد، مدينة جدرانها من ذهب، وشوارعها جداول رقراقة، سماؤها من زمرد، وهواؤها بلسم لجراح الماضي؟ أتراني كنت أفتش في عتمة دروبها عن امرأة لم تُخلَق بعد، امرأة جدائلها سنابل، وشفتاها

بسمةً دائمة، وعيناها شوقٌ ومحبّة؟ أتراني كنت أريد أن أعثر في مدارسها القديمة على كتابٍ لم يُكتب بعد، كتاب صفحاته حقول، وكلماته زهور، وحروفه موسيقى وغناء؟ وعندما تشرق شمس الصباح على أشلاء أوصابي وأوجاعي وأوهامي، وتضيئ أشعتها الدروب والأزقة، تتبخر أحلامي ولا أجد ما أقوله للشمس والصباح.

لم أتصوَّر أنَّ سنةً واحدةً فقط أمضيتها في المغرب كانت كافية لإشعال الحرائق مشبوبةً في القلب، وتفجير الدموع رقراقةً في المآقي، وزرع الندم المتنامي في أعماقي؛ ندمٌ لا يفارقني، يسكنني، يتملك جميع حواسي. لم أصدِّق أنَّ بلداً ساحرَ الطبيعة كريمَ الأهل، يستطيع أن يتسبّب في كل تلك القسوة وجميع ذلك الألم والمعاناة. ونسيتُ أنَّ المأساة كانت تتغلغل في أعماق نفسي.. ونسيتُ أنَّ الخطر قد يكمن خلف الخميلة، وأن الغدر قد يأتيك من أقرب الناس إلى نفسك وأحبِّهم إلى قلبك. لم أكُن أحسب أنَّ سنةً واحدةً أمضيها في المغرب، تجعلني أردِّد طول عمري تلك الأغنية القديمة التي تنزُّ من أغوار الريف العراقي مثل نزيف :

لو أدري أنا هكذ (ا) يصير، ما عاشرتهم

ما ذقت ـ ويلي ـ طعم النوم من يوم فرقتهم

يا ما عذاب داريت، ولأيامهم حنيت

ماخذني ودهم ـ يا ويلي ـ ماخذني ودهم،

24

ذات مساء عاد سليم إلى النُّزل في بيروت فلم يجد زكي. وكان في أغلب الأحيان يعود إلى النُّزل قبله. ولكنَّه وجد رسالة حملها إليه من العراق أحد المصطافين، فجلس في بهو النزل لقراءتها وانتظار زكي. كانت رسالة مرموزة هالت أخبارها تراب الحزن أكواماً على قلبه. لقد حوَّل الانقلابيّون المدارس إلى معتقلات،

وجعلوا من المكتبات وقاعاتها مراكز للاستنطاق والتعذيب، ساءت الأحوال، طاردوا الرفاق، وعليهم ضيقوا الخناق: حامد اعتقلوه، فاضل فقد عمله، حسين اختفى ولم يُعرف مصيره، محمود أطلق مجهول النار عليه وأرداه قتيلاً، ناصر هرب إلى الأهوار ليلتحق بالثوار.

كيف يسوق هذه الأخبار إلى زكي؟ عاريةً أم يبرقعها بأقنعةٍ قد لا تخفي شيئاً من حقيقتها. انتظره في بهو الفندق ولكنَّه لم يصل. فخرج سليم إلى باب النُّزل. ووقف على ناصية الشارع بعض الوقت. كان الشارع ممتلئاً بالناس الذين كانوا يعودون إلى منازلهم في نهاية أعمالهم. وشيئاً فشيئاً خفّت الحركة وتضاءل عدد المارة في الشارع. فعاد إلى بهو النُّزل، وجلس في قاعة الانتظار في الطابق الأوَّل.

ومن نافذة القاعة، ألقى نظرة على السماء وعلى الشارع. كان هنالك بضعة صبيان يلعبون بالكرة على قارعة الطريق، وفتاة تحمل سلتها وتتّجه إلى دكان البقال في زاوية الشارع، وحمامة تنقر على شباك في البناية المقابلة، ورجال يسرعون الخطى عائدين من أعمالهم إلى منازلهم حيث تنتظرهم زوجاتهم وأطفالهم، ورجل جالس على مسطبة يقرأ جريدته تحت تمثال الصَّبّاح الذي كان يمدُّ بصره نحو الشرق، وبائع فواكهٍ أمام بضاعته من البرتقال والتفاح والكرز وبنان الموز والأجاص والبرقوق، وأشعة الشمس الغاربة تتسرَّب بوهنٍ من بين الغمائم المتناثرة .

وفي تلك اللحظة أخذت غيومٌ سوداءُ قادمةٌ من الغرب، من جهة البحر، تتجمَّع في كبد السماء، وتتكاثف رويداً رويداً، ويسودُّ لونها ويزداد اسوداداً. وراحت الريح تهرول مسرعة في شوارع المدينة. فتقطف في طريقها أوراق الأشجار من أغصانها، وترمي بها إلى الأرض وتسوقها أمامها مثل عصافيرَ مذعورة. وفجأةً لاحت في أعالي السماء أنوار البرق متبوعة بدويِّ الرعد. وما لبث المطر

أن نزل أوّل الأمر قطرات متفرّقة التصقت على زجاج النوافذ، ثمّ همى غزيراً متواصلاً حتّى استحال الفضاء كلّه إلى ستارةٍ ضبابيةِ اللون، وتلاشى ضوء الفوانيس الخافت في الشارع. وما عاد يُرى سوى السيل منحدراً في الطرقات.

في تلك اللحظة، فكّرتُ في المطر. قطراته تبكي حياتي، وغيومه ترتوي من بحر كآبتي. وفكّرتُ في زكي. إنّه يخشى الأفاعي والرعد ووجه الموت. اعتراني شعورٌ شديدٌ بالوحدة والوحشة الباردة. كانت البرودة تقبض بيديها المتجمّدتَين على فؤادي. أحسستُ بحاجةٍ إلى دفءِ الحديث مع إنسانٍ قريبٍ لي. كان الرعد والمطر في طفولتي يبثان الخوف في نفسي، يرعباننني، فكنت أجري إلى أُمّي وأختبئ وجهي في صدرها. كانت تضمّني بحرارةٍ إليها وهي تناجيني وتمسح بأصابعها على رأسي وتقبّلني على جبيني ووجنتي، ثمّ تأخذني إلى الغرفةِ الكبيرة، وتجمع إخوتي الصغار، وتشعل النار في الموقد، فنتحلّق حولها انتظارا لعودة أبي من عمله. في الليالي الممطرة، لم يكُن أبي يخرج إلى المضيف بعد صلاة المغرب للقاء أهل القرية من إخوته وعشيرته. كان يبقى معنا بالقرب من الموقد، يحدّثنا ويسرد علينا ذكرياته التي كانت غالباً ما تدور حول ثورة العشرين. وهكذا أخذتُ أحبُّ المطر، لأنّه يمنحنا رفقةَ أبي وأحاديثه، وأخشاه في الوقت نفسه.

ولكنَّ هذا المطر في بيروت يخلع الطمأنينة من قلبي ويغمرني بالحزن والقلق. كان ينقصه موقد أمّي، وأحاديث أبي، وضحكات إخوتي الصغار. وأدرتُ وجهي صوب التلفاز الذي أخذ يبثُّ نشرة الأخبار. لا شيء جديداً في الأخبار. جميع الأخبار حزينة: حروبٌ أهليّة، كوارثُ طبيعيّة، لاجئون، مشرّدون. لكنَّ الذي لفت انتباهي في نشرة الأخبار هذه هو المذيعة. يبدو أنّها جديدة أو أنّني لم أرها على الشاشة من قبل. فقد كنتُ لا أشاهد التلفزيون إلا أثناء نشرة الأخبار الرئيسة التي كانت تذاع في الساعة الثامنة مساء،

حيث كنتُ أفضّل القراءة على برامج التلفزيون. فأنتَ عندما تقرأ تختار ما تريد قراءته وتختاره بنفسك. أمّا إذا استمعت إلى المذياع أو شاهدت التلفاز فإنّك تتلقى ما يختاره الآخرون لكَ.

25

كرعتُ كؤوس ذكراكِ، يا أثيرة، فما ارتويتُ، بل ازددتُ ظمأً لخمرة لقياك. أهرب منكِ إليك. وكيف الهروب منكِ وأنا متوحِّد فيك توحُّد الضياء بالشمس، والريح بالزهر، والنهر بمجراه، والبرق بالرعد، والنغم بالوتر؟ كيف الهروب منك؟

جئتِ كالحُلم وكالحُلم مضيتِ. حلمٌ لن يُنسى. وبقيتُ أنا أغوص في أعماق ذاتي، أغرز رايات انكساري، وأبحث عن كُنه الحبّ. آه لو أنّي أعرف سرَّ الحبّ، لأدركتُ سرَّ وجودي، وسرّ رحيلي، وأسرار العيون التي تحيّرني ألغازها. ولكن عقلي عاجزٌ عن إدراك أيّ شيء.

ستمضي حياتي موشومةً بثلاث نسوة: امرأة أرادتني وأردتها، ولكنِ القدر لم يردنا معاً؛ وامرأة أرادتني ولم أردها فكسرتُ قلبها، وظلّ ضميري مصلوباً على خيبة أملها؛ وامرأة أردتُها، ولكنّها لفظتني ولم أستطِع نسيانها. وأنت المرأة الأخيرة، يا أثيرة.

هل أستطيع أن أحتفظ بالماضي كما هو في ذاكرتي المزدحمة بالذكريات، دون أن أعيد تشكيل أحداثه في ضوء الحاضر؟

26

كان سليم وزكي يتحدّثان ويتحاوران في بعض ما قرآه في الصحف كلّ يوم أو في أي موضوع آخر من الأدب إلى السياسة والاقتصاد. وكانت قضية فلسطين محور أحاديثهما. كان زكي يعتقد أنّ الغرب اغتصب فلسطين لا من أجل اليهود، وإنّما

لتكون نقطة ارتكاز له في هجمته على الأمة العربيّة، وعرقلة وحدتها وتنميتها، فتظلّ سوقاً لمنتجاته المصنَّعة. وكان سليم يعتقد أنَّ الصهاينة عملوا بجدٍّ لتحقيق أهدافهم، ويميل إلى أنّ العرب أضاعوا فلسطين نتيجة ضعفهم وتشتتهم في مقابل وحدة الصهاينة، وقوّة تنظيمهم، وتعاظم قوّتهم الاقتصاديَّة التي أحسنوا استغلالها، ففرضوا إرادتهم على الدول الكبرى التي التقت مصالحها مع مصالحهم.

كان زكي يتكلّم بمرارة عن أوضاع الوطن فيقول، مثلاً، بانفعالٍ شديدٍ :

ـ كلّما وقع انقلاب في قطر من أقطارنا سمَّاه قادته ثورةً شعبيَّة، وأعلنوا أنَّهم ثاروا ليحرِّروا الناس من الظلم والطغيان والدكتاتوريَّة، وأنَّهم قاموا بحركتهم المباركة من أجل العدل والحرِّيَّة والمساواة والديمقراطيَّة. ثمَّ يطلقون بيانهم الأوَّل بتعطيل الدستور، وحظر التجول، وإغلاق الصحف، وإلغاء الأحزاب. أهذه هي الحرِّيَّة التي يقصدون؟ أهذه هي الديمقراطية؟

فكان سليم يهدئ من حدَّته قائلاً :

ـ الديمقراطيَّة تربيةٌ وثقافةٌ قبل أن تكون قوانين مسطرة. وإذا كانوا قد أساءوا فهم الديمقراطيَّة، فالذنب ذنبنا ـ نحن الذين نسمّي أنفسنا بالمثقَّفين ـ لأنَّنا لم نعلِّم الديمقراطيَّة في المدارس، ولم ننشر مفاهيمها القائمة على المساواة وحرِّيَّة التعبير وقبول الآخر والاحتفاء بالتعدُّد. فعندما يصبح الأب ديمقراطيًّا في بيته، والمعلِّم ديمقراطيًّا في فصله، والمدير ديمقراطيًّا في إدارته، تصبح الديمقراطية جزءً من منظومتنا القِيميَّة، وتكون الممارسة الديمقراطيّة في العمل السياسي تحصيل حاصل.

ـ دعنا، يا سليم، من الديمقراطيَّة. ألم يقولوا إنّهم جاءوا ليحرِّروا فلسطين، وكلُّ واحد يضع خطَّته العسكريَّة لاستعادة

الأرض السليبة. وماذا كانت النتيجة؟ إنَّهم أضاعوا ما تبقى من فلسطين حتّى القدس.

وكان زكي، مثل جميع العرب، مستعدًّا للتضحية بجميع حقوقه من أجل فلسطين، طبقاً لمقولة «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة».

ـ لا يمكن تحرير فلسطين، يا زكي، ونحن أضعف من عدونا في كلّ شيء، علمياً وتكنولوجيًّا واقتصاديًّا. علينا أوّلاً أن نبني ذاتنا ونطوّر بلادنا قبل أن نفكّر في منازلة العدو. إنَّ فلسطين لا تتحرَّر ما لم يتمتَّع كلّ عربي بحقوقه كاملةً وفي طليعتها حقّه في التعبير عن رأيه بصوتٍ عالٍ.

رفع زكي صوته، في غمرة حماسته، وقال :

ـ لا، يا سليم، أجزم أنَّ السبب هو عدم توفُّر الإخلاص. لقد كانت أوربا كلُّها متآزرة في الحروب الصليبيّة عندما احتلَّت فلسطين وأقامت مملكةً في القدس. ومع ذلك استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يحرِّر القدس. كان رجلاً مخلصاً حقًّا. صرخ في وجه المنجِّمين الذين أخبروه أنّه سيفتح القدس وتذهب عينه الواحدة قائلاً : رضيتُ أن أفتح القدس وأعمى.

قال سليم مبتسماً:

ـ لا ترفع صوتك، يا أخي زكي، فالصوت العالي لا يجعل من القول حقيقة. أنتَ تعرف أنَّ صلاح الدين لم يهاجم الصليبيّين حال تسلُّمه السلطة في مصر؛ بل سار وفق خطةٍ متكاملةٍ بدأها عماد الدين زنكي في الموصل، تهدف إلى توحيد البلاد، ونشر المدارس فيها، وتعميرها بالمصانع، وتنمية المزارع، وبناء الحصون والقلاع، قبل مهاجمة العدو. ولهذا فإنَّ صلاح الدين هادن الصليبيين سبعة عشر عاماً، استطاع خلالها أن يوحّد البلاد، الشام ومصر والحجاز واليمن وليبيا، ويعمّرها قبل أن يتمكّن من مهاجمتهم وفتح القدس. وهذا ما فعله قبله يوسف بن تاشفين في

المغرب، فهو لم يعبر البحر لنجدة المسلمين في الأندلس ويحارب الصليبيين هناك قبل أن يوحّد الربوع المغربيَّة، وينمّيها، ويعدّ العدة اللازمة للجهاد. لا بدَّ أن نتعلّم من دروس التاريخ وعِبره. بناء الإنسان أولاً، وتعمير البلاد ثانياً، ثمَّ مجابهة العدو.

ـ دعني أطرح عليك، يا سليم، سؤالاً محدداً: لو حدث انقلابٌ عسكريٌّ واحدٌ يتوافر في القائمين عليه الإخلاصُ والاستعداد للتضحية، هل تبقى فلسطين بيد الصهاينة؟.

ـ الجواب الجيد، يا زكي، يبدأ بسؤالٍ جيِّدٍ. وسؤالك مخيِّبٌ لتوقّعاتي، فأنا أشعر بخيبةٍ إذا كان مثقَّفٌ مثلك يتصوَّر أن حلّ مشاكلنا الوطنيّة والقوميَّة يتوقَّف على الانقلاب العسكريّ، بدلاً من أن يعلّق آماله على الديمقراطيّة والتعليم والتنمية. هل تعلم، يا زكي، أنَّ معظم الانقلابات العسكريَّة في البلدان النامية تتمُّ في إطار التنافس بين الدول الاستعماريَّة السابقة وبين دول الاستعمار الجديد على خيرات هذه البلدان وثرواتها، في ضوء نظريَّة ملء الفراغ التي كان يردّدها وزير خارجية أمريكا السابق جون فوستر دالس. كيف تعوّل على ضباط لم يتدرَّبوا إلا على حمل السلاح وتنفيذ الأوامر، أن ينشروا الديمقراطيَّة والتعليم ويخططوا للتنمية في بلادنا المتخلفة؟.

في تلك اللحظة، كان صوت المغنّية الجنوب أفريقيَّة، مريم ماكيبا، ينطلق من المذياع، يحلّق في الفضاء عالياً، يملأ الجو حزناً ورقَّةً، وهي تغنّي الحرِّيَّة لأجل شعبها الأسود الذي يئن تحت وطأة نظام التمييز العنصريِّ والقمع البوليسيِّ.

27

عندما أفكّر فيك أو أحلم بكِ أو أتخيلكِ، يا أثيرة، لا ألحظ وجوداً للزمن، فأنتِ في ذاكرتي نابضةٌ بالحياة، ساطعةٌ، متألّقةٌ، لم ينَل الزمن من توهّجك شيئاً، وأنتِ مستقرَّةٌ بعناد في أقصى

مكامن روحي، لم تغادريها لحظة، ولم تنفكّي عنها طرفةَ عين. لا شيءَ يحدث ولا حركة تدبُّ، فكيف إذن أدرك وجوداً فعلياً لامتداد الزمن، لأنّه لا يملك كياناً موضوعياً، ولا ذاتاً مشخَّصة، ولهذا لا يمكننا ملاحظته فيزيائيًّا ولا قياسه كمّيًّا، وما الزمن الذي نتعامل به إلا وهْمٌ من أوهامنا، أو تصوُّر من تصوُّراتنا، أو اختراع من اختراعات عقولنا.

عندما كنا معاً، كنتُ أقيس الزمن بك كما لو كنتِ الكوكب الوحيد في مدار حياتي. كنتُ أقيس الزمن بما كان يجري بيننا: هكذا فعلتِ أمس، وهكذا فعلتِ اليوم، وماذا ستفعلين غداً؛ أمّا في وضعي الراهن، فأنا لا أحسُّ بانسياب الزمن إلا من خلال الانهدام في داخلي والضعف الذي يسطو على جسدي ويهدُّه شيئا فشيئاً.

في عالمنا هذا، توجد الذوات والأشياء في أربعة أنحاء: في العقل والنفس، أو في الواقع والحسّ، أو في الألفاظ المنطوقة، أو في الكلمات المخطوطة. وندرك وجودها بإحدى وسائل الإدراك أو نحسُّه بإحدى الحواسّ. أمّا أنت، يا أثيرة، فموجودة في جميع الأنحاء والأماكن والاتجاهات: أتصوّر خيالك في عقلي وذهني ونفسي، وأراك أينما ذهبتُ وحيثما حللتُ، وأسمع اسمكِ في جميع الألفاظ المنطوقة، وأرى رسمكِ في جميع صفحات الكتاب الذي أقرأ. فكيف أهرب منكِ؟.

28

في تلك الليلة الممطرة في بيروت، تأخّر زكي عن العودة إلى النزل. جلس سليم أمام جهاز التلفزيون في صالة الاستقبال في النُّزل. انطلقت، قبل نشرة الأخبار، الإعلانات التجاريَّة ذات الصور الأخّاذة والموضوعات الجذّابة التي يمثّلها أشهر الفنّانين المحترفين. وأخذ سليم يفكّر في مقدار السحر الذي تمتلكه تلك الآلة حتّى تحوّلت الصورة إلى صنم معبودٍ تصدق عليها

المقولة الإنكليزية « **الصورة تفوق في قيمتها ألف كلمة** ». فالمشاهدون يجلسون أمام التلفزيون مكتفين بالتلقّي والاستهلاك، عاجزين عن التفكير والتمحيص؛ فيشكّل التلفزيون أفكارهم كما تتشكّل الصورة على شاشته.

بدأت نشرة الأخبار. وظهرت المذيعة الجديدة شديدة الشبه بوداد، إذ لها نفس العينَين الواسعتَين، والخدَّين الأسيلَين، والجبهة السمحاء، والشعر المضفور بجديلة وحيدة طويلة تستلقي على كتفها اليمنى. كانت وداد زميلة سليم عندما كان طالباً في الكلّيَّة في بغداد، وقد اعتادت أن تجلس إلى جانبه في الصفّ؛ يترقّب وصولها من منزلها كلّ صباح عند مدخل الكلّيَّة، فقد كان، وهو القادم من قريةٍ بعيدة، يسكن في القسم الداخليّ المجاور للكليّة، أمّا هي فكانت تعيش مع أهلها في بغداد، ويأتي بها السائق بسيّارة العائلة كلّ صباح إلى الكلّيَّة، ثمَّ يعود لاصطحابها إلى منزلها عصر كلّ يوم بعد انتهاء الدروس.

لم يكُن انتظاري لها صباح كلّ يوم عند مدخل الكلّيَّة نتيجةَ لهفتي لرؤيتها فحسب، وإنَّما كذلك منْ أجل رؤيتها وهي تخلع عباءتها بعد هبوطها من السيّارة لتصبح سافرة في حرم الكلّيّة مثل بقيَّة الطالبات، يُسفر وجهها المشرق مثل شمس شتاء تشرق من بين غيوم سوداء. كنتُ أجد طرافة في تحوُّلها السريع من امرأة محافظة ترتدي العباءة إلى فتاة عصريَّةٍ ترتدي قميصاً أبيضَ جميلاً وتنورةً داكنة مطرَّزة حاشيتها السفلى بزهور ملوَّنة. وأحياناً كانت ترتدي فستاناً طويلاً زاهي الألوان لا يكشف شيئاً من مفاتنها إلا عنقها العاجي الطويل.

أمّا فتيات الجيل الذي سبقها من الفتيات، فكنَّ يأتين إلى الكلّيَّة بالعباءة ويُبقين عليها حتّى داخل قاعات الدرس. وينتبذن ركناً خاصًّا بهنَّ في الصفّ ولا يختلطن مع الطلاب. أمّا الطالبات من جيل وداد فصرن يخلعن العباءة حال وصولهن الحرم الجامعيّ،

ولا يلتزمن بالجلوس في ركنٍ خاص بهنَّ في الصفّ، وإنّما يجلسن حيث وجدن مقعداً شاغراً، وأحيانًا تربط المودّة إحداهن بشاب معيّن من طلاب صفّها فتفضّل الجلوس إلى جانبه.

بدت مذيعة نشرة الأخبار جالسةً إلى منضدة نصف مستديرة وسط الأستوديو، وفي الطرف الأقصى منه جلس أحد المعلّقين السياسيّين الذين يعلّقون عادة على بعض أخبار ذلك اليوم. والتفتت المذيعة إلى المعلّق السياسيّ وحيّته بابتسامة وألقت عليه سؤالاً. وبعد أن أجاب، خاطبته المذيعة قائلة، سنعود إليك مرّةً ثانيةً بعد الانتهاء من نشرة الأخبار.

اعتادت وداد على الابتسام لي حالما تراني وهي ما زالت داخل السيارة. وبعد أن تهبط من السيّارة وينطلق السائق منصرفاً، تتّجه نحوي وتبادرني بالتحية وتردفها بسؤالها التقليديّ:

ـ هل مِن جديدٍ تحت الشمس؟

لا أدري من أين التقطت تلك العبارة ولماذا تعجبها. ولعلّها كانت تمزح أو تعدّني أكثر اطلاعاً منها على أخبار الكلّيّة، لأنّني كنتُ أسكن القسم الداخليّ القريب منها. لم أقدّم لها يوماً تقريراً مفصّلاً عن جميع ما حدث في كواكب المجموعة الشمسيّة وأقمارها، وإنّما كنت ابتسم وأسير مزهوا بجانبها في اتّجاه حديقة الكلّيّة حيث كنّا نجلس لدقائق قليلة قبل أن تبدأ الدروس. ومع ذلك فقد واظبت على إلقاء هذا السؤال الغريب عليّ صباح كل يوم:

ـ هل من جديد تحت الشمس؟

بدت المذيعة على شاشة التلفزيون سافرةً تماماً، وقد ارتدت فستاناً قصيراً صغيراً كشف عن عنقها ونحرها وساعدَيها وكثيراً من صدرها الناهد. ولا شكّ في أنّ الجوَّ داخل الأستوديو لا علاقة له بالجوّ الشتائيّ الممطر في بيروت تلك الليلة. وراح سليم يتخيّل أنّ المذيعة سترتدي العباءة السوداء ويتساءل عن الشكل

الذي ستؤول إليه لو ارتدتها.

أفكّر أحياناً في التغيُّر الذي كان يطرأ على وداد بعد أن تخلع العباءة عند مدخل الكلّية، إذ تستعيد عمرها الحقيقي: شابة ذات ثمانية عشر ربيعاً. أمّا العباءة فتجعلها تبدو أكبر من سنّها الحقيقيَّة بكثير، كما أنّها تخفي جميع مفاتنها ما عدا وجهها الحلو، وعينَيها الواسعتَين، وشفتَيها المكتنزتَين الحمراوين.

من المؤكّد أنَّ تحوُّلها من امرأة تقليديَّة محجَّبة إلى فتاة عصريَّة سافرة لم يكن يرافقه تحوُّل في القِيَم والمُثل التي تربَّت عليها في أسرتها المحافظة المتديّنة. أو كما كان يحلو لأستاذنا في علم الاجتماع أن يقول: يمكنك أن تنقل البدويّ من خيمته في الصحراء إلى شقّة في المدينة بأقلّ من ساعةٍ، ولكن لا تستطيع أن تغيّر عقليَّته حتّى خلال جيل كامل.

انثالت الأخبار على شاشة التلفزيون مصوَّرة، ومرَّت أمام عينَي سليم متلاحقة، فكان ينظر إليها ولا يراها حقيقة، ويسمع كلام المذيعة ولا يعيه تماماً، فقد احتلت وداد فكره في تلك الجلسة. ولا يدري لماذا في تلك اللحظة تمثّلتْ لفكره لقطةٌ حزينةٌ من شريط ذكرياته معها.

أصبحت وداد حزينة ذلك اليوم، وبدا لي الدمع يترقرق في عينَيها:

ـ لماذا تبكين ؟

ـ والدتي مريضة ؟

ـ شفاها الله. ولكن لا داعي للبكاء، فجميع الناس يمرضون ويمنّ الله عليهم بالشفاء.

ـ ولكنَّ الموت يناصبنا العداء، يا سليم.

ـ تتحدَّثين عن الموت كما لو كان كائناً حياً، لو كان كذلك أعني لو كان الموت رجلاً لقاتلته من أجلكِ. ولكنّه كائن بلا

وجه ولا عنوان، يسعى إلينا بلا رجلٍ، ويرانا ولا نراه، وهو عدو الناس الذي لا يُقهَر. بيدَ أنّنا نؤمنُ أنَّ لكل إنسان أجلاً.

ـ إنَّه يحلّ في أُسرتنا أكثر من أيِّ مكان آخر.

وفي ذلك الفصل من حديث الذكريات المستعاد، تناهى إليه صوت المذيعة وهي تقرأ خبراً استحوذ على فكره مفاده أنَّ رجلاً كان يسير في شارع الحمراء عصر ذلك اليوم، فتوقّفتْ بالقرب منه سيّارة تحمل لوحةً دبلوماسيَّةً لإحدى السفارات العربيَّة، وأطلق عليه أحد ركّابها النار من داخل السيارة التي لاذت بالفرار بعد ذلك ، أمَّا الرجل فقد توفّي في سيّارة الإسعاف وهي في طريقها إلى المستشفى.

من العجيب أن فكر سليم الذي لم يلتقط شيئاً من النشرة الإخباريَّة كلّها، كيف استطاع أن يسمع ذلك الخبر بأكمله. عجّب سليم من الكيفيّة التي يعمل فيها الفكر البشريّ. إنَّه مثل مبصار حاسوبٍ يبحث عن عبارةٍ معيَّنةٍ في نصٍّ طويلٍ، يفحص جميع عباراتِ النصِّ دون أن يحتفظ بها، وحينما يعثر على الجملة المطلوبة، يتوقّف عندها ويسجّلها. أو لعلّ الحاسوب يعمل مثل الفكر الإنسانيّ. هكذا حصل لذهنه. كان غارقاً في أحلام اليقظة، حينما وعى كلام المذيعة في آخر النشرة. فقد ذكرت أنَّ شخصاً يُعتقَد أنَّه غير لبناني كان يسير في شارع الحمراء في بيروت لقي حتفه.

تُرى هل ذلك الشخص هو زكي؟ وذلك ما يفسر تأخُّره عن موعد عودته إلى النُّزُل؟ أم أنَّه قلقي الذي يلقي بتلك الأفكار السوداء في روعي؟ لا بدّ أن الأمطار المتهاطلة والريح العاصفة هي التي أخّرت عودته. لا بدَّ أنَّه منزوٍ الآن في أحد مقاهي بيروت الساحليَّة، يحتسي قهوته، ويستمتع بمنظر تدفُّقات المطر وهي تعانق أمواج البحر الهائجة، ويتركني هنا تحت تدفُّقات الشكوك وبين أمواج المخاوف.

وخرج سليم إلى باب النُزل. وقف تحت ظلّته. كان بصره يمتدُّ بلهفة إلى آخر الشارع. وكلّما تراءى له رجلٌ من المنعطف، ظنّه زكي. وانتظر طويلاً حتّى أخذت الهواجس تقضّ وقفته. ثمَّ دخل إلى بهو الاستقبال في النُّزُل، ليسأل موظف الاستقبال عمّا إذا كان زكي قد اتّصل هاتفيًّا أو ترك رسالةً له. ثمَّ عاد إلى باب النُّزُل، والمطر ما زال يهطل بغزارة، والريح تواصل نحيبها.

ذكّرني المطر بيوم ممطرٍ آخر كان بداية النهاية لقصّة حبّي الأوّل، أنا ووداد. كنا جالسين في حديقة الكليّة ذلك اليوم، تحت أغصان شجرة صفصاف وارفة، حين أخذت الغيوم تتلبد في السماء منذرةً بالمطر. لاحت مني نظرةٌ إلى وجهها، بدا لي أنَّ اللون الورديَّ أخذ يغيض منه، وتطفو عليه صفرةٌ مقلقة، تماماً كما تذوي وردة عُبّاد شمس غابت عنها الشمس.

سارع يسألها:

ـ ما بكِ، يا وداد؟

ـ لاشيء، لا شيء. ماذا كنتَ تقول؟

ـ لا أخبريني، وداد، لا تخفي عني شيئاً.

ـ لاشيء، يا سليم... مجرّد وجع في أحشائي.

ثمَّ أضافت بضحكةٍ قصيرةٍ متشنّجة:

ـ لعلّني حامل.

ـ ستكونين ثاني عذراء في التاريخ تلد، بعد السيدة مريم.

ـ مجرَّد تعبير عن أماني القلب. قُل لي، سليم، كم طفلاً تريد مني بعد الزواج.

ـ دزينة كاملة، حتّى لا يبقى في المنزل موضع لكِ، وهكذا تأوين إلى قلبي.

ضحكا وضمّها إلى قلبه. ثمَّ التفت بسرعةٍ ليتأكّد من أنَّ

أحداً لم يشاهدهما متعانقَين. في تلك اللحظة انهمر المطر، فقاما يهرولان في اتّجاه بناية الكلّيّة ليحتميا داخلها.

وراح شريط الذكريات يمرّ أمام ناظريه، حتّى النهاية المؤلمة يوم توفيت وداد فغادر البلد للدراسة وحصل على الماجستير وعاد إلى جامعة بغداد ليكون مدرّساً في إحدى كلّيّاتها. وتذكّر كيف رفض العمل في كلّيّة التربية، في حين أصرّ رئيس الجامعة على تعيينه فيها.

29

« ولِمَ لا تريد العمل في كلية التربية؟ »

واستمرَّ في تفحص الملف المكتنز بالأوراق الموضوع أمامه على طاولة فخمة مصنوعة من خشب الأبنوس ومزخرفة بنقوش داكنة الألوان، وعليها ملفّاتٌ عديدةٌ متباينةُ الأحجام، حتّى لَم يبدُ من الرجل سوى صلعته الواسعة ونظّارتيه السميكتَين.

ـ « إنّني لا أفهم سرَّ رفضك التدريس في كلّيّة التربية، فلقد تعهدتك هذه الكلّيّة بالرعاية، وكنتَ فيها من المتفوّقين وهي اليوم ـ وبعد أن واصلتَ دراستكَ العالية- أحقُّ بخدماتك من غيرها من كلّيات الجامعة ».

ورفع الشاب الجالس على طرف الأريكة المريحة نظره من الأرض، وقال بلهجةٍ مؤدّبة يتردّد الخجل في نبراتها:

« إنّني أفضّل العمل في أيّ كلّيّة أُخرى، يا سيدي ».

« ولكن ما السبب؟ إنَّ قسم الكيمياء بكلّيّة التربية من أوسع الأقسام العلميّة وأغناها بمختبراته وبحوث أساتذته، وهو بحاجةٍ لأساتذةٍ مؤهَّلين من أمثالك ».

« أسبابي شخصيّة محضة. ولا اعتراض لي على القسم ».

وأطرق الرجل الكبير قليلاً كمن يفكر باتخاذ قرارٍ حاسم، ثمَّ

رفع رأسه، وثبّتَ نظراته على الشاب، وقال بشيء من الصرامة:

« إنّني لا أقبل أسبابك، يا أستاذ. فلا ذاتية في العلم، وكلّيّتك بحاجة إليك وقد أصدرنا أمرنا بتعيينك فيها ».

فقال الشاب وهو يتأهب للانصراف :

« سأحاول القيام بالمهمة... »

وحمل حقيبته، وسار بخطى وئيدة نحو الباب. وفجأةً توقّف ويده على المقبض، التفت صوب الرئيس كمن يريد أن يقول شيئاً، ولكنّه استدار ثانية وفتح الباب وغادر الغرفة.

ولماذا يبوح له بحقيقة أسبابه؟ فهل يفهم رئيس الجامعة ما يجيش بنفسه؟ أم ستراه يأبه لحكاية حبٍّ منسية؟ كلا، فهو لا يصدق ما سيقوله له عن أرقه وعما يعوده من أطياف وهواجس وذكريات بعد خمس سنوات. سيجيبه مرّةً أخرى: « لا ذاتية في العلم ». وقد يضيف في شيءٍ من التأنيب : « إنّ عهد العواطف قد انقضى وأصبحت أستاذاً ».

إذاً فليواجه الموقف بالصبر، يقولون إنّ الزمن خير بلسم لجراح الماضي، ولكنّ السنين الطوال مرّت دون أن تنال من طيفها شيئاً، بل زادته رونقاً وتألّقاً، ويُقال « سافر تجد عوضاً عمن تفارقه » ظنًّا منهم أنّ السفر والتجوال بمثابة الماء والتراب يُلقيان على نيران الذكرى فيخمدانها، ولكنّهما كانا بالنسبة إليه بمثابة الوقود والريح يغذّيان نيران ذكراها ويزيدانها تأجُّجاً واشتعالاً: درس في جامعة أخرى، وزامل العشرات من الطالبات والتقى بالمئات من الفتيات، غير أنّه كان يرى قسماتها في كل الوجوه، ويجد ابتسامتها منطبعة على كلّ الشفاه، ويسمع نبراتها في كلّ الأصوات، فلا يستطيع نسيانها، ولا يجد لأحزانه مؤاسياً غير الكتاب يُغرق وجهه فيه ويظلّ يدرس ويذاكر حتى إذا أعياه الدرس وأجهدته المذاكرة، نام نوماً مضطرباً تقطعه الرؤى وتنغّصه الكوابيس. ما أقرب ذكراها

وأبعد مثواها، كالشمس قريب ضوؤها بعيد جرمها. فكيف به اليوم إذا راح يمضي أوقاته في مكان شهد لقاءهما الأوّل، وتعهّدته حدائقه كأنّه بعض أزهارها، وحنت أشجاره على جسديهما تقيهما وهج الشمس ولفح السموم في أوقات الظهيرة وقد خلت الكليّة إلا منهما.

وما إن وقفت سيّارته خارج كلية التربية، حتّى هرول إليه ذلك الأبله المسكين وهو يصيح:

« أهلا، دكتور ».

ويمسح السيَّارة بكمِّ سترته. لقد كان هذا المسكين يدعوه دكتوراً حتى عندما كان طالباً وكان في ذلك ما يرضي غروره أمامها فيتصدّق عليه ببعض المال. وما إن سار بضع خطوات حتّى وقعت عيناه على الحديقة المحاذية لسكة القطار مقابل قسم علم الأحياء: هنا كانا يحملان الشباك ويطاردان الفراشات في فصل الربيع ويقتنصانها لأستاذ مادة الحشرات. كانت تنطلق أمامه بشعرها الكستنائي الطويل المنسدل الذي كانت خصلاته تتطاير في الهواء، وتطلق ضحكتها العذبة وتشيع في وجهها فرحةً طفوليةً كلما سبقته في اصطياد فراشة أو أفلتت منه فراشة.

وإلى يساره كانت تمتدّ سكّة الحديد التي تفصل بين الكلّية ونادي الطلبة. كم مرّة توقّفا عندها في انتظار مرور القطار. إنّه لن ينسى ذلك اليوم الذي سمع فيه خبر فتاة دهسها القطار بين الكلّيّة والنادي: قفز قلبه بين ضلوعه، وهربت الدماء من وجهه، وانطلقت ساقاه في ركضة مجنونة نحو سكّة الحديد ظنًّا منه أنّها هي. كان دائماً يخشى أن يفقدها يوماً، وكانت تطمئنه وهي تضغط بأناملها الرقيقة على راحة كفه:

« أنا لكَ يا سليم. لن أتركك أبداً، سأظلّ جنبكَ دائماً. أسمعت؟ »

« إنّني أخشى أن يفرّقنا الموت يا وداد ».

« أوه، لا تكن متشائماً، ولا تقطّب جبينك هكذا ».

وتطلق ضحكتها العذبة، فيبتسم لها وتطمئن نفسه.

واستدار نحو اليمين متّجها إلى مكتب عميد الكلية فوقعت عينه على قاعة الاجتماعات حيث تعقد الحفلات، وتساءل في ذات نفسه: أما زالت الحفلات تحتفظ بروعتها وجمالها؟ أم ما زالت الوصلات الغنائيّة تطرب الحاضرين وتعبث بنفوسهم كما عهدها يوم كانا يجلسان جنباً إلى جنب يستمعان إلى أغاني الحبّ وأناشيد الهوى، فتلتقي عيونهما ودًّا ويحمرّ وجهاهما خجلاً. في هذه القاعة تمَّ اختيارها صاحبة أجمل فستان، كانوا يقصدون طبعاً صاحبة أجمل وجه وأهيف قوام. ووقفت على المسرح وسط عاصفة من التصفيق ألهب فيه راحتيه فخراً واعتزازاً.

وخرج من غرفة العميد بعد مقابلة مقتضبة، واتّجه نحو قسم الكيمياء ماراً بحديقة الكلّيّة الرئيسة التي تسيّجها أشجار الصفصاف، وتحفّ بها شجيرات الأس. هناك على تلك المصطبة الخضراء تبادلا الكتب ذات مرَّة قبيل العطلة الصيفيَّة، حين كان يزمع السفر لقضائها مع أسرته في قريته. أعطته رواية «ردَّ قلبي» ليوسف السباعي، وأعطاها « رسالة من امرأة مجهولة » لستيفان زفايج، وهما قصّتا حبٍّ مغرقتان في الرومانسيّة، زاخرتان بالعواطف النقية والأحاسيس السامية. ولكن ما أقسى اختياره، لماذا يتوقّع منها تضحية كتلك التي تكبدتها امرأة زفايج المجهولة.

وهناك ذرفتْ دمعةً بصمت ذات أمسية خريفيَّة، وهي تودّعه وقد غطّت عينيها -لئلا يرى الدموع- على أرض الحديقة المغطّاة بأوراق الأشجار الذابلة.

وهنا تحت شجرة الزيتون أهدته خاتماً نقش عليه «ربِّ زدني علماً»، وأهداها خاتما يحتوي على الحرفين الأوّلين من اسميهما.

وهناك في نادي الكلّيّة، كانا يجلسان معاً ساعات طويلة منصتَين لأغنية حبٍّ حزينة.

وهناك أمام النادي في ملعب كرة الريشة، سقطت مرَّة عندما كانا يلعبان الكرة، فأسرع نحوها وقلبه يخفق بين جوانحه هلعاً وخشيةً، ورفعها بين ذراعيه برقّة وحنان حتّى استوت واقفة وقد تقارب وجهاهما وأحسَّ بأنفاسها تلامس وجهه، فيما كانت عيناها تشعَّان رضا وامتناناً، وازدادت ابتسامتها رونقاً وإشراقاً، فتملّكته رغبة عارمة لطبع قبلة حارّة طويلة على شفتَيها المكتنزتَين، لولا عيون الطلبة المنتشرين في الساحة.

وهنا أسرَّ بحبّه لزميله وصديقه مكّي، فقد كانت روحه تنوء بذلك الحبِّ العاتي وهو فتىً لمَّا يتعد عقده الثاني، فكان لا بدَّ من الإفضاء ولو بشيء من هواه لصديق يثق به، يبثه لواعجه ويشكو له معاناته، ثمّ إنَّه كان يجد لذةً بالغةً في التحدُّث عن وداد في غيابها، وودَّ لو أنَّه وقف أمام جميع الطلاب مباهيا بحبِّها مفتخرا باسمها. قاوم تلك الرغبة طويلاً، وكان يتساءل أليس خيانةً لهواه أن يفضي باسم محبوبته أو يتحدّث عما يجري بينهما؟ ولكن ألم يره الجميع معها في لقاءاتهما تحت شجرة الزيتون، وفي مختبر الكيمياء، وفي كلّ زاوية قصية من زوايا الكلّيّة؟ وما ضرَّ الورد إن تضوَّع عبيره وما ضرَّ الياسمين إن عبق شذاه؟ إذن فليخبر مَن يشاركه فرحه وهناه.

وهناك أنشد له صديقه مكّي أبياتاً، عندما تعثرت الكلمات على لسانه، واحتضرت الحروف على شفتَيه، واحمرَّت وجنتاه قبل أن يدلي له بأسراره. أعجبته الأبيات وحفظها :

لا تُخفِ ما صنعتْ بك الأشواقُ
واشرحْ هواكَ فكلُّنا عُشّاقُ
قد كاد يخفى الحبُّ لولا دمعُكَ الـ
ـجاري ولولا قلبُكَ الخفّاقُ
فعسى يُعينكَ مَن شكوتَ لهُ الهوى
في حملِه فالعاشقونَ رفاقُ

فتحدّث عنها إليه دون ملل.

كانت حماسته تتّقد عندما يتحدّث عنها، وعيناه تلمعان عندما يذكر اسمها. أتراها تبوح هي الأخرى بحبها؟ ولمن؟ سألها يوماً:

«هل تتحدَّثين عنا لأحد يا وداد؟»

« نعم ».

« لمن؟ »

« لأختي الصغيرة ».

« وكم عمرها؟ »

« عشر سنوات فقط ».

« وهل تفقه ما تقولين؟ وهل تدرك ما نعاني؟ ».

« لا أدري ولكنَّها تستزيدني حديثا، وتسألني عنك كثيراً، وتحتفظ ببعض صورنا في حقيبتها الصغيرة ».

وواصل سيره نحو قسم الكيمياء وهو يترخَّم على كلِّ بقعةٍ في كلِّيَّته. ألا فاسلمي يا حدائق كلية التربية. ألا فلتورق شجيراتك صيف شتاء. ألا فلتتفتح أزهارك صبح مساء. ألا فلتتبرعم أغصانك أبداً. ألا فلتغرد أطيارك دوماً باسمك.

وغاب منظر الحديقة عن عينيه فمنّى نفسه بهدوء قلبه، ولكنَّه سرعان ما وصل بناية قسم الكيمياء، وقبل أن يلج الباب، وقف أمامها بخشوع ورهبة وكأنه يركع في معبدٍ مقدَّس. وراح يحدّق في فراغ، ويتمتم بكلماتٍ هامسةٍ... هنا كانَ ينتظرها ذات صباح ربيعيّ، غير أنها لم تصل على غيرٍ عادتها. وظلَّ في انتظارها وما أصعب الانتظار وما أطول لحظاته، وكان يقول في نفسه إنّها ستصل فتزيل مرارة الانتظار بحلاوة كلماتها. غير أنّها لم تصل، وظلَّ هو يتململ في مكانه لا يبرحه حتّى لاح صديقه مكّي من بعيد. وعندما بلغه كان مطرقاً برأسه، يرتسم الحزن على وجهه:

«أسمعت بالنبأ يا سليم؟ »

« واي نبأ؟ »

وداد

وهل حصل لها مكروه؟

يقولون ...

وماذا يقولون. تكلّم ولا تعذبني

البقية.. في.. حياتك

ماذا تقول يا أحمق؟

« نعم فمنذ الليلة الماضية وهي ترقد في المستشفى تعاني من حروق بليغة أصابتها في حادث انفجار مخزن الوقود في حمّام البيت؛ هكذا سمعتهم يقولون ».

« لا... »

وأخذ يردد لا من غير وعي:

« لا... أتموت ولم يبق على تخرجنا سوى شهر أو بعض شهر؟»

« سليم. سيساهم زملاؤها الطلبة في تشييع جثمانها وعليك أن تذهب معي لنشارك فيه ».

وجاهدت كلمة محمومة لتخرج من فيه فظهرت جافة هامدة كمولود ميت: « لا ». وظلّ يتحدّث إلى نفسه: هكذا تغادرين، يا وداد، والفصل ربيع، والعشب ما زال أخضر، والليل في أوّله، والقمر شاباً في كبد السماء، ونحن في أحلى الكلام؟.

وذهب إلى غرفته بالقسم الداخليّ، وألقى بنفسه على فراشه، ودسَّ وجهه في وسادته، وراح في غيبوبةٍ مضطربةٍ. وعندما أفاق وجد كثيراً من الطعام وشيئاً من الدواء على المنضدة وصديقه مكي بجانبه، وفهم أنَّ مكي كان يجلب له وجباته من المطعم خلال اليومَين اللذين أمضاهما في الفراش.

وولج الأستاذ سليم بناية قسم الكيمياء وكلُّ بابٍ موصدٍ فيها، وكلُّ جدارٍ أصمَّ منها يهمس له بألف حديثٍ وحديثٍ... واتّجه إلى غرفة الأساتذة، وألقى بنفسه على كرسيٍّ هناك، كان عليه أن يلقي محاضرة في الكيمياء الحيويَّة بعد دقائق، فراجع ملاحظاته، ورتَّب مصادره في حقيبته، وسوَّى من هيئته، ثمَّ سار برزانة الأستاذ إلى قاعة الدرس. وأخذ يلقي محاضرته دون أن يتطلّع إلى وجوه طلبته لئلا يثير مرآهم ذكريات دراسته في تلك القاعة بالذات، حين كان ووداد يجلسان متجاورَين دائماً في الصفّ الأمامي.

وانتهى من الموضوع قبيل نهاية الحصَّة، كي يتيح للطلاب طرح أسئلتهم. ورفعت إحدى الطالبات من الصف الأمامي يدها طالبةً الكلام، فالتفت إليها الأستاذ سليم قائلاً: تفضلي. وما إن وقعت عيناه عليها حتّى تسمَّرت نظراته، وتصلّبت قامته، وبهتت ملامح وجهه، إنّها هي، إنها وداد تجلس في مكانها المعتاد لم تبدّله، وشعرها مازال كستنائياً، وما زالت طريقة تصفيفه ذاتها، وعيناها لم تفقدا بريقهما واتساعهما، وحتّى الشفتان حافظتا على نضارتهما، والابتسامة على جاذبيتها، لم تعبث بها يد الموت، ولم تغيّرها معاول الزمن... يا إلهي، هل ألمت به الأحلام نهاراً، أم تكالبت عليه الأوهام فخيِّل إليه خطأً أنّه رآها؟ وكيف يخطئ سحر الغمَّازتين في الخدّين عندما تتكلم بابتسامة؟ والجِيد ذاته، وحتّى القرطان المتدلّيان، ولون الفستان، والسوار الذهبيّ... كلُّ شيء فيها هو: ملامحها، ملابسها، طريقة حديثها، نبرات صوتها، قوامها الأهيف، وكفّاها الصغيرتان...

وانتهت الفتاة الصغيرة من توجيه سؤالها وهو ما زال محدِّقا فيها بعينَين ضائعتَين... وكان الجميع في انتظار جواب الأستاذ إلا الأستاذ فإنه لم يعِ من السؤال شيئاً: نقلته تلك الطالبة إلى عالم الماضي، عالم طالما عاش معه حاضره... وأيقن الأستاذ سليم أنَّه لن يستطيع الإجابة ولن يقدر على النقاش. وأحسَّ بوجوه الطلبة

تتطلّع إليه حائرةً في تفسير النظرات البلهاء في عينَيه والصمت المشدوه على شفتيه. فجمع كلّ ما تبقّى له من قواه وقال :

« انتهى الدرس. انصرفوا من فضلكم ».

وظلّ الأستاذ مسمَّراً في مكانه بينما غادر التلاميذ قاعة الدرس ما عدا الطالبة الصغيرة التي تقدَّمت إلى الأستاذ سليم برفق، كأمٍّ رؤوم تروم إيقاظ وليدها الرضيع، وقالت له بصوتٍ رقيق:

« متأسِّفة يا أستاذ. أنا أُختها الصغرى ».

فتقلَّصت حدقتا عينيه، وأشاح بوجهه عنها لئلاّ ترى الدموع التي ترقرقت في مآقيه.

30

في تلك الليلة الممطرة في بيروت، بقي سليم يدخل ويخرج مترددّاً بين مكتب الاستقبالات وباب النُّزُل. وكلّما مرَّ الوقت، تلبَّدت نفسه بالشكوك والهواجس والانفعالات والرؤى. أين يذهب للسؤال عن زكي ليتأكّد أنّه ليس هو المغدور، وأنّه مازال حيًّا؟ أين يذهب في هذه المدينة المكتظّة بالعمارات؟ هل يتوجّه إلى أقرب مركزٍ للشرطة ويسأل عنه؟ إنّهم سيسجّلون أقواله في محضرٍ من محاضرهم ويعود إلى النُّزُل خالي الوفاض؟.

ولكن لماذا هذه الشكوك والمخاوف؟ لا سبب هناك ليقتلوه. لم يفعل شيئاً يستحقّ عليه القتل. لم يقترف جرماً يستوجب العقاب. صحيح أنّه كان يعبِّر عن آرائه في مقالات ينشرها بين آونة وأخرى في الصحيفة التي كان يعمل فيها في بغداد، والآن في بعض الصحف الصادرة في بيروت، ولكنّها مجرَّد كلمات، لا أكثر ولا أقلّ، كلمات لا تُخبِّئ عباراتها خنجراً، ولا تطلق أصواتها رصاصةً، ولا تصيب حروفها أحداً. كلمات لا تبلغ ألفاتها طول الحبال أو صنابير المياه التي يستخدمونها في تعذيب المُعتقَلين

السياسيّين، ولا تضارع عيناتها الكلّابات الحديديّة التي يعلّقون بها ضحاياهم في سراديب التعذيب في السجون والمعتقلات. كلمات، مجرَّد كلمات.

في تلك الليلة، كان حزني يسدل على جدران غرفتي الصغيرة لوناً أسودَ فاحماً، فتظلمّ الدنيا في عينيّ، وأتخيَّل غرفتي تضيق عليّ وتتقارب حيطانها حتّى تكاد تطبق على رأسي، فتضيق أنفاسي وأشعر بالاختناق، تماماً كما شعر كلكامش عند موت صديقه أنكيدو :

...

ولكن أنكيدو لم يرفع عينيه

فجسّ كلكامش قلبه فلم ينبض.

وعند ذاك برقعه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

وكاللبوءة التي اختُطف منها أشبالها

31

الحسين بن منصور الحلاج يقول كلاماً يستحليه الجياع، يلتفّ حوله الرعاع. والخليفة المقتدر في بغداد مرتعب في قصره، تنقصه القدرة والمقدرة. يأمر بسجن الحلاج، يُحاكِم الحلاج، يُضرَب ألف سوط، يردِّد «أحد أحد». تُقطَع يداه، تُقطَع رجلاه، يردِّد «أحد، أحد ». يُصلَب ، يُحزّ رأسه، ، يُنصَب رأسه يومَين على الجسر في بغداد. تُحرَق جثته، تصير رماداً يُذرُّ في النهر. ظلّ ينشد حين قُطعت رجلاه:

اقتلوني يا ثقــاتي إنّ في قتلي حيــاتي

ومماتي في حياتي وحيــاتي في ممــاتـــي

32

أمضيتُ الليل كلَّه في البحث عن صديقي زكي أو بالأحرى عن جثمانه. زكي الذي كان شعلة متوهِّجة من حياةٍ وفكرٍ ونشاط، يضيء لقاءاتنا بابتساماته ونظراته التي يشع منها الذكاء، ويملأ وحدتي نقاشاً وصخباً. يختفي من الوجود كلّه خلال لحظاتٍ قصار: تتوقّف سيّارة تحمل لوحةً دبلوماسيَّةً بمحاذاته، وهو يسير على رصيف شارع الحمراء المزدحم بالمارّة في وسط بيروت، ويطلق أحد ركّاب السيّارة النار عليه، فيرديه قتيلاً مضرَّجاً بدمائه على الأرض. هكذا بسرعةٍ، وببساطةٍ متناهيةٍ.

أمضيتُ الليل كلَّه أجوب شوارع المدينة الممطرة، أتنقّل من مركزِ شرطةٍ إلى آخر، ومن مستشفىً إلى آخر. وكلُّ مسئول أوجّه إليه السؤال عن صديقي، أو مَن كان صديقي، يحيلني إلى موظف غيره أو إلى مركزِ شرطةٍ آخر، مستشفى آخر، دائرة أخرى، وكأنّهم يريدون أن يقولوا: المسئول عن الجريمة، اقترافها أو ذيولها، هو الآخر ولستُ أنا. ولكنّنا جميعاً شركاء في الجريمة.

في الفجر، قبيل بزوغ أوّلِ خيط من أشعة الشمس، عاد سليم إلى النُّزُل منهكاً يائساً بائساً. أوى إلى غرفته. عيناه محمرتان من الإعياء، لا البكاء. يشعر بصداعٍ شديدٍ يجتاح رأسه من الصدغ إلى القذال، ويتركّز في جبهته. تناول حبّةً من الأسبرين، وثانية، وثالثة، فما ازداد الصداع إلا شدَّة وضراوةً.

في تلك اللحظة بالذات، تذكّرتُ شال أُمّي الأسود الذي حملته معي قبيل أن أغادر دارنا، دون إذنٍ منها ودون أن أخبرها. تذكَّرتُ ذلك الشال الذي كانت أمّي تشدّ رأسي به عندما تصيبني الحمّى، فأشعر بالتحسُّن. نهضتُ من مقعدي، فتحتُ حقيبتي، وأخرجتُ الشال الأسود. جلستُ على الكرسي الوحيد في الغرفة. لمستُ الشال بأصابعي، كوّرته بين كفّيّ، قرّبته من صدري، وضعته على

موضع الفؤاد منه، وبقيتُ ساكناً لحظات. شعرتُ بوجيب القلب وهو يتصاعد، ودقّاته وهي تتسارع.

رفعتُ الشال إلى شفتَيّ. وضعته عليهما هنيهة، ولثمتُه بصمتٍ وخشوعٍ، ثمَّ أطبقتُ شفتَيّ على طرفٍ منه كأنّي أهمُّ بالتهامه جوعاً وحنيناً. تصاعدت منه رائحةٌ، مثل مزيجٍ سحريّ من الحناء والمسك، رائحة أمّي. نفذت تلك الرائحة إلى منخارَي أنفي، وتسرَّبت منهما إلى رئتَيّ. ارتشفتُ تلك الرائحة، غرقتُ فيها، تشرّبتْ بها جميع حواسي حتى أصبحتُ أنا والشال شيئاً واحداً. في تلك اللحظة بالذات، أحسستُ كما لو أنّني عدتُ طفلاً عندما تصيبني الحمى، وأمّي تحنو عليّ، ترفعني بيديها، تضمّني إلى صدرها، فيقترب أنفي من شالها الذي يعبق برائحة الحنّاء والمسك، وتتسرّب كلماتها العذاب إلى مسمعيّ وهي تقول :

« ليتني متُّ قبل أن أراك تتوجَّع، يا حبيبي ». فأشعر بشيء من الأمان والاطمئنان.

في هذه اللحظة الشاردة من عمر الزمن، الغائصة في الذكرى، المضمَّخة باللهفة والشوق والحنين والعذاب، نظرتُ، بجفونٍ كسلى أجهدها البحث وأذبلها الأسى، إلى أطراف الشال المتدلّية من بين يدَي والمتجمعة في حضني، فبدا لي أنَّ لون الشال الأسود، أخذ يبهتُ شيئاً فشيئاً، يحولُ، يشحبُ، كما لو كان بالياً فيتبدّى لعينيَّ أخضرَ داكناً كلونِ البحر الهائج الذي هجرته الشمسُ في يوم غائم، ثمَّ يتحوَّل لونه رويدا رويداً إلى صفرة فاقعة، تتشظى منها أطراف كألسنة اللهب، كأشعة الشمس المحتضرة في الأفق البعيد في البحر محاصرةً بالغيوم الداكنة السوداء، فتنفذ تلك الأشعة بخيوط قانية حمراء. ومن خلال الدموع المتجمِّعة في مآقي عينيّ وبغير إرادة مني، رأيتُ ما اقشعرّ منه بدني وارتعدت له فرائصي. رأيتُ بوضوحٍ تام منزلنا في الدرب القديم، والحقول تمتدُّ أمامه حتّى النهر، وكلبُ الحراسة يقعي في الباب ويهز ذيله وقد رآني. وإذا

بباب الدار ينفتح في وجهي، فأرى كلّ مكوناته: جدرانه وأبوابه، وزجاج شبابيكه، ثمّ رأيتُ أمّي جالسة هناك في فناء الدار تحتَ ظلّ النخلة، وبجانبها أبي، وحولهما إخوتي الصغار، مجتمعين على سُفرة الفطور. رأيتهم واحداً واحداً عن قرب: نعيمة، حسن، فهيمة، يوسف، سليمة، فاضل،... أيديهم تمتدُّ بحركة بطيئة في اتّجاه الزاد، وكأنّها لا تريد أن تنال منه، وشفاههم تتحرّك بتؤدة دون أن يصدر منها صوتٌ، كما لو كان الأسى يخنق الكلمات. أرهفتُ السمع. أصغيتُ بكلّ جوارحي، وعندها أخذت الأصوات تصل إليّ باهتةً في البداية، ثمّ تتّضح شيئاً فشيئاً. كنتُ في أوّل الأمر أسمع عباراتهم دون أن أعي دلالاتها، ثمّ أخذتِ المعاني تتهادى إلى خلدي رويداً رويداً. كان اسمي يتردد في كلّ عبارةٍ ينطقها أبي أو أمّي، في حين كان إخوتي يصغون بنوع من الوجوم.

يا للهول. ها إنّي أتوهّم أشياءَ لا تقع، وأسمع أصواتاً لا تُنطق، وأرى مشاهدَ يستحيل رؤيتها بالعين الباصرة. بيد أنّي أراها بوضوح عجيب، كأنّها على مقربةٍ مني. أتراني أراها ببصيرتي أم أنّ هذا بداية الجنون، يا إلهي؟.

إنّه الشال، شال أمّي. إنّه شالٌ مسحور مثل مصباح سحري ما إن يلامس عينيَّ حتّى يهبهما قوة إبصار خارقة، تخترق الحجب وتطوي المسافات لأرى ما لا يمكن أن يُرى بالعين المجرّدة. أبعدتُ الشال عن وجهي. نهضتُ مسرعاً، أعدته إلى حقيبتي وأغلقتها بإحكام، فاختفت الصورة التي أخذت عقلي، ثمّ ألقيتُ بنفسي على السرير، وأغمضتُ عيني في محاولة لتصيُّد النوم.

كان نومي قلقاً تغتاله الكوابيس المتلاحقة. كوابيس أرعبتني، خلتها واقعة حقاً. حتّى استحال عليّ أن أفرّق بين الحقيقة والحلم. وكنتُ أحمد الله في كلّ مرّة أستيقظ فيها، لأتبيّن أن المأزق الذي كنتُ فيه كان مجرّد حلم وليس واقعاً. رأيتُ نفسي في أحد هذه الكوابيس، وقد أحاط بيَ عدد من الجلادين العتاة البغاة

القساة الغلاظ. وقد حشروني في زاويةٍ ضيقة من زنزانة مظلمة، وكتموا أنفاسي بوضع أكفّهم الشديدة على أنفي، ثمَّ قام بعضهم بفتح فمي عنوةً، ومدَّ أحدهم أصابع متصلّبة كمخالب النسر في فمي حتّى اللهاة، وأخرج لساني، واستلَّ آخر سكيناً نصلها يلمع في الظلام وبترِ لساني، ثمَّ أشهرَ الآخرون سيوفاً وراحوا يقطّعون أوصالي إرباً إرباً. ولم أستطع الاستغاثة فقد كتموا أنفاسي وبتروا لساني...

33

عندما التقيتُ بكِ، يا أثيرة، كان الموتُ يتربّص بي عند كلِّ منعطف، يختبئ لي خلف الأشجار ووراء الآكام، ويطلّ بوجهه البشع من بين الأزهار الذابلة، والأغصان المتحرّكة، وأعمدة النور المعتمة، والرسائل اليتيمة التي تأتي ولا تأتي. عندما التقيتُ بكِ كان الخوف قد طلا وجهي بالشحوب، وأصاب جسمي بالنحول، ورسم التجاعيد على قسماتي. لم يكُن بوسعي أن انتزعك من ميِّتٍ تشنَّجت أصابعه متشبثة بلحمك وسُمْرتك. كنتُ أنافسه في رهانٍ غير متكافئ خاسر، فقد احتفظ الموت له بشبابه وابتسامه وأحلَى ذكرياته، أمّا أنا فقد عمّدني الزمن الرديء بماء العبوس. لقد استهنت بقوة ذلك الميت، ولم أعلم آنذاك أن الموتى يقفون وراء تصرفات الأحياء، ووراء جميع الطقوس السحريَّة وكثير من الشعائر الدينية، لأنّ الموت هو القضية الجوهريَّة في الحياة.

لماذا لجأتُ إلى المغرب؟ وكيف التقيتُ بكِ؟ كيف لم أُحكِم إغلاق عينَيَّ وفكري وقلبي قبل أن التقي بك؟ كيف أغفلتُ حصوني مشرعة، وأقداحي مترعة، وتركتُ الحبل على الغارب؟ كنتُ كالشاة تبحث عن سكّين جزار. ولكن هل كنتُ أملك غير ذلك؟ وهل يستطيع إنسانٌ أن يغيّر القدر حتّى لو كان له كنز من الحذر؟ إنّنا نجد طريقا أمامنا فنسلكه. لا نقدر أن نغير اتّجاهه، وليس بوسعنا شقُّ طريق غيره. فنحن رهائن القدر نسير بعيونٍ معصوبةٍ

إلى مصائرنا، يقودنا ذلك العجوز اللامرئي ويسخر منّا. أحسستُ يوم التقيتكِ أنّني مجرَّد قطرةٍ في محيطٍ متضارب من أمواجَ هوجٍ تندفع عمياء نحو الشاطئ، وتتكسَّر على صخوره، فتتحوَّل إلى فقاعة تتلاشى في هباء الأثير؛ مجرَّد ذرّة متناهيةِ الصغر في هذا الكون الزاخر بالأفلاك، والمجرات، والكواكب، والنجوم ذات الجاذبيّة العظيمة، وليس بوسعي أن أتوقّف عن الانجذاب إليكِ، ولا باستطاعتي أن لا أدور في فلكك، ولا بمقدوري أن أجري في أي اتّجاه عداك.

34

بعد مدة، وصلت رسالةٌ بالبريد من حميدة، خطيبة زكي، إلى سليم تقول فيها:

« عزيزي سليم

منذ فترةٍ طويلة لم تصلني أيّة رسالة من زكي. لا أعرف السبب. كتبتُ إليه عدّة مرات دون أن أتلقّى جواباً منه. فكّرت طويلاً في الأمر، وانتهيتُ إلى أحد احتمالَيْن: إمّا أنّه وقع في غرام فتاةٍ أخرى فانقطع إليها، وإمّا أنّ مكروهاً حصل له.

وفي كلتا الحالتَين، أجدني في وضعٍ أصعبَ مما كنتُ فيه. كنتُ أعيش على الأمل وأحلم بعودته ذاتَ يوم. أمّا الآن فأخشى أنّني قد فقدته، وبذلك ضاع مني الحبّ والأمل.

لا تعرف، يا سليم، كم عانيتُ في علاقتي معه. قصّتي طويلة تبدأ منذ أن رأيتُ النور في هذا العالم المضطرب. ولكنّي ألخّصها لك في سطور:

ولدتُ في نفس اليوم الذي ولد فيه ابن عمٍّ لي في دارٍ واحدة هي دار جدنا التي كان يعيش فيها أبي وعمّي معا. فسمّوه حميد وسموني حميدة. وقالت أمّه ضاحكةً لأمّي: إنّني أطلب يد ابنتكِ لابني. فوافقتها أمّي. وعشتُ طفولتي وصباي تحت هذا

الوعد. وشغف حميد برفقتي واللعب معي. وبمرور الأيام تحوَّل شغفه حبًّا جارفاً. ولكنّني لم أشعر نحوه إلا بحبٍّ أخويٍّ. وعندما افترقت بنا طريق الدراسة، والتحقتُ بجامعة بغداد، والتقيتُ بزكي الذي كان زميلي في القسم، بدأ صراع في نفسي، مزَّقني وسهّرني ليالي طويلة، بل أصابني بالنحول والهزال. وجدتني مقيَّدةً بالتزام سابق لرجل يحبّني بإخلاص، وفي الوقت ذاته منجذبة لرجل آخر يحبُّني كذلك. وقلتُ في نفسي ليكن خيارك خيار القلب. استمعي لنبض القلب.

وعندما تقدَّم زكي لخطبتي، عارضتِ الأسرةُ كلُّها ذلك، بل تقدَّم والد حميد هو الآخر إلى والدي يخطبني رسميًّا لابنه. فكنتُ بين نارين. فقبولي بزكي يعني تحطيم أواصر الأسرة على يدي ونقض عهود سابقة. وبقيتُ في حيرةٍ من أمري. كان الجميع ضدّي حتّى والدتي. الوحيدة التي تعاطفت معي هي جدتي التي كانت تحنو علي منذ أن كنتُ طفلة. قالت لي: لا تستمعي إلى ما يقولون، إنّها حياتك أنت، استمعي إلى نبضات قلبكِ. اتبعي قلبكِ. وما إن أفصحتُ عن رغبتي وميلي إلى زكي، حتّى فررتما إلى لبنان، فتعرَّضتُ لشماتة أهلي كلِّهم وبقيت مثل عنزة جرباءَ معزولةٍ عن القطيع.

بالله عليك اجبني ولا تخفي عنّي شيئاً.

المعذّبة : حميدة »

35

وصل أبو سليم إلى بيروت بعد أن بلغه نبأ اغتيال زكي. تحدّث مع ولده سليم في الموضوع فقال له :

ـ لقد ناقشتُ الأمر مع أعمامك وإخوتك، وجميعنا نرى أنَّ من الخير لكَ أنْ تسافر.. تسافر بعيداً عن المنطقة كلِّها، لمواصلة دراستك العالية. ولعلّ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة أفضل مكان لهذا الغرض.

ثمَّ نظر إليه فوجده مطرقاً برأسه، فاستأنف كلامه قائلاً:

ـ ستسافر لسنتَين أو ثلاث ريثما تتغيّر الأمور، وتذكّر:

ما بينَ طرفةِ عَينٍ وانتباهتها يغيّرُ اللهُ من حـالٍ إلى حـالِ

ثمَّ تعود لخدمة وطنك. أمّا في الوقت الحاضر وفي الظروف الراهنة، فإنّك لا تستطيع أن تقدِّم الخدمة المرجوّة لبلادك، بل قد يصيبك مكروه، لا سمح الله.

وفكرتُ في نفسي وأنا مطرق برأسي:

لك الله، يا أبتي. لا شكَّ في أنَّكَ في حيرةٍ ومحنةٍ بسبب ولدكِ ومواقف ولدكِ. فهو يناضل من أجل قضيةٍ ليستْ واضحة ولا مفهومة لكَ تماماً. فقد كافحتَ أنت وأبوك من أجل قضية واضحة وضوح الشمس في كبد السماء عند الضحى، كما تقول دائماً. فقد حملتم السلاح في ثورة العشرين لإرغام البريطانيّين المحتلّين على مغادرة العراق واستقلال البلاد، بعد أن نكث قائدهم الجنرال مود بوعده حينما قال بعد دخوله بغداد أثناء الحرب العالمية الأولى: « جئنا محرِّرين لا فاتحين ». وبقيتَ طوال حياتك تحدِّثنا عن تلك الثورة وتضحيات الثوار فداءً للأرض والعرض، وتخبرنا عن تفاصيل المعارك معركةً معركةً، في الرميثة، والشعيبة، والرارنجية، والسماوة، والكوفة، والفلّوجة، وتلعفر، وغيرها. وتذكر أسماء الذين استشهدوا والذين جرحوا من أبناء عشيرتكَ، وتمجِّد بطولاتهم، وتنوِّه بسيرتهم الناصعة في حياتهم، وحميَّتهم، واعتزازهم بكرامتهم، وحبّهم لأرضهم. وكنتَ بذلك تزقّنا ـ أنا وأخوتي ـ بالوطنية مثلما تزقّ الحمامة صغارها. ولم تتحدّث عن نفسك يوماً.

ولكنَّني سمعتهم يتحدَّثون عنك في المَضيف في غيبتك. وصف بعضُ مَن رافقوك كيف اصطحبت معك إخوتكَ وأبناء عمومتك وهاجمتَ، قبيل الفجر في ليلة غاب عنها القمر، سفينة (ماي فيري) البريطانية التي كانت جاثمة في وسط نهر الفرات

قرب الكوفة وهي محملة بالجنود البريطانيين النيام. باغتم حرّاس السفينة أوّلاً بالسلاح الأبيض ثمَّ أغرقتم بقية الجنود النائمين بالرصاص، وأحرزتَ نصراً أحمرَ احمرارَ الدم، وعُدتم قبيل انبلاج الصبح إلى مضارب العشيرة وأنتم تحملون ثلاثة من جرحاكم، ليستقبلكم جديّ بالتهليل والترحاب، فقد سطوتم على الفجر وأسرتم الشفق. وفي تلك اللحظة التي كانوا يتحدَّثون فيها عن تلك الواقعة، دخلتَ أنتَ المضيف، فَصَمَتَ المتحدِّثون، لأنّهم يعرفون رفضك المديح والثناء. ونظرتُ إلى وجهك ساعتئذ، وقد سمعتَ طرفا من حديثهم وعرفتَ موضوعه، فرأيتُ وجهكَ مشرقاً، وعليه خيالٌ من كبرياء، وفي أنفك الأقنى شمم.

ذكَّرتني طلعتُكَ تلك بوجهكَ يوم اصطحبتني معك لمقابلة الفريق الركن عمر علي، قائد الفرقة العسكريّة الأولى، بعد عودة الجيش العراقي من فلسطين إثر إعلان الهدنة مع الصهاينة. وكنتُ يومذاك صبياً في المدرسة الأولية. سرنا نشقُّ طريقنا في ساحات الفرقة الأولى في مدينة الديوانية في ممرٍّ محاطٍ بأشجار النخيل والصفصاف. ومن خلال الأشجار كنتُ أرى مجموعاتٍ كثيرةً من الجنود في حركة دائبة في ساحات المعسكر: مجموعةٌ منها تتدرَّب على السير بطريقةٍ عسكريّة، ومجموعةٌ أخرى تتعلّم كيفيّة تحويل البندقيّة من كتفٍ إلى أخرى، ومجموعةٍ ثالثة تتعلّم الرماية، وآخرون يلعبون كرة القدم، وبعضهم كان يقفز واحداً واحداً من خلال قوس مشتعل بالنار. ووسط تلك الحركة ظهرتَ لي يا أبي مثل صخرة صلدة تتحرّك بثبات نحو مقرّ قيادة الفرقة، وتحمل قلباً مكبّلا بين الضلوع لئلا ينتفض مثل نسر جريح... وعندما اقتربنا من البناية العالية، اصطحبنا أحدُ الحراس حتّى مكتب القائد الذي كان يقف على بابه المغلق جنديّان مسلّحان. وعندما رأياك فسحا لنا الطريق، وفُتِح باب المكتب ودخلنا. وهبّ القائد المَهيب من كرسيّه مرحِّباً بكَ ثمَّ لاطفني وسألني عن اسمي ومدرستي. وقال لي : « ستكون إن شاء الله بطلاً مثل أخيكَ الكبير ».

ثمَّ التفتَ إليك وقال :

ـ حرصتُ على استقبالك بنفسي وإخبارك بالنبأ الحزين، وأن لا يقوم بذلك ضابط العلاقات العامّة. وأنا أعزيك وأعزي نفسي، فعزاؤنا واحد. كان أحمد أثيراً عندي مثل ولدي، وكان ضابط ركني ويدي اليمنى. وقام بدور بطولي في معركة جنين. ويعود الفضل في انتصارنا في تلك المعركة الحاسمة إلى بطولته واستبسال رفاقه. وإذا كان قد استشهد فإنَّ دمه لم يذهب هدراً، إذ بقيت جنين حرّة في حمايتنا ولم يستول عليها الأعداء. وروحه في جنات النعيم مع الشهداء والصديقين. ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾.

وبعد حديث دار بينكما، أخرج القائد مظروفاً كبيراً من درج مكتبه وقال :

ـ « هذا ما خُصِّص لعائلة كلِّ شهيد، وهي فدية رمزية ».

ورأيت الدماء تصعد حارَّة إلى وجهك، فعرفتُ أن حميَّتك قد جُرحت، ونهضتَ واقفاً تهمّ بالانصراف معرضاً عمَّا عرض عليك. كانت لكَ قامةٌ تكسر السيف. وقلتَ بنخوة عربيّة :

ـ « لم يستشهد ولدي من أجل المال. استشهد لتبقى فلسطين كلّها حرَّة عربيّة. عودوا إلى فلسطين، وسأبعث معكم بأولادي التسعة الباقين. عودوا إلى فلسطين وقاتلوا كالرجال ».

عند ذاك، وقف قائد الفرقة وجمع قدميه معاً بشدّة وأدّى لكَ تحيَّة عسكريَّة لم أرَ مثلها من قبل، فامتلأت نفسي بك فخراً، يا أبي. وفي تلك الليلة، أفشيتُ سرًّا لأختي الصغيرة في غرفة نومنا المشتركة، بعد أن جعلتها تُقسِم لي أنّها لن تبوح بالسرّ لأحد، لأنَّك لا ترضى. قلتُ لها :

ـ « إنَّ الفريق الركن عمر علي قام من مقعده وأدّى

تحيةً عسكريَّة إجلالاً لأبينا ».

قالت وعلى وجهها حيرةٌ أقرب إلى البلاهة:

ـ ما معنى الفريق الركن؟ ومن هو عمر علي؟

لكَ الله يا أبتاه، كانت جميع القضايا التي ناضلتَ من أجلها واضحة مفهومة، أمّا اليوم فأنت في حيرة من أمر أصغر أبنائك. كيف لكَ أن تستسيغ دخول أحد أبنائك السجن أو تشرِّده في المنافي، لأنَّ السلطة « الثورية » تختلف معه في الرأي والميول السياسيّة. لقد أعلنتْ تلك السلطة في اليوم الأوَّل من انقلابها أنَّها قامت بحركتها من أجل الحرِّيَّة والمساواة والعدالة. ويأتيكَ ولدكَ ليقول لكَ إنَّه يناضل من أجل الديمقراطيّة، وحقوق الإنسان، وحريات المجتمع المدنيّ. لا بدّ أنَّكَ في حيرةٍ وأيّ حيرة!

ومع ذلك، فأنتَ وأخوتي تقتصدون من قوت يومكم لتمكِّنوني من الابتعاد عن الخطر والسفر إلى لبنان ثمَّ إلى أمريكا للدراسة فيها وتحسين فرصي في المستقبل. كم تساءلتُ في نفسي بعد ذلك : هل يمكن للإنسان أن يبني سعادته على شقاء الآخرين وتعاستهم؟

36

أذكر أنَّ أمّي طلبت ذات يوم من قارئة كفٍّ قدمت إلى قريتنا أن تقرأ كفّي وكنت يومها صبيًّا. أخذت المرأة كفّي، بسطتها بين راحتيها، أطالت النظر إليها، ثمَّ تحوّل نظرها تحديقاً، اكفهر وجهها، زمّت شفتيها، لوت عنقها، أدارت وجهها نحو اليمين ونحو الشمال، كأنَّها تبحث عن مهرب. لم تُرد أن تنطق بما رأت، لم تشأ أن تصدم أمّي. ترى هل رأت تلك المرأة فعلاً دمي يُسفَح في غربتي؟.

كلُّ الكائنات في قريتي تتشبَّث بجذورها شامخةً حتّى الموت، فأشجار النخيل في بستاننا تموت وهي واقفة؛ وأسراب

البلابل تموت وهي محلّقة؛ إلا أنا، فها أنا ذا أسير، بخنوع مطأطأ الرأس، أبحث عن منفىً موحشٍ الدرب لأدفِن فيه خوفي وجُبني.

37

قال لي أبي وهو يودّعني في مطار بيروت، وكان، كعادته، يغرس أزاهير الحكمة في جُنينة الكلام:

ـ « ستعبر إلى الضفة الأخرى، يا بنيّ... ».

ثمَّ سكتَ فجأةً وأشاح بوجهه بعيداً عني، مصوِّبا نظراته إلى الشمس الغاربة عبر المطار وكأنّه يحاول أن يدفن دمعةً مكابرةً في الأفق النائي أو يلقي بها في أعماق البحر السحيق دون أن ألحظ ذلك. وبعد هنيهة، عادت نظراته من السماء إلى الأرض مثل قوس قزح واستقرّت عليّ، واستأنف كلامه قائلاً:

ـ « ستعبر، يا بُني، إلى الضفة الأخرى، وسترى وجوهاً جديدة، وأشجاراً مختلفة، وستناديك أصواتٌ متنوّعة. ولكن... ولكن لا تنسَ أهلكَ ونخيلكَ على شاطئ الفرات. لتبقَ ظلال سعف النخيل على عينَيكَ كأهدابك، ولتبقَ أهازيجنا على شفتيكَ كريقكَ. واعلمْ أنّنا سنظلّ نناديكَ في البعد، وسنذكركَ كلَّ يومٍ عند انبلاج الفجر، وابتسام الصباح، وضحكة الشمس، وزغردة الطيور الطليقة. سنذكركَ كلّما استمرأنا طعاما واستسغنا شراباً. سنذكركَ مع الشمس الغاربة والنجيمات الطالعة، والنيازك المتساقطة؛ وسنرى صورتكَ في وجنة القمر. سنحمِّل النسيم سلاماً إليكَ. سنتمتم باسمكَ في صلواتنا داعين الله أن يحفظكَ ويردكَ إلينا سالماً غانماً... ».

وقطع كلامه مرةً أُخرى، وأشاح بوجهه عني نحو الأفق البعيد، ثمَّ ضمني إلى صدره، فأسرجَ قنديل الحنان والعرفان في قلبي.

لم أفُه بكلمة، لم أنظر في عينيه، بل أخذتُ كفَّه اليمنى بين يديّ، وضعتها على موضع القلب مني، ثمَّ مرّرتها على وجهي،

قرّبتها من فمي، لثمتُ أصابعها واحدةً واحدة، نفذتْ رائحة المسك منها إلى رئتيّ. ما أطيب رائحتكَ يا أبي! وما أطيبك! كنتَ تحنو عليّ طفلاً، فأحببتكَ. وعلّمتني وناظرتني فتى فاحترمتكَ. كيف أنسى يا أبي تربةَ أهلي، وماء الفرات، ونخلة أمّي؟ فقد تشرَّبتْ بها روحي، وسرت في دمي، ونبض بها قلبي. وهل يحيا المرء بلا قلب؟ كيف أنسى يا أبي وطني؟ ليتني كنت أستطيع ذلك لحظةً واحدة، فهو يسكن كياني، ويملأ أحلامي.

إنّك لا تدري، يا أبي، أنّني منذ ذلك الفجر الذي احترفتُ فيه الرحيل، والشمس تشرق كل صباح في عيني من العراق، وتغيب كلّ أصيل في العراق، وأنّ ساعتي أدمنت توقيت بغداد، أينما ذهبتُ، لأنّ هذه الساعة التي أهديتَها إليّ ذات يوم، تعمل بالنبض، نبض قلبي الذي تجسّه في معصمي. وقلبي ينبض بحبّ العراق.

تقول، يا أبي، إنّني قد أنسى وطني حينما أعبر إلى الضفة الأخرى، وأنتَ على يقين، يا أبي، أنّني في أيّ المحيطات أبحرتُ، وفي أيّ البحار نشرتُ أشرعتي، فإنّ بوصلة القلب ستبقى متجهةً دائماً نحو منائر وطني، وأنّ ساريتي ستظلّ أبداً ملفّعة بشال أمّي وضفائر أختي. وسأستنشق عبير بستاننا في نسيم البحر. وسيغتسل طيف بلادي في مجرى مركبي، وأرى خيال أعناق نخلاتنا في الغمائم فوق السفن، وسيجري ماء الفرات على الدوام في عروقي وأوردتي وشراييني ودمعي. وسأظلّ صادياً ظمآنَ لن أرتوي إلا ببضع قطرات من ماء الفرات الفرات.

وطني هو ذلك النهر المنساب برقّة في أحضان قريتنا الوديعة. وطني هو النخلات التي تحنو على النهر ويتدلّى سعفها الطويل في مجراه، فتمتزج خضرتها بزرقة السماء على صفحة مائه. وطني هو البجع البري الذي كان يسبح مع مجرى التيار قادماً من أعالي النهر، فكنتُ أسبح نحوه جذلاً، أطلق صرخات الفرح، أطارده بمرح، ترفرف أجنحته، يرتفع طائراً على سطح الماء، فانبهر به.

وطني هو قبلة أمّي على جبيني، وضمّة أمّي إلى صدرها، وحكايات أمّي والنعاس يداعب أجفاني في دفء فراشي، وخلطة الحليب والزبدة والعسل التي كنتَ تسقيني في فطور الصباح، وجدائل أختي الكبرى وهي تقودني إلى المدرسة.

وطني هو الراعية الصبيَّة، عيدة، ذات الوجه الأسمر المليح المتناسق التقاطيع، والجسم الناحل الصغير، والذؤابتين المنفلتتَين من عصابة رأسها السوداء. عيدة التي كنتُ أجري خلفها وهي مسرعة إلى عملها في المروج، وأنا أنادي: « عيدة، عيدة » فتلتفت نحوي ملوّحةً بعصاها مهدّدة وهي تقول :

« وجعة شديدة، وأيش تريد من عيدة؟ » فكنتُ أضحك للهجتها البدويّة، والحزم البادي على وجهها الأسمر الصغير.

هل كنتُ أعبث، يا عيدة، حين كنتِ تعملين بجدّ، فاستحققتُ لعنتك؟ إذن الآن وقد أدركتُ معنى العمل بعد هذا العمر، أعذركِ واطلب منك العفو. أتدرين، يا عيدة، أنَّ ذاكرتي ظلّت موشومةً بملامحكِ التي لوَّحتها شمس بابل بسحرها، موشومةً بعينيكِ اللامعتَين، بشفتيكِ المكتنزتَين. ما تذكّرتُ طفولتي، يا عيدة، إلا وكنتِ أنتِ تركضين في مروجها الخضراء بهمَّةٍ وحزم، تردّين نعجة شاردةً إلى القطيع، أو تنحنين لتحتضني حَملاً لم يستطع مجاراة القطيع، أو تعدّين غنمك بالعصا قبل العودة إلى المراح، وتركضين وتركضين وكلبك يجري خلفكِ دوماً، كما لو كان مشدوداً بخيطٍ إلى أذيال ردائكِ ذي القبّ والسلهام الطويل.

ولكنْ، قولي لي، يا عيدة، أين أمسيتِ اليوم؟، هل عدا عليك الزمن الذي لا يرحم كما عدا عليّ؟ هل غزا الشيب مفرقك؟ هل أقعدتك الشيخوخة فلا تستطيعين المشي، بله الركض؟ أم أنَّ يد الموت قطفتكِ قبل الأوان كما كنا نقطف التفاح في بستاننا؟ وكيف مرّت حياتك؟ هل كنتِ سعيدة؟ أم أنَّ الناس في الأرياف

لا يعرفون معنى السعادة؟ حسناً، هل تزوجتِ؟ وهل كان زوجكِ رجلاً طيِّبا؟ هل عاملكِ برفق؟ هل أنجبتِ أطفالاً بمثل ملاحتكِ، وسمرتكِ، وحدَّة لسانكِ؟ وأين هم الآن؟ هل أتيحت لهم فرصة التعلُّم في المدرسة؟ هل مارسوا أعمالاً أقلَّ عنتاً من الفلاحة والرعي؟ أم التهمتهم نيران الحروب الهوجاء التي دمَّرت وطني؟

أتذكَّرك، يا عيدة، فأضحك من أعماقي. أنا الذي نسيت طعم الضحك في فمي منذ سنوات. أضحك من كلماتكِ التي كنت تنطقينها بنبرة حادّة: «وجعة شديدة، وأيش تريد من عيدة؟» هل كنتِ تعدِّينني طفلا شقياً يبتغي إضاعة وقتكِ فتردعيني بأقسى الكلام، وبتلويحٍ من عصاك الطويلة؟.

38

رفعتُ رأسي لأنظر في وجهكَ يا أبي. لمحتُ احمراراً في عينيك. قرأتُ فيهما غضباً تخفيه مثل جمرٍ تحت الرماد، أحسستُ أنك تَدثِّر قلقاً عميقاً بكبرياءَ جريحة، كما يقلق أسدٌ مكبَّلٌ في قفص وهُم يقتادون شبله بعيداً عنه، لا يدري إلى أين. بدت على ملامح وجهك تلك الهيئة التي استحوذت عليها يوم أخبروك بمقتل ابنك البِكر، أخي أحمد.

ولكي يغيّر سليم الموضوع، سأل أباه :

ـ « وكيف خلفتَ أُمّي وراءك، يا أبي؟

قال الأب بإباء :

ـ « كم كانت تودّ مرافقتي لرؤيتك. ولكّنني كنت أعلم أنَّها لا تحتمل ساعة الوداع فأقنعتها بالبقاء ».

تمنيتُ في تلك اللحظة أن أعود إلي قريتي، وألقي ببقايا نفسي المبعثرة في أحضان أمّي، أطوّق عنقها بيدي، أقبّل وجنتيها، وألثم

يدَيها، وأشمُّ رائحة الحناء في ذوائبها البدويّة. بيدَ أنّي غادرت البلد مُكرَها نزولاً عند رغبة أبي وإلحاح أمّي وحثّ الرفاق لي. كان تقديرهم أنّ حياتي في الغربة خير من مماتي في وطني، أو على أقلّ تقدير أن حرّيّتي في الغربة خير من سجني في وطني. وهكذا لجأتُ إلى بيروت مع زكي حفاظاً على حياتنا. ولكن لم يطُل بي المقام في بيروت حتّى تأكّد لي أن موتي في وطني خيرٌ لي من حياتي في غربتي. لا معنى لحياتي وأنا بعيد عن أهلي ونهري وبستاني ونخلاتي وجوادي ومروجي الخضراء وطلابي؟ وهل يبقى معنىً لذاتي وهي مجرَّدة من تلك الأحاسيس السامية التي كانت تغمرني وأنا أتحدّث مع إخوتي وأصحابي وأعلّم طلابي؟ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

39

أعادني أزيز طائرة هابطة من سماء خيالي إلى أرض المطار. كان أبي ما يزال واقفاً أمامي. رأيتُ وجهه مكفهرّاً مثل الشمس الغاربة العاصبة الجبين بغمائم متحرّكة في أقصى البحر. أعملتُ فكري بسرعة، لأعثر على موضوع يغيّر ما نحن فيه من لوعة الوداع، ويضفي لمسة سرور على والدي، فلم أجد سوى موضوع صديقه كاكا يارة محمد عليّ. كنتُ واثقاً من أنّ مجرّد ذكر اسم صديقه كاكا يارة، سيغيّر حزنه إلى فرح، ويعدّل جهام وجهه إلى إشراقة رضيّة، وينقلنا من أسى الوداع إلى فرحة اللقاء، أعني لقاءه مع صديقه كاكا يارة.

لم يكُن إعجاب والدي بصديقه كاكا يارة محمد يقتصر على استحسان أخلاقه الرفيعة، بل يمتدّ إعجابه كذلك إلى خصاله الجسديّة، فكان يكرّر، وهو يضحك، قصّة شهدها بنفسه كما يقول. كان جالساً مع صديقه كاكا يارة محمد في مكتب الإدارة في الخان، وشاهدا ثلاثة من الحمّالين الشباب يتعاونون على حمل

صندوقٍ خشبيّ ضخم، ولكنّهم سقطوا أرضا تحت عبء ذلك الصندوق. وعند ذلك انتفض كاكا يارة محمد من مقعده وتوجّه مسرعاً إليهم، وشال الصندوق وحده.

لا أدري بالضبط متى التقى والدي بصديقه كاكا يارة، فمنذ أن أخذتْ أعي الكلام وأدرك المفاهيم في صغري ووالدي يتحدّث بمناسبة ودون مناسبة عن صداقته بكاكا يارة. وعندما يذكر اسمه يغمر وجهه الانبساط والانشراح، وينبري في الحديث بإسهابٍ وبإعجابٍ لا نظير لهما عن كاكا يارة محمد علي: عن صفاء نفسه، ورقّة طبعه، وطلاوة لسانه (على الرغم من أنّه قليل الكلام، ولا يتكلّم العربيّة بطلاقة ولكنّه يتلو القرآن كلّ صباح، كما يقول والدي).

كان كاكا يارة يملك خاناً (أو مخزناً) في الشورجة في وسط بغداد. والشورجة هي سوق تجاريّ لبيع البضائع بالجملة: صناديق شاي سيلان الكبيرة، أكياس السكّر الضخمة، حاويات الأثواب والقماش، وكلّ ما يخطر على البال. تصل هذه البضائع إلى الشورجة بواسطة شاحنات نقل كبيرة يأتي معظمها من ميناء البصرة، ويقوم حمّالون معظمهم من الأكراد الفيليّة بتفريغ هذه الشاحنات وحمل بضائعها على ظهورهم إلى الخانات المختلفة التي كان الأكراد يملكون معظمها. وكان هؤلاء الأكراد تجّار جملة يستوردون البضائع من أوربا، غالباً بريطانيا، ويساعدهم في مراسلة الشركات البريطانية أشخاص متخصّصون في القيام بإجراء المراسلات اللازمة للاستيراد، أغلبهم من اليهود العراقيين الذين يجيدون اللغة الإنكليزيّة، يطلق أهلُ الشورجة عليهم اسم « الكومسيون ». ومعنى هذا الاسم المعرّب من اللغة الإنكليزيّة هو « العمولة » التي يتقاضاها الشخص عن توسطه في استيراد البضائع، ثمَّ أُطلقت « العمولة » على مَن يتقاضاها من الوسطاء التجاريّين. ويعمل « الكومسيون » عادةً في شقّةٍ صغيرة أو

غرفة في شقة، ليس فيها سوى الآلة الكاتبة التي تُطبَع عليها الرسائل التجاريّة، وبعض الأدلّة التي تحتوي على عناوين الشركات البريطانيّة المتخصّصة في تصدير البضائع، وأحياناً يمتلك هذا «الكومسيون» ميزاناً صغيراً لوزن الرسائل التي يبعث بها بالبريد لمعرفة مقدار الطوابع التي ينبغي أن يُلصَق عليها.

كان والدي يعدُّ صداقته مع كاكا يارة هبة ربانيّة، تماماً كما يرزق اللهُ الإنسانَ شقيقاً آخرَ بعد وفاة الوالدين. فالصديق الحقيقيّ، في مفهوم والدي، هو أخٌ لم تلده أمّك. وقد أصبح الصديق الصدوق نادراً في هذه الأيام التي سادت فيها المادةُ العلاقاتِ بين الناس، وتغلّبت الإثرةُ على الإيثار، وحلّ الغدرُ محلّ الوفاء. كان والدي ينشد أحياناً بيتاً من الشعر لا يعرف قائله :

ثلاثةٌ ليس لهم وجودُ الغولُ والعنقاءُ والخِلُّ الوفي

ولكنَّ كاكا يارة هو الاستثناء الذي يؤكّد القاعدة. فهو الصديق الصدوق والخِلّ المحبّ، الذي توافرت فيه صفات الإخلاص، وتجمّعت له خصال الوفاء، إضافةً إلى التشابه والتشاكل بينه وبين أبي في الأخلاق والعادات ، كما يقول أبي. فهو مثله رجل متديّن، لا يعاقر الخمرة، ولا يدخّن السيجارة، ولا يجلس إلى طاولة القمار، ولا يلوك لسانه أعراض الناس، ولا يخلف وعداً، ولا يكذب في حديث. هناك استثناء واحد من هذه اللاءات ذلك هو حبُّ النساء، فهما لم يريا ضيراً في الزواج من أكثر من امرأة، فالله حلّل لهما أربع نساء، كما يعتقدان. فالدِّين كما يفهمه كاكا يارة، طبقاً لرواية أبي، ليس الصلاة في المسجد، والحج إلى بيت الله، وصوم شهر رمضان، فكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش؛ وإنّما تكمن روح الدِّين كذلك في صدق المعاملة مع الآخرين، وحسن الأخلاق، والجدّ والإخلاص في العمل. ويشهد أبي لصديقه كاكا يارة بأنّه صادق في تعامله مع بقية التجّار والزبائن، يفي بوعوده لهم، ولا يتأخّر عن موعدٍ ضربه لتسليم بضاعة، ولا يغش

في بضائعه، فالدّين المعاملة. ولهذا كثر زبائنه، وتضخّمت معاملاته التجاريّة، وازداد دخله، وبارك الله في أرباحه.

كان والدي يكرّر ذلك أمامنا كثيرا حتّى أخذ يداخلني الشكّ في أنّه ربّما لجأ إلى هذه الطريقة ليعظنا نحن الأولاد، ويحثّنا على الالتزام بالأخلاق الحسنة والعادات الحميدة. ولكنّ حماسته كانت بادية حقيقيّة أثناء الحديث عن صديقه كاكا يارة وتأكيده على أنّ التماثل والتطابق بينهما في الآراء والمعتقدات، والتشابه والتشاكل بينهما في الأخلاق والعادات والمفاهيم، جعلهما بمثابة أخوَين ولدتهما أمٌّ واحدةٌ وتولى تربيتهما أبٌ واحد، ويحلو له أن يبرهن على صحّة رأيه بالاستشهاد ببيتيْن من الشعر لأبي تمام:

فقلتُ: أخي، قالوا: أخٌ من قرابةٍ ؟ فقلتُ لهم : إنّ الشكولَ أقـــاربُ

نسيبي في عزمي ورأيي وهمّتي وإنْ فرّقتنا في الأصـول المناسـبُ

بيدَ أنّ أبي رفع من درجة هذه العلاقة العجيبة بينه وبين كاكا يارة محمد، فأخذ يزعم أنّه وكاكا يارة محمد ليسا مجرّد أخوَين، وإنّما هما شخص واحدٌ أو بالأحرى روحٌ واحدةٌ حلّت في جسديْن، ويستشهد على صحّة رأيه ببيت شعر لم يعرف قائله :

روحُهُ روحي وروحي روحهُ إنْ يشأ شئتُ وإن شئتُ يشا

لكلّ تلك الأسباب، كنتُ على يقين من أنّني سأغيّر مشاعر الأسى والحزن التي كانت تغمر والدي في تلك اللحظة، بمجرّد ذكر ذلك الاسم السحريّ: كاكا يارة محمد أمام والدي. ولهذا قلتُ لهُ بلطف:

ـ بالمناسبة أرجوك أن تبلّغ سلامي ومحبتي إلى عمّي كاكا يارة عند عودتك إن شاء الله. كيف حاله وأهله؟

في حقيقة الأمر، كلمة « أهله » كلمة مختصرة جداً تدلُّ على مجموعةٍ كبيرةٍ من الناس، شأنها في ذلك شأن اللغة ذاتها. فاللغة

مجرّد رموز لفظيّة أو كتابيّة تختصر الوجود كلّه، لأنَّ أهل كاكا يارة عشيرةٌ كاملةٌ تسكن في دارٍ كبيرةٍ تكاد تكون عمارةً ضخمةً كاملة.

اصطحبني والدي معه ذات مرَّة وأنا صبيٌّ صغيرٌ إلى بغداد، ونزلنا بطبيعة الحال ضيوفاً على عمي كاكا يارة محمد. وعندما انفتح باب المنزل وولجنا إلى داخله هالتني ضخامة البناية، وأدهشتني كثرة الناس فيها، ولفت انتباهي كثرة الأطفال وضجيجهم. كان المنزل بناية كبيرة مربّعة ذات طوابق متعدّدة تطلّ على ساحة مربعة في وسط المنزل، إن كان بإمكاننا تسمية ذلك البناء بالمنزل. كان المنزل يضمُّ زوجات كاكا يارة محمد الثلاث وأطفالهن، ويضمُّ أبناء الكاكا الكبار وزوجاتهم وأطفالهم، ويأوي إخوة الكاكا المتعدِّدين وزوجاتهم وأولادهم، ويسكن في ذلك المنزل أبو الكاكا وثلاثة من أعمامه. إنَّها عمارة كاملة تسكنها عوائل متعدّدة، وكلُّ عائلة تستقلُّ بشقَّةٍ من الشقق التي تتصل ببعضها عن طريق باحة المنزل الوسطى المشتركة في الطابق الأوّل، وكذلك عن طريق شرفات الطوابق المطلة عليها. وكان كثير من هؤلاء الرجال يعمل مع كاكا يارة محمد في خانه مساعداً أو حمالاً أو كاتباً، أو يمتلك خاناً آخر ويساعد بعضهم بعضاً. ويحتلّ الكاكا يارة محمد وزوجاته الثلاث وأطفالهم الصغار الطابق الأرضي الذي يشتمل على شقّة للضيوف وصالة كبيرة للاستقبال. في شقّة الضيوف تلك نزلنا، والدي وأنا، وفي صالة الاستقبال تلك تناولنا طعام العشاء تلك الليلة، طعاماً كثيراً متنوّع الأطباق والأذواق. وكان وجه كاكا يارة متهلّلاً تلك الليلة يغمره فرحٌ كاسح، ويشرق بابتسامة عريضة، وهو لا يملّ ولا يكلّ من تكرار الترحيب بوالدي قائلاً : مرحباً كاكا محمد، مرحباً كاكا محمد. وكانت تلك المرَّة الأولى التي أسمع فيها أحداً يخاطب والدي بكلمة «كاكا»، فوالدي هو الشيخ محمد أو الحاج محمد أو أبو عبد المنعم، ولكن لا أحد يخاطبه بتلك الكلمة المضحكة لي «كاكا». التي تذكّرني بكلمة «الحكاكا»، في لهجتي، وهي بقايا الرز الملتصق في قعر القدر

وتكون لذيذة المذاق. وعندما انفردتُ بوالدي في شقَّة الضيوف تلك الليلة، سألته عن معنى «كاكا» فقال لي والفرح باد على ملامح وجهه : تعني بالكرديّة «الأخ». فنحن أخَوان، كما تعلَم.

40

لم يُعجِب الأب على سؤال ولده سليم في المطار عن صديقه كاكا يارة محمد، وإنَّما حطت على وجهه غمامة أسى وحزنٍ وغصَّة وألم. كما لو كان السؤال مزوَّدا بأنصالٍ حادّة جارحةٍ اخترقتْ أذنيه. علتْ وجه سليم الدهشة وكرَّر سؤاله قائلاً :

ـ بابا، سألتكَ عن عمّي كاكا يارة محمد علي، وقلتُ : أرجوكَ أن تبلّغه وأهله سلامي الحار.

قال والدي بصوت مختنق :

ـ لم يعُد عمّك كاكا يارة في بغداد.

ـ ماذا تقول، يا أبي؟ أين ذهب؟

ـ لقد داهمته قوَّة من رجال الأمن ذات ليلة، قبيل الفجر، وهو في منزله، واقتادوه مصفَّد اليديْن إلى شاحنة نقلته مع آخرين من سيِّئي الطالع إلى الحدود العراقيّة الإيرانيّة، ورمت بهم هناك، بحجَّة أنَّهم ذوو أصول إيرانيّة.

قال سليم مندهشاً :

ـ لقد قرأتُ في إحدى الصحف خبراً مفاده أنّ الحكومة قامت بطرد بعض الإيرانيِّين الذين لهم علاقة بتفجيرات وقعت داخل بغداد، وأغلبيّة هؤلاء يقطنون مدناً فيها جاليات إيرانيّة. ولكن عمّي يارة عراقيّ أصيل، وهو لا يتدخَّل في السياسة مطلقاً.

ـ لقد شملت هذه الحملة غير المباركة حتّى الآن أكثر من نصف مليون إنسان، وبعضهم من قبائل عربيّة قحَّة لا علاقة لهم

بإيران مطلقاً، لقد عمّت تلك الحملة كثيراً من المعارضين، أو ممن لا يؤتمَن إخلاصهم للحزب الحاكم، أو أحياناً بسبب وشاية بعض المخبرين لعداوات شخصيّة.

ـ هذا أمر لا يصدَّق مطلقاً، تماماً مثل قتل بعض المعارضين الفارين في وضح النهار في وسط بيروت، أو إرسال طرود ملغمة إلى بعضهم الآخر في عواصم الدنيا.

لقد ندمتُ أشدَّ الندم على محاولتي غير الموفقة في تغيير الموضوع. وعلى الرغم من أنّني شعرتُ بالرغبة في معرفة تفاصيل أكثر عن مصير كاكا بارة محمد وإخوته وأبنائه، فإنّني لم أرِد أن أزيد جرح والدي إيلاماً وغوراً. ولم أعرف أيَّ قضية أطرقُ لأغيِّر الموضوع. ومن حسن الحظ، انطلق مكبِّر الصوت يُعلن في المطار:

ـ شركة الخطوط الجويَّة اللبنانيَّة تُعلِن عن قيام رحلتها رقم 251 المتوجِّهة إلى بروكسل ونيويورك، وترجو من جميع الركاب التوجُّه إلى باب المغادرة رقم 11.

نظرتُ إلى والدي، وتناولتُ كفّه، وقبّلتها بصمت. فقد كان الوداع أخرس.

القسم الثاني:

نيويورك ـ أوستن، تكساس

***

41

حطّت الطائرة في مَدْرَج مطار جون كندي في نيويورك عصر ذلك اليوم، وكان المطار يضجُّ بالطائرات ذات الجنسيّات المختلفة. فنزل سليم مع بقية المسافرين وتوجّهوا إلى الجناح الخاصّ بإجراءات الدخول. لفتَ نظره ضخامة المطار واتساعه ونظافته، فقد كانت أرضيته لامعة مصقولة كمرآة. ورأى عدداً من الرجال والنساء، جلّهم من السود، يمسحون أرضيَّة قاعات المطار بالجفّافات. ونظراً لأنَّ المسافات طويلة فقد كانت هناك بعض الممرات المكسوّة بالسجاد الآليّ المتحرّك الذي يقف عليه المسافر فينتقل بسرعة إلى الطرف الآخر من الممرّ. وكانت ثمّة عربات صغيرة مكشوفة تسير بالبطاريات يقودها موظفون من المطار لحمل الشيوخ والعجزة والأطفال والانتقال بهم إلى مقاصدهم في المطار.

جذب انتباه سليم تنوُّعُ الأجناس البشرية في المطار وكثرتها. فمنهم الأبيض والأشقر والأصفر والأسود والأسمر. وتذكّر كيف أنّ جدّه وأباه تحدّثوا عن مكة والمدينة اللتَين يؤمُّهما أيام الحجّ أناس من شتى الأجناس والألوان، من مختلف القارات والبلدان.

وتوجّه سليم إلى مكتبِ خدمة المسافرين، فاستقبلته مضيّفةٌ بابتسامة عذبة، فحياها وسلمها تذكرة سفره. نظرت فيها وهلة ثمّ قالت:

ـ عليك المبيت هذه الليلة في فندقٍ قرب المطار على حساب الشركة، وفي الساعة الثامنة صباحاً، تعودُ إلى الجناح س من المطار لتنقلك طائرة هيلكوبتر إلى مطار لوغارديا في الجانب الآخر من نيويورك لتستقل الطائرة المتجهة إلى أوستن ـ تكساس. فمطار كندي مطار دولي يربط نيويورك بعواصم العالم، أمّا الرحلات الداخلية بين المدن الأمريكيّة نفسها فلها مطار خاصٌّ بها.

سلّمته المضيفة بطاقتَين، إحداهما للمبيت وتناوُل وجبتي

العشاء والفطور في الفندق، والأُخرى لطائرة الهليكوبتر التي يستقلّها صباح اليوم التالي. وأعطته خريطةً للمطار، وأشّرت فيها على موقف الحافلة التي تنقله مجاناً إلى الفندق.

بعد العشاء، تجوَّل في الحيِّ الذي يقع فيه الفندق، فهاله كثرة المطاعم والمحلات التجاريَّة، ولاحظَ كذلك أنَّ العاملين في الفندق والمطاعم والمحلات التجاريَّة ينتمون إلى أعراق مختلفة وأجناس متعدِّدة، وتذكَّر ما قرأه قبل سفره عن الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بوصفها أرض هجرة يأتيها كثير من الشباب وغيرهم من جميع أنحاء العالم ليحقِّقوا حُلمهم في النجاح والثروة، وهذا ما يطلق عليه بعضهم " الحُلم الأمريكيّ"، فكلّ مَن في الولايات المتحدة مهاجر، ما عدا الهنود الحمر وهم قلّة، ولا يختلف مهاجر عن مهاجر إلا في تاريخ وصوله أو وصول آبائه.

تذكّر سليم أن تنمية أمريكا بدأت قبل أقلّ من أربعة قرون فقط بعد اكتشافها من قبل الأوربيِّين. ويعزون اكتشافها إلى البحار البرتغالي الإسباني كولومبوس عام 1492. وقد حُفِر هذا التاريخ في قلبه كالجرح الذي لا يندمل، جرح لا يضاهيه إيلاما وحرقة إلا جرح فلسطين. إنّه تاريخ سقوط غرناطة آخر معاقل العرب في الأندلس. كان المدافعون عن غرناطة ثلّة صغيرةً من ورثة البطولة. وقفوا عاقدين العزم على الشهادة وهم يستمعون إلى خطاب قائدهم الغسان قائلاً :

« أيُّها الرفاق، لم يبقَ لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن ... ».

وعندما اتَّضح لأمير غرناطة عبد الله الصغير أنّ المعركة خاسرة، وأن القوات المحاصرة ستستبيح المدينة إنْ دخلتْها عنوة، قَبِلَ التفاوض على تسليم المدينة والتنازل عن عرشه، بشرط أن تحافظ الملكة إيزابيل على أرواح الأهالي وممتلكاتهم، وتضمن لهم حرِّيَّة التديُّن. وهي وعود لم تحفظها تلك المرأة.

تراءى لي في تلك اللحظة عبد الله الصغير وهو في طريقة إلى المنفى. يقف مع أهله على تلٍّ يُطلّ على غرناطة، يلتفت إليها بقلبٍ واله، تبدو له قباب قصورها، وتلمع أمام عينيه منائرها، ويبلغ منخريه نسيمها، فتنبجس الدموع من عينيه، فتقول له أمُّه:

ـ ابكِ كالنساء على مِلك لم تحافظ عليه كالرجال.

ذرف عبد الله الصغير الدمع من أجل غرناطة مرَّةً واحدةً، أمَّا أنا فسينساب الدمع من عيني على فراق العراق في كلّ ليلة عندما يأويني الفراش ويخفيني الظلام.

في الصباح، استقلّ سليم طائرة الهليكوبتر التي أقلّته مع بضعة ركاب آخرين إلى الجانب الآخر من مدينة نيويورك. وشاهد وهو على متنها أحياء عديدة من المدينة، والطيّار يتحدّث إلى الركاب عن أهمّ معالم المدينة، وشاهد كيف أنَّ ماء البحر والأرض يتداخلان ويتشابكان، لأنَّ المدينة في الواقع مكوّنة من خمس جُزُر متقاربة عند مدخل القارة الأمريكيّة.

لم يَطُلْ به المكوث في المطار الجديد، إذ سرعان ما توجَّه مع عددٍ من الركّاب إلى طائرة كانت تحمل علامة شركة الخطوط الأمريكيّة. وكانت المقاعد مرقّمة، فاتّجه إلى المقعد الذي يحمل رقم الجلوس المدوَّن على بطاقة الصعود إلى الطائرة. فوجد ثلاثة مقاعد، وقد احتل مقعدَين منهما رجلٌ وسيدةٌ، تبيَّن له فيما بعد أنَّهما زوجان أمريكيّان من أهل أوستن.

وبعد أن استقرَّ الركاب في مقاعدهم، خاطبتهم إحدى المضيفات قائلة إن الرحلة من مطار لاغورديا إلى أوستن في تكساس تستغرق أربع ساعات وسيقدَّم خلالها طعام الغداء، وطلبتْ منهم شدَّ الأحزمة استعداداً للإقلاع. ثمَّ تقدَّمت مضيفةٌ أخرى وهي تحمل قناعاً بيدها ووضعته على وجهها قائلة: « في حالة انخفاض كميّة الأوكسجين في الطائرة، فإنَّ هذه

الأقنعة ستتدلّى تلقائيا أمام المسافرين وما على الراكب إلا أن يضعها على وجهه ويتنفّس بصورة طبيعية ». ثمّ تناولت سترة من المطاط وقالت: « وفي حالة الطوارئ تجدون سترة الطوارئ تحت مقاعدكم وتشدّونها حولكم بهذه الطريقة »، ثمّ لبست السترة التي بيدها وربطتها حول خصرها.

42

في كلّ الدروب التي قطعتُها، كنتُ أبحث عنكِ وعن ذاتي، بل كنتُ أبحث عني فيك، والذكرى تشتعل في سواقي دمي، والماضي الحيُّ يتوهّج في أوراق العمر المتساقطة. وفي جميع الطرقات التي مشيتها مُطرقاً، كنتُ أفتّش عنكِ وعن هُويّتي في عتمة التيه والضياع. ولكنّني ما لملمتُ منها إلا شظايا انكساري وفتات خيبتي. وها أنا ذا أقترب من المنعرج الأخير دون أن يلوح لي بصيصٌ من نور عينيك، ولا إشراقةٌ من ابتسامة شفتيكِ. ها أنا ذا أقترب من المنعرج الأخير دون أن يبدو لي ثمّة جسر أعبر عليه إلى الضفة الأخرى. مرتعباً خائفاً متردّداً أواصل السير خطوةً خطوةً، وقدٍ تنزلق خطواتي الوئيدة إلى هاوية النهاية، ولن أرى طيفك مرّة أخرى، يا أثيرة !.

المرافئ كلّها غريبة، والمحطّات جميعها بائسة، تخلو من رائحة الأهل ومذاق الفرات. أسافر وأنا لا أحمل سوى غربتي، غريب حتّى مع نفسي، وقلبي وكرٌ لطيور الحزن المقيمة، والموت يتربّص بي عند كلّ منعطف، يختبئ لي وراء الأشجار، يلوح لي في الغسق، يطلّ بوجهه البشع من بين الأزهار الذابلة، والرسائل اليتيمةِ العنوان الملغّمة التي تأتي ولا تأتي.

43

كان يبدو غريباً، ليس من سحنة وجهه، فوجوه الأمريكيّين

تتّسع لجميع الألوان والأشكال، بل من الإنكليزيّة التي تكلّمها عندما تبادل الحديث مع جارَيه الجالسَين إلى جانبه، السيدة وزوجها. كانا في منتهى اللطف ودماثة الخلق. قدّم السيد نفسه باسم الدكتور روبنشتاين، أستاذ جامعيّ، وزوجته السيدة روبنشتاين. وعندما علِما بأنّها المرة الأولى التي يحلّ فيها سليم في الولايات المتّحدة للدراسة، أخذا يشرحان له بعض العادات الخاصّة بالأمريكيين. فعندما جاءت المضيفة وهي تدفع عربة مليئة بالمشروبات، بدأت بسؤال السيدة روبرنشتاين عن المشروب الذي تفضّله فأجابت: الشاي المثلّج، لم يستطِع سليم أن يخفي علامة الدهشة التي بدت على وجهه لسماعه عبارة « الشاي المثلج ». لم يسمع من قبل بشيء اسمه « الشاي المثلّج ». هل هذا مشروب آخر لا علاقة له بالشاي، مثل أكلة « الكلب الساخن » hotdog التي لا علاقة لها بالكلاب؟ ولكن المضيفة صبَّت فعلا للسيدة روبنشتاين كأسا من مشروب أحمر اللون مليء بمكعَّبات الثلج. وهنا شرح له الأستاذ روبنشتاين أنَّ الأمريكيّين يشربون الشاي المثلج فعلاً خاصَّةً في الولايات الجنوبيَّة، لشدّة الحرارة فيها خلال فصل الصيف.

وفي نهاية الرحلة، أخرج الأستاذ روبنشتاين بطاقةً من محفظته، وقال:

ـ تجد في هذه البطاقة عنواننا ورقم هاتفنا، ونرجوك أن لا تتردَّد في الاتّصال بنا، لا لنسعد بلقائك في منزلنا وتناول طعام العشاء معنا فحسب، بل كذلك لمساعدتك في أيِّ مشكل يواجهك في أوستن أو في الجامعة.

44

بدأت الدراسة في الجامعة، فتدفَّق سيل الدروس والمحاضرات والبحوث ، وانغمر سليم في لجَّتها، وتراءت له المعرفة بحراً لا

ساحل له، وانخرط في مباراةٍ للسباحة الحرَّة. إنَّه هاوٍ لهذا النوعِ من الرياضة، هواية تأخذ عليه جميع حواسه، وينغمس فيها بكل جوانحه، أحبّها منذ صغره، خلال تلك الأمسيات التي كان والده يستغرق بعد العشاء في قراءة كتاب على ضوء فانوسٍ. غُرِس حبُّ الكُتب في أعماق نفسه، وامتدَّت جذوره إلى كيانه كلّه مثل عروق الجسد، أوردته وشرايينه. فحبُّه للكُتب مثل حبّ السكارى للخمر، ولكنَّه كلّما نهل منها زادته صحواً ووعياً بوجوده وبالعالَم من حوله. في غربته كان الكتاب أنيسه وجليسه وحبيبه، تماماً كما وصفه الجاحظ في كتاب «الحيوان».

تشتمل جامعة تكساس في أوستن على عشراتٍ المكتبات العامّة، مكتبة لكلّ كلّيَّة من كلّيّاتها، بل مكتبة لكلّ قسمٍ من أقسامها العلميّة. وهنالك المكتبة المركزيَّة التي احتلتْ برج الجامعة الذي يتألّف من 30 طابقاً. وكلّ طابق يتخصَّص في المطبوعات المتعلّقة بعلمٍ من العلوم أو فنٍّ من الفنون. وكان يتعيَّن على الطلاب الذين يريدون قراءة الكُتب أو استعارتها أن يملأوا بطاقة استعارة الكتاب في الطابق الأرضيّ من المكتبة الذي يسمِّيه الأمريكان الطابق الأوّل، ويسلموها إلى المُناوِل الذي يقرأ رقم الكتاب المطلوب، ويحدّد الطابق الذي يوجد فيه، ويضعه في مصعد صغير يرقى إلى الطابق المطلوب حيث يوجد مكتبيّ آخر يُخرج الكتاب المطلوب من الرفّ ويضعه في المصعد الصغير الذي ينزل مع بطاقة الاستعارة، فيتسلّمه المناول في الطابق الأرضيّ، وينادي على صاحب الطلب، ويسلّمه الكتاب.

لكنَّ هذه الإجراءات لا تنطبق على طلبة الدكتوراه الذين يتمتّعون بامتيازات خاصّة منها أنّهم يحقّ لهم الدخول إلى داخل المكتبة في مختلف طوابقها، للبحث عن الكتاب الذي يريدون، ويُخصَّص لكلّ واحد منهم مقصورة صغيرة في الطابق الذي يشتمل على كُتب تخصُّصه. وتشتمل هذه المقصورة على إضاءة

للقراءة، ورفّين صغيرَين لوضع الكتب، ومجرٌّ يقفل لحفظ أدوات الكتابة وغيرها، وكرسي مريح. والمقصورات ملتصقة بجدران الطابق بجانب النوافذ، فهي بذلك تحيط برفوف الكتب المنصوبة في وسط الطابق من جهة، وتطلّ على مدينة أوستن من جهة أخرى.

وزّع سليم وقته بصورة دقيقة. يحضر الدروس المقرَّرة في قاعات الدرس، وعددها اثنتا عشرة ساعة أسبوعيًّا، ويذهب إلى مطعم الجامعة الرئيس مرّتين أو ثلاثاً في اليوم ليتناول وجبات الطعام. يقف في الطابور وهو يحمل صينيّته، يصل إلى النضد الذي يُعرَض عليه الطعام، يختار ما يشتهي من الأطباق، يدفع الثمن في آخر النضد، يذهب إلى إحدى الطاولات، في زاوية من زوايا نادي الطلبة يؤمّها الطلاب العرب، حيث يتناول طعامه مع مَن وجد منهم في تلك الساعة فيتذاكرون أخبار الوطن، ثمَّ يعود إلى المكتبة. في طريقه قد يتوقّف عند إحدى المظاهرات المناهضة للحرب الفيتناميّة، يستمع قليلاً إلى الخطيب الذي يسوق الحجج ضدَّ هذه الحرب، ثمَّ يواصل طريقه إلى المكتبة.

لاحظ سليم أنَّ المظاهرات ضدَّ الحرب الفيتناميَّة في ساحات الحرم الجامعيّ لم تتوقّف يوماً واحداً، ولكنَّ جميع الطلاب يحضرون الدروس بانتظام. فسأل يوماً أحد زملائه الأمريكان:

ـ لماذا لا يُضرِب الطلاب احتجاجاً على الحرب؟

ضحك الطالب الأمريكيّ وقال:

ـ وهل هم أغبياء؟ يدفعون ثمن الدروس ثمَّ ينقطعون عنها.

وأضاف قائلاً:

ـ المريض لا يضرب عن الصحّة والدواء إلا إذا كانت له نوايا انتحاريّة، والطالب لا يضرب عن المعرفة والتعلّم إلا إذا كان يطلب الجهل. قد يضرب العمّال عن العمل للإضرار بصاحب العمل حتّى

يلبي مطالبهم، أمّا الطلاب فلا يضربون عن المعرفة لأنّهم أصحابها وطلابها.

يجلس سليم في مقصورته في الطابق الثاني عشر من البرج، تحيط به رفوف الكُتُب المحمَّلة بأشهى الثمار، ينهض من مكانه، يسير ببطء بين الرفوف، يرمي نظرةً هنا وهناك، يتطلّع إلى عناوين المجلّدات، تتجاذب عينَيه الأسماء والعناوين، يسمع للحروف أجراساً وللكلمات رنيناً، تمتدُّ يده برفق إلى كتاب متأهّب لعناق الأيدي، متلهف لقبلات العيون، يأخذه، يحمله إلى مقصورته، ولكنّه، وهو في طريقه، يتريث، يتردّد، يتوقّف، ثمَّ يرجع إلى الرف ليستلّ كتاباً آخر، ويعود إلى مقصورته بكتابَين، مثل راقص ماهر لا يكتفي بمراقصة فتاة واحدة، بل يدعو فتاتَيْن في آن واحد إلى حلبة الرقص.

يجلس على كرسيّه أمام منضدته المغطاة ببعض الكُتب والأوراق، يغوص في أعماق كتاب من كتابيه، يشعر بنشوة وهو يلتقط منه اللؤلؤ والمرجان والياقوت، ينظم في فكره قلادة معرفة زاهية الألوان، تتمايل على سلكها حبات حمراء وبيضاء وخضراء، فيحسُّ بشيء ينساب بلطف إلى ضفاف روحه مثل موجة وانية تلقي بنفسها على رمال الشاطئ وتذوب فيها.

تمرُّ الساعات دون أن يشعر بالوقت، فيخلو الطابق من روّاده، غير أنّه لا يدري بما يجري حوله وهو غارق في بحار الكلمات وأمواج الأفكار المتلاطمة. وبغتةً يحسّ بيدٍ رقيقة تحطّ برفق على كتفه اليمنى مثل يمامة بيضاء، ناعمة الملمس، رقيقة الملبس، ناعسة العينَين. يلتفتُ إلى اليمين فلا يرى صاحبة اليد، إنّها تقف خلفه إلى اليسار. يدير عينَيه إلى اليسار فيرى وجهاً مشرقاً بالبسمة، متهلّلاً بالحنان. إنّها سوزان:

ـ أما شبعتَ من كتبكَ؟ أدعوك لتناول فنجان قهوة في المقصف.

كانت سوزان إحدى زميلاته في مادّة النقد الأدبيّ. فعلى الرغم من تخصُّصه في علوم الحياة، فإنّه كان يتابع بعض الدروس في الأدب والنقد. فالنظام الجامعيّ في الولايات المتّحدة مرنٌ منفتحٌ على رغبات الطالب وميوله، إذ له أن يختار ثلث الحصص المقررة في أيِّ اختصاص كان، كالموسيقى، والأدب، والفنِّ التشكيليِّ، وغير ذلك مما يكسبه ثقافة عامّة.

لم يلتفت إلى حُسنها وأنوثتها أوّل الأمر، لكن حصل أمرٌ في الأسبوع الثاني من الفصل غيّر مشاعره تجاهها. طلب الأستاذ أرتشبولد أ. هيل من الطلاب أن يقرأوا قصّة قصيرة لفرانز كافكا بعنوان « في مستوطنة العقاب » ، يظهر فيها ضابط من المستوطنة يشرح لمستكشف زائرٍ كيف تعمل ماكينة ضخمة لإعدام المجرمين، شارك ذلك الضّابط في اختراعها وتركيبها. وتتألّف تلك الماكينة المزودة بالمسامير والسكاكين من ثلاث طبقات. وقد أحضر الضابط أحد المحكوم عليهم بالإعدام لتنفيذ الحُكم فيه ليعطي للمستكشف مثلاً عمليًّا على روعة تلك الماكينة وفاعليّتها. وفيما كان الضابط يشرح للمستكشف روعة أداة الإعدام تلك، نشبت إحدى أسنانها خطأً في جسد الضابط وقطّعته إرباً إرباً بطريقة فظيعة. وسأل الأستاذ عن تأويل القصّة ورمز الماكينة. فحار الطلاب جميعاً في تأويل القصّة، ولم يستطِع أحدٌ منهم أن يتكلّم إلا سوزان التي قالت بكلماتٍ موجزةٍ بليغةٍ، مع ابتسامةٍ رقيقةٍ:

ـ إنَّ الماكينة هي الدولة التي ابتكرها الناس لحفظ الأمن والنظام، ولكنَّهم أحياناً يمسون ضحايا جبروتها أو أخطائها.

فأقرّها الأستاذ هيل على ذلك التأويل.

عندما كان سليم ينظر إليها وهي تتحدّث برقة وذكاء، أُخِذ بمحاسنها، وكأنّه يراها لأوّل مرّة. كانت عيناها الواسعتان معبّرتين وكأنّهما لم تكتفيا بما كانت تنثره شفتاها الحمراوان الممتلئتان من درر منغّمة معطرة متعاقبة، فراحتا تلمعان بالمعاني والإقناع

والإغراء. وكانت خصلات شعرها الطويل الأشقر المتموج تنسدل على كتفيها العريضتين مثل شلال. كانت سوزان تفيض حيوية وشباباً، وبدت له في تلك اللحظة كأنّها تتربع على عرشي الجمال والذكاء في مملكة الشباب.

رأى أنثى لم يرَ مثلها من قبل، وجهاً وقواماً أبدعهما الخالق، ووهبتهما الطبيعة أحلى خطوطها وأروع ألوانها. تنافست السماء والبحر على الوصول إلى عينَيها، فكسبت السماء الرهان في يوم صاف، فسكبت زرقتها فيهما، فحسدها اللازورد على لونهما. وأهدى الياسمين نضارته لهاتين العينَين، فبزغ منهما الفرح. واجتمع السحر كلّه فيهما. وانتحر الورد عشقاً على خدَّيها. وقبّل الشفق الملتهب شفتيها فذاب عليهما. ووهبتها المروجُ سنابلَ من ذهب تنوس على كتفَيها. أمّا شجر البان فقد منحها غصنا غضاً لدناً طويلاً لقامتها. وأهدى الرمّان شكله ولونه لنهديها، فبرزا، فانفلتت أزرار قميصها الأبيض، فبانَ امتدادُ رقبةٍ عاجيّة تحسدها الغزالة عليها. ولها غمازتان على خدَّيها يُظهرهما ابتسامها الدائم وهي تتكلّم، بل حتّى وهي صامتة؛ لأنَّ البسمة ووجهها توأمان منذ الأزل.

دأبت سوزان على انتقاء كلماتها الأنيقة بذوق وعناية، ثمَّ نطقها في لحن سلسبيل من موسيقى صوتها الغنْج العذْب، كأنها ترتّل تعويذة سحريَّة مركّبة من ذكاء القلب، وفصاحة اللسان، وسحر العينَين؛ فتتحوَّل الكلمات إلى قيمة حقيقيّة، ويغدو الاستماع إليها متعة نفسيَّة وفكريَّة، تنتشي الروح خلالها، فتحلّق في أجواء عالية من الخير والحبّ والجمال.

لا بدّ أن سليم كان يحملق في سوزان باندهاش وبمزيج من الإعجاب والشهوة، يفيض من عينَيه وشفتَيه دون أن يدريَ. فعندما التقت عيونهما رمشت عيناها النجلاوان مرتَين، ثمَّ غضّت بصرها، وطأطأت رأسها، وتوهَّجت حمرة الخجل والحياء في خدَّيها. هذا الجواد المنفلت من رباطه في الصحراء العربيّة، هذا

الذي يعيش في صحراء من العواطف الإنسانيّة، يلهث في عروقه الصهيل والنبض اللذيذ ، فينظر إليها مثلما ينظر الجائع إلى وليمة زاهية الألوان، زكيّة الروائح، فيسيل لعابه بلا إرادة منه.

كيف لم أرَها من قبل؟ أو بالأحرى كيف لم أكتشف حُسنها الفتّان؟ وأنا ألتقيها في هذا المقرَّر ثلاث مرّات في الأسبوع. لا شكَّ في أنَّ إقبالي على الدرس بكلِّ حواسي هو السبب في ذلك. تلك هي المرَّة الأولى التي تجذبني مفاتنها الخلابة، فتضطرب نفسي، وأحسّ برعشة تسري في جسدي. أيعود ذلك إلى ما أفصحتْ عنه من فطنة فكر وبراعة تعبير؟ وهل تضفي روعة المنطق رداء الحُسن على المرء، أم إنَّها عامل يساعد على إظهاره؟ وهل نستطيع أن نبدي تجاه تمثال صامت أكثر من الإعجاب ببراعة النحّات؟.

منذ ذلك اليوم أخذ سليم ينتظر بشوق ولهفة درسَ النقد الأدبيّ أيام الاثنين والأربعاء والجمعة. كما يتلهف لدرس علم اللغة النفسي الذي يجمعه كذلك بسوزان، ويتطلّع إلى تحيَّتها، عندما يلتقيان، وبدا له أو توهَّم أنَّ تحيَّتها قد تغيّرت، وازدادت حرارة. ربّما لم تتبدَّل تحيَّتها، وما تبدل هو إحساسه بتلك التحية أو تشوّفه إليها. لا يمكن في الحقيقة أن تعرف مدى الحرارة في تحية الأمريكيّين، خاصَّة الطلاب منهم. فهم لا يصافحون بالأيدي عندما يلتقي بعضهم بعضاً، ولا يطيلون السؤال عن الصحَّة والعافية وعن الأهل والعيال. كلُّ ما يقوله الواحد في تكساس كلمة تحيّة واحدة هي «هاودي» وهي اختصار لعبارة «كيف الحال؟» بالإنكليزيّة، فيجيب الآخر: «هاودي».وفي تكساس يتبادل الناس هذه التحية المختصرة إذا التقت عيونهم حتّى لو لم يعرف بعضهم بعضاً. وينطقونها بالواو المفتوحة أو المخففة حتّى تبدو لمن يسمعها « هادي». ويروي بعض الطلبة العرب نكتةً عن شاب عربيٍّ اسمه هادي جاء إلى تكساس للدراسة في إحدى جامعاتها. وكان من شدَّة غربته في الأيام الأولى بعد وصوله يتطلّع إلى وجه

كلِّ مَن يلتقيه سائراً في الطريق، مثل كلب أضاع صاحبه. فكان الأُمريكيّون يقولون له « هادي »، فتعجَّب كيف عرفوا اسمه وهو لم يلتقِ بهم من قبل. وقد يختصر بعضهم هذه الكلمة المختصرة بكلمة «هاي» وجوابها «هاي» كذلك. إنَّهم في شغل دائم ولا وقت لديهم لسرد أسئلةٍ عن الصحَّة والأحوال والعيال. المهمّ ما ينتجه الفرد في عمله. والفعل مغلَّب على القول. وما يعنيهم هو الوصول إلى نتيجةٍ إيجابيَّةٍ بأقصر الطرق وأقلِّها تكلفة. وهذا ما يطلق عليه الروح العمليّة في الشعب الأمريكيِّ أو « البراغماتية ».

45

بعد أُسبوعَين من بداية الفصل الدراسيِّ الأوَّل، دعا الأستاذ جون بوردي، أستاذ علم اللغة النفسيِّ، طلابه لتمضية نهار يوم الأحد ـ عطلة نهاية الأسبوع ـ في مزرعته التي تبعد حوالي عشرين ميلاً عن مدينة أوستن، ولتناول طعام الغداء معه وأسرته. وقد نظم الطلبة أمر انتقالهم إلى المزرعة بحيث يتولَّى مَن يملك سيَّارة، نقلَ من ليس له سيّارة. وكان معظم الطلبة الأمريكيّين يملكون سيّاراتهم الخاصّة. وإذ ذاك التفتت سوزان إلى سليم وطالبة إندونيسيّة اسمها فاطمة وطالب هندي اسمه كرشنا قائلة لهم: « يسعدني أن أصطحبكم معي بسيّارتي ».

في الطريق إلى المزرعة كانت سوزان تشرح لزملائها الأجانب خلفيّات دعوة الأستاذ لطلبته قائلة إنَّ ذلك تقليد في معظم الجامعات الأمريكيَّة العريقة. فالأستاذ يدعو طلبته إلى منزله مرَّة أو مرَّتَين في الفصل الدراسيِّ الواحد وتقوم زوجة الأستاذ بتقديم الشاي والحنان لهم. وأضافت سوزان:

ـ زوجة الأستاذ بوردي محامية وعضو في مجلس نواب الولاية، والمحامون الناجحون يحصلون على كثير من الأموال، ولهذا فالأستاذ بوردي وزوجته من أثرياء المدينة وهذا يفسّر امتلاكهم

مزرعة معتبرة خارج المدينة، فدخلُ الأستاذ الجامعي قليل جداً إذا ما قورن بدخل أصحاب المهن الآخرين كالطبيب والمحامي والمهندس.

قال كريشنا:

ـ ولكن معظم الأساتذة يمتلكون سيّارات فاخرةً ويسكنون في منازل (فلل) وليس في شقق.

قالت سوزان:

ـ ذلك عائد للنظام المالي المتّبع في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. فعندما تحصل على وظيفة، تأخذ الشركات بالاتّصال بك لتبيعك الدار، والأثاث، والسيّارة، وأيَّ شيء تحتاج إليه، بالتقسيط، أي دون أن تدفع الثمن في الحال. طبعاً ستدفع ثمن السلعة مضاعفاً خلال سنوات طويلة، بسبب الفوائد البنكيّة التي يجنيها أصحاب رؤوس الأموال. وبعبارة أخرى، أنّك تعمل وتدفع أكثر من نصف دخلك لأصحاب رؤوس الأموال والبنوك وشركات التأمين، وهؤلاء تعفيهم الحكومة من الضرائب، بحجّة تشجيعها لهم للتوسُّع في مشاريعهم التجاريّة ما يؤدّي إلى إحداث مناصب شغل جديدة. وهذا يعني، إذا كنتَ ذا دخل متوسط فأنّك تدفع ضرائبَ كبيرة، أمّا إذا كنت من أصحاب الملايين والشركات ورؤوس الأموال، فإنّك لا تدفع إلا القليل جداً. هذه هي روح النظام الرأسماليّ.

لا يقتصر اتّصال الأستاذ بالطالب خارج قاعة الدرس بالمناسبات الاجتماعيّة فقط، بل قد يراسل الأستاذ الطالب الذي يتغيّب مرّتين متتاليتَين لمعرفة الأسباب وتقديم المساعدة اللازمة، إضافة إلى أنَّ كلَّ أستاذٍ يلتزم بالتواجد في مكتبه ثلاث مرّات في الأسبوع، حوالي ثلاث ساعات على الأقل، لاستقبال الطلاب الذين لهم أن يطلبوا مساعدته عند مواجهتهم أيّة صعوبة في فهم الدروس أو لتوجيههم في أبحاثهم العلميّة، وتسمّى هذه الأوقات بالساعات المكتبيّة للأستاذ، ويوجد إعلان صغير على باب مكتب كلّ أستاذ

يبيِّن مواعيد تلك الساعات المكتبيَّة. ويرمي ذلك كلّه إلى توثيق الصلة الإنسانيَّة والمعرفيَّة بين الأستاذ والطالب، لتزداد معرفة الأستاذ بطلابه، وميولهم، وقابلياتهم، وقدراتهم الفكريَّة، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، لصالحهم وصالح المجتمع.

عندما وصل الطلاب إلى مدخل المزرعة وجدوا الدكتور بوردي وزوجته في انتظارهم هناك. وفيما كان الدكتور بوردي يهمُّ بتقديم الطلاب لزوجته، أقبلت ابنته الصبيّة سيلفيا وهي تمتطي جوادها المسمَّى « سويفتي»، وقفزت بنشاطٍ من السرج إلى الأرض، وأخذت تشارك أمّها في مصافحة الطلابٌ والترحيب بهم، وعرّف الأستاذ بوردي جميع الطلاب بزوجته السيدة هيلين وابنته الشابة سيلفيا. وكانت السيدة هيلين تعمل محامية في مدينة أوستن، وتسعى لترشيح نفسها لفترة جديدة عن الحزب الديمقراطي لانتخابات مجلس النواب في ولاية تكساس. أما ابنتهما سيلفيا فقد كانت تدرس في المدرسة الثانوية.

انصرفت سيلفيا بعد أن رحَّبت مع والديها بالطلّاب إلى ركوب جوادها والجري في أرجاء المزرعة الفسيحة، وعلّق والداها بلهجة اعتذار، وهما يقودان الطلاب إلى باحةٍ أمام منزل المزرعة حيث وُضِعت بعض الكراسي والصفّات لجلوس الطلاب:

ـ تمرّن سيلفيا جوادها لئلا يترهل، فهي منهمكة في مدرستها الثانويّة خلال بقية أيام الأسبوع، ولا تجد فرصةً إلا يوم العطلة الأسبوعيَّة لتمتطيه.

كان الدكتور بوردي قد أعدّ، قبل وصول الطلاب، أدوات الشواء وأنواع اللحوم اللازمة لإعداد وجبة المشويّات التكساسيّة، وهي وجبة مشهورة في تكساس تتألّف من قِطَع سميكة من لحم البقر تُشوى على الفحم وإلى جانبها بعض السجق الغليظ الطويل، ويوضع اللحم المشويّ في قطعة من الخبز ويضاف إليه شيءٌ من صلصة الطماطم والخردل. ولا شكّ في أنَّ هذه الأكلة شائعة في

ولاية تكساس، لأنَّ هذه الولاية معروفة بكثرة قطعان الأبقار ورعاة البقر الأشداء. وكانت قناني المشروبات الغازيَّة، خاصَّةً الكوكاكولا، قد وضعت على نضدٍ بالقرب من الموائد. وقد أبدى الطلاب الأمريكيُّون حرصا على أن يخدموا أنفسهم بأنفسهم ويقلِّلوا العبء على الأستاذ بوردي وزوجته، بل ويقدِّموا المساعدة اللازمة.

سرعان ما عادت سيلفيا للمشاركة في إعداد طعام الغداء، وبقي حصانها واقفاً ينظر إليها دون أن يغادر مكانه.

قال الدكتور بوردي، وهو يحمل بيده الكير لنفخ النار في الشوّاية، موجِّهاً كلامه إلى سليم:

ـ بالمناسبة، يا سليم، إنَّ فرس سيلفيا جواد عربي أصيل.

فسأل سليم بأدب :

ـ ولماذا اخترتم هذا النوع، فهو نادر في الولايات المتَّحدة.

ـ هذا صحيح، لكنَّ هذا النوع يمتاز بذكائه، وأخلاقه الحميدة، وإخلاصه.

قال سليم مازحاً :

ـ إنَّها صفات العرب عموما.

فضحك الطلاب وقالوا :

ـ Propoganda, Propoganda , دعاية ، دعاية.

قال سليم متسائلاً :

ـ ولماذا لم تقتنوا جواداً أمريكيًّا من نوع (موستانغ)، فقد حصل لي الانطباع بأنّه قويٌّ وسريعٌ، من سيّارات فورد الأمريكيّة التي تصلنا ويحمل بعضها اسم موستانغ وصورةً لهذا الجواد.

ـ إنَّ خيول الموستانغ من أصول عربيَّة وأندلسيَّة وبربريَّة، فقد

حملها المهاجرون الإسبان معهم إلى أمريكا في القرن السادس عشر، ولكنَّ هذه الخيول لم تحتفظ بنقاوة الأصل لأنّ معظمها صار طليقاً في البراري بعد دخولها البرّ الأمريكي. أمّا جواد سيلفيا فهو عربيٌّ أصيل.

ـ وكيف حصلتم عليه؟.

ـ كنا نمضي عطلة على الشواطئ الجنوبية في إسبانيا، ونزور الآثار الأندلسيَّة قبل سنتَين. وحضرنا ذات يوم عرضاً للخيول العربيَّة الأصيلة في مزرعةٍ قرب مدينة ملقا، متخصِّصة في تربية الخيول العربيّة وبيعها، وأعجبنا بهذا الجواد فاشتريناه، وأرسلوه إلينا بالباخرة.

كان الجواد ما زال في مكانه وهو ينظر صوب سيلفيا والرسن على رقبته، ويهزّ رأسه هزات عمودية متتالية كأنَّه يدعوها إلى مزيد من الركوب واللعب.

نهضت سوزان وتوجَّهت إلى سيلفيا وتبادلت معها بضع كلمات أعقبتها ابتسامات حلوة متبادلة بينهما، ثمَّ سارتا نحو الجواد، ووضعتا يديهما على رقبته برفق. وخلعت سيلفيا خوذتها ووضعتها على رأس سوزان. وراحت سوزان تكلّم الجواد وتمسِّد رقبته بكفِّها. ثمَّ تحوَّلت إلى تمرير أناملها على جبهته ووضع خدها على خده لبعض الوقت. وبعد ذلك أخرجت من حقيبتها قطعة شوكولاتة، أزالت غلافها الورقي، ودستها في فمه. وبحركة رشيقة، تناولت الرسن بيدها اليسرى وأمسكت رأس السرج بها، ويدها اليمنى على مؤخَّر السرج، وأدخلت قدمها اليسرى داخل الرِّكاب، وبقفزةٍ رشيقةٍ رائعة، ارتفعت ساقها اليمنى الطويلة الرشيقة من على فوق السرج ليستقر جسمها منتصباً على الجواد كأميرة. وسارت به قليلاً ثمَّ خبّ الجواد، وبعدها جرى بأقصى سرعته متَّجها إلى الطرف البعيد من المزرعة. وكانت عينا سليم مثبَّتتَين على سوزان. وعندما غابت عن عينيه تمثَّلت له في قلبه.

46

كان أبي فارساً مشهوراً في قريتنا، ويمتلك عدداً من الخيول الأصيلة. وفي حين كانت حظيرة الخيل في المزرعة، كان حصانه المفضّل «المحجَّل» يأوي إلى إسطبل بالقرب من منزلنا. وكنتُ في بعض الأمسيات، وأنا مستلقٍ في فراشي، أحسُّ بأبي يغادر غرفته، فأعرف أنّه ذاهب إلى الإسطبل للاطمئنان على جواده الأدهم، وكلبه السلوقيّ، وصقره الأشهب المدلَّل. كان أبي يقول لي :

ـ الخيل كالرجال تتباين في أخلاقها وعاداتها، منها الكريم ومنها اللئيم، وقد اخترت المحجّل لأنّه جمع بين قوة الصفات الجسدية ورائع السمات الخُلُقية.

لا أذكر متى بدأتُ ركوب الخيل، فمنذ أن وعيتُ وأبي يحتضنني وهو على صهوة جواده، ويتنزّه بي على ضفة النهر، أو يصطحبني معه في رحلات الصيد التي يقوم بها بين آونةٍ وأخرى. وعندما كنتُ في المدرسة الابتدائيّة، عهد إليَّ والدي بإيراد الخيول مرَّتيْن في اليوم، قبل أن أذهب إلى المدرسة في الصباح وبعد أن أعود منها عصراً. كنتُ أركب أحدها وأسير نحو النهر وبقية الخيول تتبعني، وأنتظرها حتّى ترتوي من الماء فأعود بها إلى حظيرتها. فصار الجواد قريباً إلى نفسي، حتّى إنّني لم أفكّر به يوماً بوصفه حيواناً بل فردًا من أفراد الأسرة والعشيرة.

عندما أقبلت سوزان عائدةً وهي على صهوة ذلك الجواد العربي بدتْ لسليم فارسةً عربيةً، وتراءت له خوذتها مثل تاجين على رأسها: تاج الجمال وتاج الحكمة في آن واحد. فخطرت بباله زنوبيا ملكة تدمر، وأليسا ملكة قرطاج، وخولة بنت الأزور، ثمّ رآها أقرب ما تكون إلى الجازية الهلالية أميرة الجمال والحرب والحكمة، الجازية الهلالية، ابنة الكاهنة الشماء ونظيرة أبي زيد الهلالي، التي

وصفتها السيرة الهلاليّة بأنّها « **جميلة المنظر، لطيفة المحضر، بديعة الجمال، عديمة المثال، في الحُسن والكمال، والقد والاعتدال، وفصاحة المقال** ». وود في تلك اللحظة التي كان ينظر فيها إلى سوزان وهي تمتطي جواد سيلفيا، لو أنَّ هنالك جواداً آخر ليمتطيه إلى جانبها ويريها فروسيَّته ورجولته.

كان أبو سليم يحتفظ بجواده الأدهم وكلبه السلوقي وصقره الأشهب المدلّل في حظيرةٍ واحدةٍ في الأسطبل، ليعتادوا على رؤية بعضهم بعضاً، وتزداد الألفة بينهم. فالتنسيق بين الثلاثة ضروريّ في عمليّة الصيد.

كان أبي يصطحبني معه في رحلات الصيد في بادية السماوة حيث ينصب خيمته مع رفاقه ومعهم عدّة الطعام والقهوة، ويخرجون مع الصباح الباكر إلى البادية بحثاً عن الظباء. يمتطي صهوة جواده الأدهم، وعلى كتفه اليسرى يستقر صقره الأشهب المدلّل وقد غُطيت عيناه بالبرقع، و كلبه السلوقي النجيب يسير إلى جانب الفرس وهو ينظر بين الفينة والفينة إلى الصقر، وكأنَّه ينتظر شيئاً. كان شكل هذا الكلب يعجبني كثيراً في صغري، فقد كان جميل المنظر، له فكان طويلتان، وأذنان متدليتان، وعنق طويل، وجسم رشيق، وصدر عميق، ويتّسم بخفّة الحركة وسرعة فائقة في العدو، وطول نفس. وقد أخبرني أبي أنَّ أصل هذا النوع من الكلاب هو الذئب، وأنه يُنسَب إلى بلدة سلوق في اليمن، وأن تربية الكلاب مكروهة في الإسلام ما عدا كلاب الحراسة، وكلاب الرعي، وكلاب الصيد.

بعد فترة قصيرة من سير الرَّكب في البادية، لا بقصد متعة الركوب فقط وإنّما كذلك لتسخين الجواد والكلب تمهيدا للعدو، يمدّ أبي يده اليمنى إلى الصقر، يأخذه بلطف، يرفع البرقع من عينيه، يمرِّر أصابعه على جناحَيه بعض الوقت كأنّه يسخّنه، يقرِّبه من فمه كأنّه يقبّله، ثمَّ يطلقه في الهواء. يحلّق الصقر عالياً في

الفضاء يبحث عن فريسة. وحالما يأخذ في الحوم حول بقعة ما، ينطلق السلوقي النجيب والجواد الأدهم في اتّجاهها. وإذا كان الظبي يجري بسرعة، يضطر الصقر الأشهب المدلل، إلى الإسفاف مرّة أو أكثر، ليرفرف بجانحيه بالقرب من ناظري الظبي لعرقلته وتأخيره، وذلك مساعدةً للسلوقي النجيب لكي يصل إليه بأقلّ جهد. وعندما يصل السلوقي إلى الظبي لا يعتدي عليه ولا يقتله، فقد درّبه أبي على الإمساك برجل الظبي الأماميّة فقط لعرقلته. وفي أكثر الأحيان يصل الجواد الأدهم والسلوقي النجيب إلى الظبي في وقتٍ واحد. وعلى الرغم من أنَّ أبي كان يحمل بندقيته على كتفه اليسرى، فإنّه لا يطلق النار على طريدته مطلقا، لأنّه كان يروم القبض عليها حيّة، وحملها سالمةً خلفه بعد ربط قوائمها. فمتعته أن يضعها في حديقة المنزل الخلفيّة مع الأخريات من الظباء.

عندما عادوا من مزرعة الأستاذ بوردي ذلك المساء بسيّارة سوزان إلى شارع غوادالوب المحاذي للجامعة، نزلت الطالبة الإندونيسية فاطمة والطالب الهندي كرشنا، وسليم. ولكن سوزان وجّهت كلامها إلى سليم سائلةً:

ـ سليم، هل ستذهب إلى المكتبة؟

ـ لا، سأسير إلى شقّتي.

ـ إذن اركب سأقلّك معي، لأنّني عائدة إلى المنزل وسأمرّ من هناك.

وفيما كانا في السيّارة في طريقهما إلى حيث يسكنان، قالت سوزان:

ـ سليم، أودُّ أن أدعوك لمرافقتي إلى محاضرةٍ عامّة مساء يوم الأربعاء القادم في قاعة المجلس البلدي.

ـ مَن المحاضر وما موضوعها :

ـ البرفسور روبنشتاين، سيتحدّث عن مشكلة الشرق الأوسط.

قال سليم :

ـ لا، شكراً

ـ لماذا ؟

ـ لأنّني أعرف سلفاً ما يقوله هؤلاء الأساتذة الأمريكيّون اليهود.

قالت سوزان باسمة:

ـ ستفاجأ بما سيقوله هذا الأستاذ. إنّه مختلف تماماً. أودّ أن تكون معي في المحاضرة، لأنّني لا بدّ أن أحضرها. رجاءً.

ـ طيّب، سوزان، سأحضرها من أجلك.

إذن سآتي إلى شقّتكَ الساعة السابعة مساء الأربعاء لأصطحبك بالسيارة إلى قاعة المجلس البلدي.

ـ شكراً.

47

لم يفعل سليم شيئاً ليعرب لسوزان عن إعجابه بها. كان يحسُّ بالعاطفة النبيلة التي تبديها سوزان نحوه. فإشاراتها المتكرِّرة واضحة؛ إنّها تحاول أن تبني جسورَ صداقةٍ بينهما، ولكنَّ الخندق الذي يفصلهما واسع وعميق. كان يقول في نفسه إنّه لم يأتِ إلى هنا ليضيِّع وقته في صداقات لا طائل منها، وإنّما جاء ليتعلّم شيئاً نافعاً يعود به إلى بلده. لم يكُن يفكّر كالطلاب الأمريكيّين. فالصداقة بين الطالب والطالبة في الجامعة أصبحت مكوِّناً من مكوِّنات ثقافتهم، شيئاً طبيعيًّا يمارسه الفتى والفتاة، والحرم الجامعي هو المكان المناسب لعقد هذه العلاقات. أمّا هو فلا ينتمي إلى هذه الثقافة، ولا يتقبَّل أنماط سلوكها بسهولة. فقلبه بقي في الضفة الأخرى، ويقبع في لبه وفكره أملٌ وحيدٌ تواقٌ إلى العودة إلى الوطن، عندما تتغيَّر الأوضاع السياسيَّة.

كان سليم يرى أنَّ الصداقة بين الفتى والفتاة شيءٌ جميلٌ، غير أنَّه لا بُدَّ أن ينتهي الحبُّ بالزواج، فطالما حسبَ أنَّ الحبَّ والزواج والجنس هي وجوه ثلاثة لكيانٍ واحد، ولم يستطع أن يفصل بينها. كان سليم تقليديًّا في مجتمعٍ تحرَّر من تلك التقاليد، أو على الأقل تحرَّر معظمه من كثيرٍ من تلك التقاليد، خاصَّةً في الأحياء الجامعيّة الأمريكيّة، إبّان الحرب الفيتناميّة وما رافقها من حركة تحرّر المرأة. أمّا هو فما زالت معركة تدور في ساحة وجدانه بين منطق عقلانيّ ورغبة غريزية تدعوه لتلبية حاجاتٍ آنيّة فعليّة.

إنَّ صداقته المفترضة مع سوزان حلمٌ جميلٌ، بيدَ أنَّ أحلامه معدمة بلا مأوى، ولا يريد أن يزيدها حُلماً معدماً آخر. فهو لا يبتغي الاقتران بسوزان على الرغم من جمالها الطاغي، وثقافتها الواسعة، وخُلُقها الرفيع؛ لأنَّه يخشى الزواج المختلط. فقد اطّلع في بلده على زيجاتٍ مختلطةٍ كثيرةٍ انتهت بالفشل، وخلّفت اللوعة والمرارة. كم منْ إنكليزيَّةٍ أو أمريكيَّةٍ عادت بأطفالها إلى بلادها، وظلَّ الزوج العربيّ في حسرةٍ وألمٍ وشوقٍ لرؤية أطفاله. كان سليم يعتقد دائماً بضرورة أن يتزوّج العربيّ من عربيّة مثله، تقاسمه الثقافة نفسها، بطرائق تفكيرها، ومُثلها، وقِيمها، وتقاليدها، وعاداتها.

لا ينوي الزواج من سوزان ولا من أيَّة أمريكيَّةٍ أُخرى، فلماذا، إذن، ينثر بذور صداقة لا يريد جني ثمارها؟ كان يريد أن تبقى علاقتهما في إطار الفصل والدرس. أليس في ذلك شيء من الأنانيَّة، أو الغباء؟ كان يريد أن يظلّ بعيداً مستقلاً، ولكنَّ نظرتها إليه كانت كالبندقية، تصوِّب رصاصتها إلى قلبه مباشرةً، فيشعر باضطرابٍ وارتعاشٍ لذيذَين. كان يفكّر فيها حين يأوي إلى فراشه. وتأخذ صورتها تزاحم صورة وداد التي كان يتذكّرها في وحدته، كلّما خلا بنفسه قبيل النوم، وأطلق العنان لرؤاه.

راح يتساءل في نفسه ما إذا كانت سوزان تبادله شيئاً من مشاعره، أم أنَّ ما يحسُّ به مجرّد حُلمٍ آخر من أحلامه التي تمرُّ

مثل عابر سبيل، ولا تخلّف إلا صدىً في الروح يؤلمه. ذات ليلة لم يستطع النوم. ظلّ يفكّر فيها طويلا ، يحلّل وضعه وإمكاناته المادية المحدودة، مقارنةً بهذه الأمريكيّة المترفة. نعم مترفة، فقد كانت سيّارتها من تلك السيارات الفاخرة من آخر طراز، وأنتَ تعرف غنى الطالب الأمريكيّ ومكانته الاجتماعية من نوع سيارته لا من ملابسه، فالأغلبية الساحقة من الطلاب في الحرم الجامعي في تكساس يرتدون القميص والسروال البلوجينز. أمّا هو فلا يملك حتّى دراجة، بل يسير على قدمَيه أكثر من نصف ساعة ليصل إلى شقته الصغيرة الرخيصة التي تتألّف من غرفةٍ واحدةٍ فقط. إنّه لا يتمتّع بمنحة دراسيّة من تلك المنح التي تهبها بلاده لكثير من الأغنياء من ذوي الواسطة، أو من الانتهازيين الذي انضموا إلى حزب الحكومة. وشعار تلك الحكومة هو «الإخلاص قبل الكفاءة». والمقصود بالإخلاص هنا ليس الإخلاص للوطن، وإنّما لقائد الحزب أو بالأحرى للزعيم الأوحد المستبدّ. أمّا هو فلا يتوافر فيه هذا النوع من الإخلاص، بل على العكس لا يستطيع السكوت على المنكر، فأمسى طريداً شريداً، وجاء إلى هذه البلاد للنجاة بنفسه وللدراسة، وقد تكلّف أهله فوق طاقتهم في سبيل ذلك. ولهذا فإنّه مضطرّ للعمل أثناء الدراسة وفي العطلة الصيفيّة، لتوفير جزء من النفقات الضروريّة لئلا يُثقِل على أهله.

في تلك الليلة أضرم الهمُّ نيرانَه في الضلوع، وغشيه صليل الحنين، واعتصره الشوق، وازدحمت على فراشه الذكريات، واختلطت عليه الرؤى. رأى قلبه ينعكس على مرآة وهو متسارعُ النبض، ثمَّ تتهشم تلك المرآة وتتشظّى فيتوزّع قلبُه على أهل قريته، وأسرته، وأبوه، وأمّه، وإخوته، وأخيه الكبير أحمد الذي استشهد في معركة جنين في فلسطين، وزميلته وداد التي ماتت في انفجار حصل في الحمام قبيل التخرّج بأيام، وصديقه زكي الذي اغتالوه في شارع الحمراء في بيروت، وأهالي قرية دير ياسين في فلسطين الذين داهمتهم عصابات الصهاينة في الفجر،

وراح يسمع صراخ الأطفال المرعوبين في تلك القرية، ويرى دماء الشيوخ والنساء عندما أطلق الصهاينة الرصاص عليهم، وأشجاه أنينهم وهم يجأرون بالدعاء. كم تمنّى أن تكون تلك الذكريات الأليمة محنَّطة في مقبرة الماضي، ولكنّها بقيت نابضة بالحياة، كنارٍ ملتهبةٍ قد يخبو لهيبها بعض الوقت، ولكن يبقى جمرها تحتَ الرماد، وما إن تهبّ رياح الحنين في نفسه حتّى يتأجّج ذلك الجمر ويحرق قلبه.

لا أدري كيف نهضتُ من فراشي، وجلستُ إلى مكتبي لأكتب. كنتُ ألجأ دائما إلى الخيال، ألوذ بأذياله الواهية، أحتمي به في محاولةٍ لرفض الواقع المرّ وعدم تجرُّعه، للتمرُّد ضدَّ الحياة القاسية، في محاولة لفكّ العزلة التي تحاصرني بضراوة، للتصالح مع نفسي. كنتُ أخشى أن تُذهِب العزلةُ عقلي، فأستنجد بالكتابة. استبدل حصناً وهميًّا بالعالم المحسوس، وأخلق كائنات خيالية نبيلة عوضاً عن المخلوقات البائسة التي تحيط بي. وهكذا أخلق عالمي الوهميّ بالحرف، بالكلمة، بالعبارة؛ أبني ذلك العالم كما أبني لغتي، وأعيش حياتي المتخيَّلة كما أعيش أحلامي. أفضّلها على مقاس آلامي. تُرى هل خلقتُكِ أنتِ، يا سوزان، في خيالي، وبنيتُ لكِ صرحاً في ذهني وقلبي؟! وماذا عن وطني؟.

يا وطني المستحيل! إنّي أفتّش عنك منذ سنين، بين ركام الذكريات، وأبحث عنك في فضاءات الأوجاع، والأحزان، والفجائع، والمذابح، والمقابر الجماعية. أتسقَّطُ أخبارك في النسيم القادم من الشرق، لعلّي أشمُّ روائحك، يا وطني الجريح، فلا يصلني إلا صدى أنينك، وأنتَ تحت سكاكين العتاة والطغاة والغزاة، يا وطني الذبيح. أتوسل إليك، يا وطني المستحيل، خذني إليك مرّةً، ضمّني إليك ضمَّة، وسأطرّز ترابك بالياقوت، وأضفر جدائل نخيلك بخيوط التبر، وأسقيها بدموعي ودماء شريان القلب. أتسمعني، يا وطني البعيد، يا وطني المستحيل؟ ها أنا ذا أعيد بناءك كلّ يوم بحروفي، وأشيّد منائرك من كلماتي، وأحفر سواقيك المندثرة بعباراتي.

في تلك الليلة تحوّل الشعور بالغربة الذي ينوء به قلبي إلى صداع يمزّق رأسي، وحمّى تلهب جسدي. لا بدَّ لي من أخذ الدواء المعتاد. فتحتُ حقيبتي، أخرجتُ شال أمّي، وضعتُه على وجهي وأنا مستلقٍ على السرير، شممتُ رائحة الحناء المنبعثة منه، تغرغرت باسمك يا أمّي سبع مرّات، تعوَّذت بذكرك كصوفيٍّ في خلوة، وأغمضتُ عينَيّ على صورتك الحبيبة. وانتظرتُ، ليغادرني الصداع وأفتكّ من الحمى... ولكن حالما لامست أطراف شال أمّي جفوني، أخذتِ الألوان تتكشف أمام بصيرتي لأرى أمّي وهي تجلس في باحة المنزل في ظلّ نخلتنا الباسقة وإلى جانبها أختي الصغرى، سليمة، وقد وُضِعت صينيّة الشاي والحلوى أمامهما، ولكنَّ يد أمّي لا تمتدّ إلى الحلوى، وتظلّ تلحف في السؤال عنّي، وأختي الصغرى تحاول تارةً أن تطمئنها عليّ، وتارةً تحاول أن تغيّر الموضوع. كنتُ أراهما قريبتَين منّي تماما على بعد خطوة، وتكاد يدي تلامس خدَّ أمّي لتمسح دمعة انحدرت من عينيْها. تقول لها أختي: لا تبكي يا أمي، ستتغيَّر الأحوال قريباً. لا تجزعي يا أمّي، سيعود أخي سليم سالماً غانماً. فما من شدّة إلا ويأتي بعدها الفرج. تجيب أمّي : يقول أبوك إنَّ الأحوال تسوء في البلاد. وأخشى أن أموت دون أن أرى سليم. تجيبها سليمة : عمرك طويل، يا ماما، إنْ شاء الله.

48

في صباح اليوم التالي، شعرَ سليم بإرهاقٍ شديدٍ وبشيءٍ من الحمّى، فلم يستطِع الذهاب إلى الجامعة، وظلّ ممدداً في فراشه، وتخلّف عن الدرس رغما عنه. ولكنَّ فكره كان يحوم حول قاعة الدرس مثل حمامة انقضَّ غرباء على عشّها فحرموها من الوصول إلى بيضها. ظلّ يقول في نفسه: في هذه اللحظة دخل الطلاب إلى الفصل، وفي هذه اللحظة وصل الأستاذ، والآن تلا قائمة أسماء الطلاب وسجّل الغيّاب. لا بدّ أنَّ الأستاذ عجب لغيابه فهو مواظب

حريص على الحضور. وفي هذه اللحظة طلبَ الأستاذ منهم أن يجيبوا تحريرياً على سؤال قصير أو سؤالين ليتأكَّد أنَّهم قرأوا القصص أو الدراسات التي أشار عليهم بقراءتها ذلك الأسبوع. والآن أخذ يناقش المادّة المقرَّرة مع الطلاب. ثمَّ تراءى له الطلابُ وهم يخرجون من الفصل فيذهب بعضهم إلى فصل آخر، وبعضهم إلى المكتبة، وبعضهم إلى مقصف الجامعة، وتراءت له سوزان وهي تمتطي سيّارتها الفاخرة.

رنّ جرس الهاتف في غرفته، تناول السماعة، تناهى إليه صوت سوزان. شعر بنوعٍ من الدهشة الممزوجة بالفرح :

ـ هلو، سليم ؟ لماذا لم تحضر الدرس اليوم؟ هل أنتَ مريض؟

ـ لا، مجرَّد إرهاق، شكراً لسؤالك ، سوزان.

ـ يجب أن تذهب إلى الطبيب..

ـ لا داعي لذلك.

ـ لا بُدَّ أنَّك مريض حقًّا للتغيب عن الدرس، فأنا أعرف حرصكَ على الحضور وولعك في تلقّي المعرفة. أنا قادمةٌ إليك.

وصلت سوزان وطلبت منه الذهاب معها إلى الطبيب حالاً. أخبرها أنَّه ليس مريضاً أبداً، بل ينتابه شيءٌ من ضيق النفس. قالت ضاحكة :

ـ طيِّب سأرقص لك قليلا. هل سيخفِّف هذا من ضيق النفس الذي تعانيه؟

خشي سليم أن يهدر شيئاً من المال من غير ضرورة، فهو يعرف علّته. ولا حاجة له بطبيب. ولكنَّ سوزان شرحتْ له وهي تقود سيّارتها، أنَّ الجامعة تتوفر على مستوصف يقدِّم المشورة الطبيّة والعلاج مجاناً للطلاب، وإذا اقتضى الأمر دخولهم المستشفى، فإنَّ شركة التأمين هي التي تتكفَّل بنفقات الاستشفاء ، لأنَّ ثمن التأمين الصحيّ للطلاب من ضمن أجور التسجيل في الجامعة.

في حقيقة الأمر لم يكُن بحاجة إلى طبيب بعد وصول سوزان. فقد أجابت بمجيئها إليه على كثيرٍ من الأسئلة التي أرَّقته الليلة البارحة. لقد أصبحَ من شبه المؤكد اهتمامها به. ولكن هذا الاهتمام أثار أسئلةً من نوعٍ آخر. في تلك الليلة، كتب سليم في دفتر مذكّراته يقول :

« أظنُّ أنَّ هناك مَن يريد أن يسيطر على عقلي وقلبي. أظنُّ أنّني أقع في الشرك المخبوء بين النظرات. فهل أستطيع الإفلات من هذه المصيدة؟ هل يتمكن عقلي من توجيه قلبي إلى حيث يجب أن يتّجه؟».

49

فرحَ سليم عندما وصله من أحد إخوته طردٌ بريديٌّ يضمُّ مجموعةً كبيرةً من علب التمر المحشو باللوز والفستق. وحمل علبةً من التمر وقدَّمها لأستاذه جون بوردي تعبيراً عن شكره لهذا الأستاذ الذي كان قد دعا جميع طلاب فصله لقضاء نهار الأحد في مزرعته خارج أوستن وتناوُل طعام الغداء معه ومع عائلته. وهذا تقليدٌ جامعي يحافظ عليه كثير من الأساتذة. فالأستاذ يسعى لعقد صداقةٍ مع طلابه، والالتقاء بهم في مناسباتٍ اجتماعية، ومساعدتهم على حلِّ مشاكلهم العلميّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّ الأستاذ يتساهل مع صديقه الطالب في قضايا الحضور والغياب أو في نتائج الامتحانات. فالطالب يفقد حقّه في حضور الامتحان الخاصِّ بذلك المقرَّر، إذا تغيَّب ثلاث مرات في الفصل الواحد، كما يتحتم على طلبةِ الدراسات العليا الحصول على درجة ب أو ما يعادل 80% في كلِّ مقرَّر لمواصلة دراستهم.

عندما استأذن سليم بالدخول على الأستاذ بوردي في مكتبه بعد الظهر، لم يكن الأستاذ قد تناول طعام الغداء بسبب انهماكه في البحث. قدّم إليه سليم علبة التمر التي كانت تزن 250 غراماً، فأقبل على التهام التمر المحشو باللوز والفستق. وهو يقول:

« إنّه لذيذ، لذيذ حقًّا ». وبعد ذلك انصرف إلى منزله.

في اليوم التالي اتصلتْ زوجة الأستاذ هاتفيًّا بسليم :

ـ قلْ لي، سليم، ما تلك الحلوى التي أعطيتها لجون يوم أمس؟

ـ لماذا؟ هل سبّبت له أيَّ أذى؟ إنّها مجرّد علبة من التمر.

ـ لا، أبداً على العكس، لقد كان يشعر بنشاط ملحوظ مساء أمس، وعزوتُ ذلك إلى الحلوى الشرقية التي تناولها، قُلْ لي ما اسمها، لأنّني أريد أن أقتني شيئا منها لجون.

ـ لا أظن، يا سيدتي، أنّك ستجدين التمر العراقيّ في الأسواق الأمريكيّة. ولكنّني سأعطي أستاذي المزيد منه.

ـ لا، شكراً، أكتب لي فقط اسمها ونوعها بالضبط، وسأطلب من مموّني أن يستورد شيئاً منها لنا.

بعد تلك المحادثة، فكّر سليم أن يعطي علبة من ذلك التمر لسوزان، فقد ظنَّ أنَّ سوزان لا تعرف التمر بتاتاً. قال لها وهو يقدّم علبة التمر:

ـ وصلني هذا التمر من العراق، وهو فاكهتي المفضّلة، ويبدو أنّها غير معروفة في الأسواق الأمريكيّة.

ـ تستطيع الحصول على التمر في مخازن أوستن. لقد أتى الأمريكيّون بفسائل من العراق في أواخر الثلاثينيّات، وزرعوها في كاليفورنيا، وأثمرت. ربّما تجد التمر الأمريكيَّ أقلَّ حلاوةً من التمر العراقيّ، فقد غيّروا درجة حلاوته باستخدام تقنيات هندسة الصبغات (الجينات) ليلائم الذوق المَحليّ.

ـ ولكنَّ السيدة بوردي طلبت مني المعلومات الخاصّة بهذا التمر لاستيراده من العراق. وفكّرتُ أن أطلب من أخي إرسال المزيد من التمر إليّ لتقديمه للسيدة بوردي.

- ربّما لم تدر بوجوده في أسواق أوستن. فهو ليس من الأطعمة التي يتناولها الأمريكيّون عادة. تستطيع السيدة بوردي الحصول على التمر من أسواق أوستن. لا حاجة لتكليف أخيك بإرسال المزيد من التمر.

لم تعلم سوزان أنّني أنا الذي أحتاج إلى تمر العراق. فكلّ تمرةٍ منه أضعها في فمي تحمل إليّ عبق العراق، ونسيم نخلة أمّي، وليس بإمكان التمر الأمريكيّ أن ينتج ذات المفعول. فهناك علاقة روحية بيني وبين التمر دون ألوان الطعام الأخرى. فالتمر ثمر النخلة، نخلة الله، نخلة دارنا، نخلة أمّي.

50

في الساعة السابعة من مساء يوم الأربعاء، كان سليم يقف في باب الشقّة في انتظار سوزان . وصلت بسيّارتها في الموعد المحدّد. نزلتْ من سيّارتها، وسلّمت عليه بابتسامة مشرقة. كانت ترتدي فستاناً طويلا من الحرير الأبيض، فبدت كعروس في ليلة زفافها. وشعر بشيء من السعادة لرؤية سوزان، ولكنّها سعادة مشوبة بقليل من الحرج؛ لأنّ هذه الفتاة تقود سيّارة وستصطحبه معها إلى قاعة المحاضرة، وهو لا يملك سيّارة، في حين أنّ جميع طلاب الدراسات العليا ومعظم طلاب المرحلة الجامعيّة الأولي يمتلكون السيّارات. لقد أضحت السيّارة ضرورة في أمريكا. كل عائلة تمتلك سيارتيْن أو أكثر. فالمسافات حتىّ في داخل المدينة نفسها شاسعة، والنقل العموميّ لا يستخدمه إلا القليل من العمال والفقراء. صحيح أنّ الجامعة تسيّر حافلات مكوكية مجّانية بين أحياء الطلاب والجامعة، لئلا تزدحم أماكن وقوف السيارات في الحرم الجامعي، ولكنّ الطلاب لا يستخدمون تلك الحافلات إلا في أيام الدراسة. أمّا في غير تلك الأوقات فإنّهم يستخدمون سيّاراتهم الخصوصيّة. تذكر في تلك اللحظة أنّه عندما كان يترقّب

وصول وداد بسيارتها وسائقها في مدخل الكلّيّة ببغداد، كان يحلم أنّه سيقتني سيّارة ذات يوم، وستجلس وداد إلى جانبه. وبقيت السيَّارة في منفاه حلماً يستحيل تحقيقه.

كانت قاعة المحاضرة صغيرة على خلاف ما توقَّعه. لم يكُن فيها سوى بضع عشرات من الحاضرين. نظرت سوزان إلى مقعدَين في مؤخّر القاعة ثم نظرتْ بابتسامة إليه كأنّها تسأله بعينَيها : « أتفضّل الجلوس هنا؟ ».

في الساعة السابعة والنصف بالضبط، نهض من أحد مقاعد الصفّ الأمامي في القاعة رجل وقور في أواخر الخمسينيّات من عمره. يعلو الشيب شعره، ويرتدي نظارتين طبيتَين كبيرتَين تزيدانه وقاراً، واتّجه إلى المنصة. إنّه المحاضر بلا ريب. وكانت مفاجأة غريبة لسليم، فقد تبيَّن له أنّ المحاضر هو الرجل الذي كان يجلس إلى جواره في الطائرة التي أقلّته من نيويورك إلى أوستن، البرفسور روبنشتاين. وخطر له أنَّ زوجة الأستاذ لا بدّ أن تكون في القاعة كذلك، فنظر متفحّصاً الصفّ الأوّل من القاعة، فلمحها فعلاً إلى جانب كرسيٍّ فارغ. التفت إلى سوزان وهو يهمّ بإخبارها بالمصادفة الغريبة فبدا له شيءٌ من القلق في عينيْها الخضراويْن النجلاويْن. وفي تلك اللحظة شرع الأستاذ بإلقاء محاضرته، فأمسك سليم عن الكلام.

شرع المحاضر في الكلام من غير أن يقدِّمه أحدٌ الحاضرين. بادرهم بالتحيَّة، وقال بنبرةٍ يبدو عليها الصدق والبساطة :

« اسمي إيليا روبنشتاين، أستاذ الفلسفة في جامعة تكساس الأهلية بأوستن، أمريكيٌّ من أصلٍ ألمانيٍّ، يهوديُّ الديانة... ».

في هذه اللحظة، صرخ شاب في مؤخّر القاعة مقاطعاً المحاضر:

ـ يهوديٌّ ومعادٍ للسامية

استأنف المحاضر كلامه قائلاً:

« بل يهوديٌّ لا يعادي أحداً من أبناء الإنسانية، ويأمل في العدل للجميع... ».

ولكنَّ الشابَّ صرخ مقاطعاً الأستاذ مرَّة أُخرى:

- يهوديٌّ خائن ذويه.

وحينذاك تحرّك المحاضر إلى جانب المنصة ثمَّ تقدَّم خطوةً في اتِّجاه الحاضرين وقال مخاطبا الشابَّ بابتسامةٍ ودود :

« لنعقد صفقةً، أنا وأنتَ : سأستمع إلى وجهة نظرك بكلِّ احترام وتفهُّم إذا سمحت لي أن أعرض رأيي أولاً... ».

ثمَّ توجَّه شاب آخر كان يقف في باب القاعة، وهمسَ شيئاً في أذن الشاب المعترض. وعاد المحاضر إلى المنصة، وقال :

« إنّني أوجّه خطابي من خلال حديثي هذا إلى اليهود عامَّة وإلى الإسرائيليّين خاصَّة، فأقول لهم إنَّني لا أحمل كراهيةً لهم ولا حقداً عليهم، فأنا واحد منهم، عانيت ما عانوا على يد النازيِّين، وتعرَّض أهلي إلى ما تعرَّض له أهلهم وأحباؤهم من مضايقاتٍ، ومطارداتٍ، وسجنٍ، وتعذيبٍ، وموت. فقد هلك أبي أثناء التعذيب في سراديب سجون البوليس السري الغستابو في ميونخ. وكان عمري سبعة عشر عاماً. وبأعجوبةٍ تمكّنتُ من الهرب إلى إنكلترة. وهناك اشتغلتُ في أعمالٍ شاقةٍ، لأوفِّر ثمن تأشيرات سفرٍ أبعث بها إلى أمِّي وأُختي وإلى عددٍ من اليهود الذين كانوا معرَّضين للاضطهاد.

« ومنذ ذلك اليوم وأنا أناضل ضدَّ جميع القوى التي تمارس الظلم وتضطهد بني الإنسان. ومنها تلك القوى التي لا تؤمن بالعدل، وتمتلئ نفوسها بالتمييز العنصري والتعصُّب، وهي القوى التي ساعدت هتلر على الوصول إلى السلطة. إنَّ هذه القوى الشريرة لم تختفِ من عالمنا. فهي التي تساعد إسرائيل اليوم على قتل العرب، وطردهم من أراضيهم، واغتصاب ممتلكاتهم، وتشريدهم.

« ومما يؤلمني أنَّ اليهود الذين عانوا الظلم صاروا يمارسونه على أناس أبرياء لم يقترفوا جرماً، ولم يعادوهم يوماً. لقد تعلّم اليهود الاضطهاد من جلاديهم في أوربا، وأخذوا يمارسونه على الأبرياء. فضحايا الحقد احترفوا زراعة الحقد في أرض فلسطين التي كانت رمزاً للتسامح والتآخي قبل ذلك. إنَّ اليهود يستخدمون حجج جلاديهم في اضطهاد الأبرياء. كان النازيون يطاردون اليهود ويطردونهم من بلادهم بحجة أن ألمانيا أرض الأجداد فهي للألمان وليس لليهود، واليوم يقوم اليهود بتهجير الفلسطينيّين بحجة أن أرض فلسطين هي لليهود الذين وعدهم الربُّ بها. أي ربٍّ هذا الذي يرضى بالظلم وسلب الأرض والديار من أهلها وقتلهم؟؟ أهو الربُّ الذي قال: لا تقتل، لا تسرق؟؟.

« إن تلك القوى التي تمدّ الإسرائيليين بالمال والسلاح، وتمنحهم الدعم في المحافل الدوليَّة، إنّما تستخدمهم كمرتزقةٍ يحاربون ضدّ أمل الشعوب في وضع نهاية للاستغلال، يحاربون ضد أحلام الفقراء.

« هل يتوجَّب عليّ أن أذكّر الإسرائيليين بالمذابح العديدة التي اقترفها جيشهم بتعليمات واضحة من حكوماتهم؟ مذبحة دير ياسين عام 1948 التي أزهقت فيها أرواح أكثر من 350 إنساناً، ومذبحة قبيّة عام 1953 التي أبيد فيها جميع سكان القرية من نساء وأطفال وشيوخ، ومذبحة كفر قاسم عام 1956؛ ففي هذه القرية كان الفلاحون عائدين من حقولهم بعد يوم عملٍ ولم يسمعوا عن حظر التجول فأوقفهم الجنود الإسرائيليّون أمام جدار، وأطلقوا عليهم النار ببرودة دم، وقتلوا منهم 56 إنساناً.

« كان اليهود يشتكون من أنَّ النازيين لم يطبّقوا القوانين الدوليّة في الحرب. هم أنفسهم لم يطبقوا تلك القوانين في حرب الأيام الستة عام 1967. ألم تبثّ محطات التلفزيون في أوربا وأمريكا صور الأسرى المصريّين الذين أجبرهم الجيش الإسرائيليُّ

على خلع أحذيتهم والعودة في الصحراء مشياً على الرمال الملتهبة بلا مئونة فهلك معظمهم عطشاً. ألم تستهدف الطائراتُ الحربيّة الإسرائيليَّة المدرسة الابتدائية في بحر البقر بالمنطقة الغربية في مصر عام 1970، فقتلت الأطفال. لا أحد يعرف كم من أولئك الأطفال الأبرياء ماتوا تحت الأنقاض ».

ولمح سليم من طرف عينه سوزان وهي تُخرج منديلها من محفظتها اليدويّة، لتكفكف دمعاً ترقرق في عينَيها بصمت.

وواصل المحاضر كلامه، قائلاً:

« لقد زرتُ السجون لدراسة أحوال السجناء النفسيَّة. كان بعضهم قد حُكِم عليه بالسجن لجريمة قتلٍ اقترفها بدافعٍ من الغيرة أو الثأر في ساعةٍ فقدَ اتزانه النفسيَّ. لم يقتل الواحد منهم سوى مرَّةً واحدة، فأُلصق به اسم قاتل. نحن الأساتذة نعرف ماذا تعني الكلمات، ونصرُّ على دقَّة المصطلحات ومطابقتها للمفاهيم. فماذا ينبغي أن نسمِّي رجالا اقترفوا جريمة القتل عدَّة مرّات، وفي كلِّ مرَّةٍ كانوا يقتلون عشرات الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ. ماذا ينبغي أن نسمِّي أولئك القادة الإسرائيليّين من أمثال بيغن وشامير وشارون وإيتان وباوم وموشي ديّان. إننا نظلمهم إذا أطلقنا عليهم اسم قاتل. إنّهم يستحقون بجدارة لقب سفّاح... ».

وتذكّر سليم أن آراء الأستاذ روبنشتاين مماثلة لأراء الشاعر النمساوي اليهودي أريخ فريد الذي هرب من النمسا أيام النازيين إلى بريطانيا، ولكنّه لم يستطع تحمل ما اقترفته إسرائيل من جرائم ضدَّ الإنسانيَّة في فلسطين، فكتب قصائده التي تحمل تلك الأفكار، وضمّنها ديوانه « اسمعي يا إسرائيل! ».

وبدون إرادة مني وجدت ذهني يعود إلى أيام طفولتي، أيام المدرسة الابتدائيَّة في القرية. كان معي طفلٌ في السنة الثالثة الابتدائيَّة اسمه سمير. كان أبوه مديراً لمحطة القطار الصغيرة التي

تقع في الضفة اليسرى من النهر، ويقطن في منزل بالقرب من محطة القطار نفسها. أمّا منازل أهل القرية كلّهم فتقع على الضفة اليمنى من النهر. تذكّرت كيف أن وشائج المودّة ربطت بيني وبين سمير. فدعاني يوماً لأمضي نهار الجمعة، عطلة نهاية الأسبوع، معه في منزله. أخبرتُ والدي بذلك. لم يعترض والدي ولكنّه ذكرني بصورة عابرة أن سمير وأهله من اليهود. كانت أوّل مرّة أسمع فيها تلك الكلمة. لم يكن في القرية يهود مطلقاً. فسألتُ أبي :

ـ ما معنى يهود؟

فكان الجواب ببساطة :

ـ إنَّهم ليسوا مسلمين، إنَّهم يتَّبعون تعاليم النبي موسى عليه السلام.

ربَّما، ولكنَّني شعرتُ آنذاك أن سمير يتكلَّم اللغة نفسها، واللعب معه ممتعٌ، والحلوى التي قدَّمها لي لذيذةٌ جداً.

تلت المحاضرة مناقشةٌ أجاب فيها المحاضر على أسئلةٍ وجهها إليه عدد من الحاضرين. واستشف سليم منها أنَّ بعضهم على جهل بما جرى ويجري في وطنه العربي وفي فلسطين خاصَّة، وأنَّ بعضهم على علم خاطئ بتلك المجريات. ثمَّ غادر المحاضر وزوجته القاعة من باب تقع خلف المنصَّة. فانصرف سليم مع سوزان، وهو يقول لها :

ـ شكرا على دعوتي للاستماع لهذه المحاضرة. فصوت الأستاذ روبنشتاين صوت متفرّد لا يضارعه كثيرون في أمريكا.

ـ ومن أجل ذلك فإنَّه يلقى عنتاً ومضايقة، خاصَّةً من أبناء جلدته.

ـ أتدرين أنَّني تعرَّفت عليه وزوجته في الطائرة التي أقلَّتني من نيويورك إلى أوستن. فوجدتهما في غاية اللطف ودماثة الخلق،

وقد زوّدني الأستاذ ببطاقته الشخصيّة، ورجاني أن أتّصل بهما وأزورهما. ولكنّني لم أفعل.

ـ لماذا، يا سليم؟

ـ لأنّني انشغلت بالدراسة والعمل، أو بالأحرى، لأنّني ظننتُ أنّه قال ذلك من باب المجاملة فقط.

ـ لا شكٍ في أنُّه لم يدعُكَ إلا وهو يعني ذلك فعلاً. أنا أعرف ذلك، أنا متأكّدة.

كانت علاقة سليم بسوزان أكبر من مجموع اللقاءات التي تجمعهما في الفصل الدراسي ثلاث مرّات في الأسبوع، طبقاً لمقولة « الكلّ أكثر من مجموع أجزائه المكوِّنة له ». إذ تكمن ميزة (الكلّ) الأساسية في التفاعل بين مكوِّناته المختلفة. وهكذا كانت العلاقة التي تربط بين سليم وسوزان أعظم مما تبدو نتيجة تفاعل الأحاسيس الداخلية وتفاقمها وتداخلها، مثل حريق صغير لا تتعدى رقعته البوصات المعدودة في البداية، لكنَّه يأتي على المنزل كلّه أو الحيّ أجمعه بفعل تفاعل شراراته البسيطة.

51

ولكي يحصل سليم على دخلٍ يُعينه في دراسته، أخذ يشتغل بعد الظهر ساعتين في اليوم في مشتل لبيع نبتات الزهور. وكان قد ذهب لمكتب تشغيل الطلاب في الجامعة للحصول على هذا العمل، لا من أجل تخفيف العبء المالي على أهله فحسب، وإنَّما كذلك للتعرُّف على الشعب الأمريكيّ وعاداته عن كثب.

عندما سألني المسئول في مكتب تشغيل الطلاب في الجامعة:

ـ هل ترغب في الحصولِ على عمل داخل الجامعة أم خارجها؟
فكرتُ في ذات نفسي قائلاً: إنّ الحرم الجامعي برج عاجي لا أجد فيه سوى النخبة المثقفة الراقية من الأمريكيِّين، خاصّة الشباب

ذوي الأفكار التقدميّة. وتتمتع الهيئة الجامعية من أساتذة وباحثين وطلاب بالحرّيّة الأكاديميّة، كما تتمتّع الجامعة نفسها بالاستقلال الذاتي، فلا يدخلها رجال الشرطة، وإنّما لها حرسها الخاصّ. فهي، بشكلٍ أو بآخر، بيئةٌ مختلفةٌ، نوعاً ما، عن بقية المجتمع الأمريكيّ. ولكي أطّلع على واقع المجتمع الأمريكيّ، لا بدَّ من الاختلاط بالأمريكان في أعمالهم ومنازلهم.

أجبته قائلاً:

ـ خارج الجامعة من فضلك.

كان يشتغل في هذا المشتل، إضافةً إلى سليم، اثنان من العمّال الدائمين، وعاملٌ ثالث مؤقّت هو أحد طلاب الجامعة. والعاملان الدائمان من الأمريكيّين السود أو ممَّن يسمونهم في تلك الأيام بالأمريكيين الأفارقة، لئلا تُشَمَّ من المصطلحات رائحة التمييز بسبب اللون، لكنَّ المصطلح الجديد تُشَمُّ منه رائحة العِرق. وهما يقومان بالأعمال المهنيّة في المزرعة الصغيرة التابعة للمشتل، وفي المشتل نفسه كذلك. أمّا سليم والطالب الآخر فقد طُلب منهما استقبال الزبائن، والإجابة على أسئلتهم المتعلّقة بأنواع النباتات وشجيرات الزهور، وبعدد مرّات سقيها بعد غرسها في حديقة المنزل، ثمَّ بحمل ما يشتريه الزبائن من نباتات إلى سيّاراتهم، وتوديعهم بالعبارة الحميمة المعهودة: « شكراً لزيارتكم. رجاء، عودوا ثانية ». وهي عبارة يسمعها المشتري في جميع المحلات التجاريَّة في الولايات المتَّحدة الأمريكيّة.

درس صاحب المشتل، المستر بنجامين هاورد، الهندسة الزراعيَّة في جامعة أي أند أم في تكساس، وهي جامعة منافسة لجامعة تكساس في أوستن التي يدرس فيها سليم. لعلّ المنافسة ناتجةٌ من تفوُّق الجامعتَين في كرة القدم الأمريكيّة في المباريات الوطنيَّة السنويَّة، إضافةً إلى سمعتهما العلميَّة الطيبة. وعندما أرسل مكتب التشغيل في الجامعة سليم إلى السيد هاورد، استقبله

هذا الأخير في مكتبه في المشتل، ووجّه إليه بعض الأسئلة عن خبراته السابقة في العمل، وعن معرفته بنباتات الحدائق التي يبيعها المشتل. وعندما بدا له أنَّ سليم لا يتوفَّر على الخبرة المطلوبة، لخّص له مبادئ المهنة، وزوده بتعليماته وتوصياته :

« يقوم اقتصادنا على حرِّيَّة السوق، ولكنَّ هذه الحرِّيَّة تحكمها المنافسة الشريفة. ولكي نتفوق على منافسينا ونحقّق الربح، لا بدَّ أن نتوفر على الابتكار في الفكر، والجدِّ والإخلاص في العمل، والصدق والنزاهة في المعاملة. الزبون مَلِكٌ متوَّجٌ ونحن في خدمته وتلبية رغباته... معظم زبائننا من ربّات البيوت الميسورات المتقدِّمات في السنِّ اللواتي يتوفَّرن على حدائق في منازلهن وعلى المال والوقت اللازمَين لممارسة هواية تنظيم الحدائق. وبعضهنَّ ليست لهنَّ خبرة سابقة، وعلينا أن نزودهنَّ بالمعلومات اللازمة لنجاحهنَّ وتنمية هوايتهنَّ. المشتل لا يبيع الغرسات فقط، وإنَّما يبيع كذلك الأدوات اللازمة لصيانة الحديقة وسقيها، وتشذيب النباتات وتقليمها وتطعيمها؛ ويبيع مختلف أنواع الأسمدة، وكذلك المبيدات والمواد الكيميائيَّة الخاصّة بالقضاء على الطفيليات الضارة، ويقوم بتقديم الخبرة في مسح الحدائق، وتخطيطها، وترتيب النباتات فيها. وهذا التنويع في الخدمات والمبيعات لا يلبي احتياجات مختلف الزبائن فحسب، وإنَّما ينوّع مصادر الدخل لنا ويحقّق بالتالي الربح الأوفر كذلك. وعندما يزدهر عمل المشتل وتزداد أرباحه، نقوم بتشغيل عدد آخر من العمال أو الطلاب من أمثالك... ».

لاحظ سليم أنَّ يد السيد هاورد كانت ترتعش قليلاً وهو يتكلَّم، وبدا على وجهه شيءٌ من التشنُّج بالرغم من ابتسامته ولطفه. وعزا ذلك إلى تقدُّمه في السنِّ، أو إلى إدمانه على تناول المشروبات الكحوليَّة، أو إصابته بمرض باركنسون.

وبعد أن زوَّده السيد هاورد بنصائحه، نادى على زوجته التي كانت ترتِّب بعض الشتلات في واجهة المحل، وقدَّمها لسليم قائلا:

ـ هذه زوجتي، روث، وهي زميلتك في الجامعة فقد عادت قبل سنتَين إلى الجامعة لتواصل دراساتها العليا في علم النفس، بعد أن انقطعت عن الدراسة اكثر من خمسة عشر عاماً.

52

عزم سليم على أن يتهيّأ في المرَّة القادمة جيِّداً لدرس النقد الأدبيِّ، بحيث يستطيع أن يقدِّم تحليلا وتأويلاً ذكيَّين للقصَّة التي طلب الأستاذ منهم قراءتها في المنزل. لعلّه فعل ذلك، بلا وعي منه، لإثارة إعجاب سوزان. أمّا القصة فعنوانها « ابنة تاجر الخيول » للكاتب البريطاني د. هـ . لورنس. وهي تروي مشاعر الإحباط التي تنتاب فتاة على وشك ولوج فترة العنوسة. وذات يوم وفيما كان الراوي يتطلّع من نافذة منزله إلى البحيرة الممتدَّة أمامه، رأى ابنة تاجر الخيول وهي ترتدي فستاناً أبيضَ طويلاً وتسير بثباتٍ صوب البحيرة، وعندما تصلها تخوض فيها بكامل ملابسها، وتستمرُّ في سيرها، فيغمر الماء جسدها شيئاً فشيئاً حتّى يغطي رأسها. وهنا يهرع الراوي جارياً إلى البحيرة ويغوص في الماء لينقذ الفتاة من الموت غرقاً. وفيما هو يستخدم تقنيَّة قبلة الحياة لمساعدتها على استعادة أنفاسها، يشعر برغبة قوية نحوها، ويضمّها إلى صدره.

عندما طلب الأستاذ أرتشبولد أ. هيل أن يقدِّم أحد الطلاب قراءة تأويليَّة لهذه القصّة، رفع سليم إصبعه بصورة ملحوظة، فسمح له الأستاذ بالكلام فقال :

ـ تكمن عبقريَّة هذه القصَّة في رمزيَّتها، فالماء الذي هو رمز الحياة عادةً، يصير في هذه القصَّة رمزاً للموت والحياة معاً، واللون الأبيض فيها هو لون بذلة الزفاف ولون الكفن في آن واحد...

ولاحظ سليم وهو يواصل كلامه أنَّ سوزان مصغيةٌ إليه بكلِّ جوارحها، وفي عينَيْها الخضراوَيْن بريقٌ وتشجيعٌ، وعلى شفتَيها

المتوردتيْن بسمة إعجاب.

عند انتهاء الحصَّة، قال الأستاذ هيل وهو يغادر قاعة الدرس مخاطباً سليم :

ـ سليم أرجوك أن توافيني في مكتبي أثناء ساعاتي المكتبيَّة غداً إن كان الوقت مناسباً لك.

ـ نعم، أستاذ، بكلّ سرور.

53

كان السيد هاورد وزوجته يتناوبان على أمانة الصندوق في المشتل حيث يستقبلان الزبائن ويتقاضيان ثمن المشتريات. وكان السيد هاورد يطيل التحدُّث مع الزبائن ويسألهم عن أحوالهم، وعن الشتلات التي اشتروها منه سابقاً ومدى نموها. وقد أضاف وجود سليم في المشتل موضوعاً جديداً لمحادثات السيد هاورد مع الزبائن، فغالباً ما يقول لإحدى العجائز مثلاً :

ـ إنَّ الشابَّ الذي قام بخدمتك قدِمَ من العراق للحصول على الدكتوراه من جامعة تكساس. هل تعرفين العراق(إيراك) ؟

ـ أليست هي إيران؟

وهنا يأخذ السيد هاورد في تبيان الفرق بين «إيراك» و «إيران» بعبارات مقاربة لعبارات سليم عندما شرح له الفرق بينهما بعد أن اختلط الأمر عليه في أوَّل لقاء جمعهما.

عندما يخلو المشتل من الزبائن بعض الوقت، يتبادل العمّال الحديث فيما بينهم أو مع السيد هاورد أو السيدة هاورد. وذات يوم اقترب سليم من السيدة هاورد، وسألها عن دراستها وتخصُّصها. وكانت تلك الفرصة الأولى التي تُتاح له للحديث معها. قالت له:

ـ أرجو أن تناديني باسمي، روث. واسمح لي أن أناديك بسليم.

ومناداة الأشخاص باسمهم الشخصيّ وليس باسمهم العائليّ طريقةٌ أمريكيَّةٌ لرفع الكلفة، وربط صلات المودّة. أراد سليم أن يعرف لماذا اختارت روث علم النفس، لأنّه هو نفسه يدرس بعض المقررات في التربية وعلم النفس بوصفه تخصُّصا ثانوياً بالإضافة إلى تخصصه الرئيس. ودراسة التربية وعلم النفس ضرورية لكلّ من يريد العمل في سلك التعليم في المستقبل. قالت له روث:

ـ اخترتُ هذا التخصُّص لمساعدة ابنتي الصغيرة، لأنّها معاقة.

ـ ابنتك؟!

ـ ابنتي المتبنّاة، بعبارةٍ أدقّ. لم أستطع الإنجاب بعد زواجي من بنجامين، ولم ينفع العلاج، فاتجهت نيّتنا إلى تبنّي طفل. ولكنَّ دور الأيتام كانت ترفض في تلك الأيام السماح لزوجَين بتبني أحد الأيتام إذا كان كلاهما أو أحدهما قد مرّ بتجربة طلاق، وذلك ضماناً لمستقبل الطفل. ولما كان بنجامين قد طلّق زوجته السابقة، فقد رفضت دور الأيتام السماح لنا بتبنّي طفلٍ منها. ولهذا اضطررنا إلى الاتفاق مع فتاةٍ حامل غير متزوجة، تريد التخلّص من حملها، على تبنّي مولودها لقاء دفع تكاليف الولادة في المستشفى وإعطائها مكافأةً لها. وبعد تبنّي المولودة بأشهُر تبيَّن لنا أنَّها متخلفة عقليًّا وجسديًّا، ربما بسبب عقاقير تناولتها الأم أثناء الحمل للتخلّص من الجنين.

ـ وهل الطفلة الآن معكم في المنزل؟

ـ لا، إنَّها تحتاج إلى عناية خاصَّة، ولهذا أودعتها في مبرَّةٍ للأطفال المعاقين، أو الذين يسمونهم اليوم بـ « ذوي الاحتياجات الخاصّة »، لقاء تبرُّعات مالية منتظمة منّا للمبرَّة. ونقوم بزيارتها في عطلة نهاية الأسبوع ونصطحبها بكرسيّها المتنقّل إلى المنزل، أو نقوم معها بنزهات قصيرة.

وفجأةً وجد سليم نفسه يفكّر في هموم الناس ومآسيهم. لا

يخلو إنسان من همٍّ أو مأساةٍ في حياته. ولكنّها قطعت تسلسل أفكاره حين سمعها تقول:

ـ نود أنا وبنجامين دعوتك لتناول طعام العشاء معنا في منزلنا يوم السبت. فهل لديك الوقت لذلك.

ـ طبعاً، بكلِّ سرور.

54

عندما قابل سليم أستاذه آرتشبولد أ. هيل بمكتبه في اليوم التالي، أشار الأستاذ إلى كرسيٍّ في المكتب قائلاً:

ـ تفضَّل، اجلس.

ثمَّ فتح ملفاً التقطه من درج مكتبه، واستأنف كلامه مخاطباً سليم:

ـ لقد اطلعتُ أمس الأوَّل على ملفّك مرَّةً أُخرى، واكتشفتُ أنَّك تدرس على حسابك الخاصّ، ولا تتمتَّع بمنحة دراسيّة. أثار الأمرِ استغرابي، لأنَّني كنت أظن أنَّك مبتعثٌ من حكومتك، فهي تتوفَّر على موارد كافية، وتبعث بعددٍ من طلابها إلى الولايات المتَّحدة للدراسة، وكثيرٌ منهم لا يتمتَّعون بمثل مؤهَّلاتك. لا بدّ أن المحسوبيَّة أو الحزبيَّة في الإدارة هي التي تحرم أمثالك من الدعم والتشجيع. ولهذا رأيتُ أن أعرض عليك وظيفة « مساعد في البحث » خلال هذا الفصل الدراسيّ، لتساعدني في إعداد المعلومات الأوليّة لبحوثي العلميّة. وفي الفصل الدراسي القادم سأحتاج إلى «مساعد في التدرِيس» لشرح دروسي لطلبة السنة الثالثة. وهذه الوظيفة ستساعدكَ على التدرُّب على التعليم الجامعيّ. بطبيعة الحال هنالك دورة تدريبيّة تزوِّدك بالمهارات التعليميّة وطرائق التدريسِ قبل أن تضطلع بوظيفة مساعد تدريس. وكلتا الوظيفتَين تتطلَّب عشرين ساعة من العمل أسبوعيًّا، وهذا يؤهِّلك

إلى الحصول على راتب شهري مقداره 350 دولاراً، ويعفيك من دفع الأجور الدراسيّة، طبقاً لأنظمة الجامعة. ويمكنك أن تبدأ العمل من يوم غد، إذا كان ذلك مناسباً لك.

ـ أُستاذي، لا يسعني إلا أن أشكركَ من صميم القلب لرعايتك الكريمة. ويسرُّني العمل معك والتعلُّم منك. وبالمناسبة، فقد درَّستُ مدةً قصيرةً في كلِّيَّة التربية في بغداد، لكنّي متلهِّف للتعلُّم من الدورة التدريبيَّة والخبرة التدريسيَّة بأشرافكم، لأنَّ المناهج التربوية وطرائق التدريس في تطوُّرٍ مستمرٍّ، كما لا يخفى على شخصكم الكريم.

قلتُ في نفسي وأنا أغادر مكتب الأستاذ: يا إلهي، إنّهم يعرفون عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا. هذا هو سرّ قوتهم الذي تلخّصه مقولة « المعلومة قوّة Information is power ». وموضوعيّة المسئول في اختيار مساعديه، وتشجيع الكفاءات هي التي تجعل في أمريكا جاذبيَّة شديدة للشباب من جميع أنحاء العالم.

في صباح اليوم التالي ذهب سليم إلى مكتب الأستاذ أثناء ساعاته المكتبيَّة، وعند مروره على الكاتبة، وهي طالبة دكتوراه يابانية اسمها يوكيكو، طلبتْ إليه أن يملأ ورقة إدارية ويوقّعها، ثمَّ دخل إلى مكتب الأستاذ الذي يضمُّ مكتبته الخاصّة كذلك، فطلب منه الأستاذ أن يجمع له المصادر التي تتعلّق بموضوع معين يبحث فيه، ويلخّص ما يهمُّ البحث من هذه المصادر. وعند خروجه من مكتب الأستاذ ومروره على الطالبة/الكاتبة يوكيكو، قالت له:

ـ أرجوك أن توقّع هنا لتستلم راتبك للشهر الأوّل كتسبيق.

ـ شكراً، هذا إنجاز سريع منك، يوكيكو.

ـ لا شكر على واجب، هذا هو النظام الإداريّ في الجامعة.

55

بعد أن تناول سليم عشاءه في مطعمِ الطلبة بالجامعة تلك الليلة، ذهب إلى المكتبة المركزيّة التي تحتلّ برج الجامعة. استقلّ المصعد إلى الطابق الثاني عشر حيث توجد مقصورته الصغيرة. فتح حقيبته، وأخرج كُتُبه منها، ووضعها على رفّ المكتب أمامه. نظر إلى يمينه عبر النافذة المطلّة على مدينة أوستن. تراءت له مياه نهر كولرادو اللامعة بفعل الأضواء المنعكسة عليها.

حدَّقتُ في الأضواء المتلألئة في فضاء المدينة. وفجأةً يأسر نظري ضوء واحد من تلك الأضواء الكثيرة. أشعر بأنَّ النور القادم من ذلك الضوء يمتد إلى عينَيّ، ينفذ فيهما إلى أعماق ذاتي، ينفتح أمام بصيرتي؛ مشهد يثير استغرابي. إنّه منظر قريتي على نهر الفرات الأوسط، يقترب المنظر مني بسرعة حتّى تتبيّن لي دارنا، تنفتح باب الدار فأرى حشداً كبيراً من الناس، رجالاً ونساء، وفي وسطهم أربعة من أشقائي الكبار يحملون نعشاً، وهم يردِّدون: «لا إله إلا الله، الله أكبر»، ينزاح الغطاء عن النعش فتبدو لي أمّي مسجاة في التابوت. أشحتُ بوجهي عن المشهد. أسرعتُ إلى المغسلة القريبة، غسلتُ وجهي بالماء البارد، تعوَّذتُ بالله من الشيطان.

وراح سليم يتساءل في ذات نفسه عمّا إذا كان ما رآه هو مجرَّد كابوس من كوابيس اليقظة، أم أنَّه تخاطرٌ حقيقيٌّ مع أهله. واستبعد هذا النوع من التخاطر بعد أن ضعفت القدرة عليه لدى الإنسان بسبب اعتماده على وسائل الاتّصال الحديثة، وذلك طبقاً للمبدأ المعروف في علم الأحياء: « كلّ عضو يُستعمَل ينمو ويكبر، وكلّ عضو يُهمَل يضعف ويضمر ». لعلّ حنينه الشديد فعَّل لديه هذه القدرة الذاتيَّة على التواصل.

عاد سليم إلى شقَّته الصغيرة مبكِّراً تلك الليلة. قبل أن يولج المفتاح بالباب، فتح صندوق البريد المثبت على الحائط بجانب

الباب، فوجد برقيةً من والده. دخل الشقَّة، وألقى بنفسه على سريره، وفض ظرف البرقيّة ليقرأها:

« ولدي العزيز سليم حفظه الله ورعاه ».

بعد الدعاء لك بالتوفيق والنجاح، وتقبيل ناظَريك ووجنتَيك، فإنّه يحزنني ويحزُّ في نفسي أن أنعى إليك أمّك العزيزة التي انتقلت إلى بارئها. كانت أمنيتها الوحيدة هي أن تراك قبل أن تودعنا، وفي ذلك الصباح أخبرتنا أنّها رأتكَ في حلم شارد، ثمّ أسلمت الروح قريرة العين. عزاؤنا واحد. أسأل المولى أن يتغمدها برحمته الواسعة، ويلهمك وإيانا الصبر والسلوان، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون ».

كانت تلك الكلمات القليلة في البرقية بمثابة زوبعة عصفت بخيمتي الواهية، اقتلعت دثاري الوحيد من طيف أمّي الدافئ الذي كنتُ أحمله معي من منفى إلى منفى، وأتدثَّر به في ليالي الغربة الباردة عندما يشتدُّ زمهرير الفراق. زوبعةٌ أبقتني عارياً في صقيع الوحدة .

هذه الكلمات القليلة كانت كافية لتجعل سليم ينهض من فراشه، يجلس على حافته، يضع يديه على وجهه، تترقرق الدموع في عينَيه، تتوالى الرؤى في مخيِّلته. رأى أمَّه وهي تحتضنه طفلاً بين ذراعيها، تضمُّه إلى صدرها، تغمره بالقبل، تداعبه، تقصّ عليه حكاياتها البدويَّة، تروي له كيف أنَّه ذات يوم كان رضيعاً يحبو وقد وضعته في فراشه في حديقة المنزل، ليلعب بالدمى وذهبتْ إلى التنور الكائن في الطرف الآخر من الحديقة لتخبز الخبز وتناغيه من بعيد، لكنّها بعد هنيهة سمعت صوت ارتطام عالٍ كصوت الطبل، فالتفتت إلى فراشه فلم تجده، ونظرتْ إلى الدلو على حافة البئر فلم تجده، فجَرَتْ مسرعة إلى البئر وقفزتْ فيها، ولامست رجلها اليمنى جسده اللدن فرفعته بكلتا يدَيها إلى الأعلى وكان ماء البئر يغمرها حتّى رقبتها، وأخذت تنادي فأنجدها أحد الجيران من أقاربها. ولهذا كان كثيراً ما يقول إنَّ أمّه ولدته مرَّتين.

هذه المرأة التي وهبت الحياة لاثني عشر ولداً، والتي كانت دائماً محاطة بأطفالها وجاراتها ضاحكةً تنبض بالنشاط، وفي عينَيها الواسعتين ترقص الحياة، أمست اليوم هامدةً وحيدةً في جدثٍ مظلم لا عودة منه. وتساءل في نفسه إذا رجع غداً إلى بلدته وطرقَ البابَ، ألا تفتح الباب له بنفسها، كما عوّدته؟ كانت تعرفه من طرقه: طرقةٌ واحدة، طرقتان متلاحقتان، ثم ثالثة واحدة. فتسرع بنفسها ولا ينافسها أحد من إخوته أو أخواته.

في تلك اللحظة هبَّت روحي تسابق السحب في اتّجاه ملاعب الطفولة ومرابض الصبا؛ ووجدتني أذرف عندها دموع الحرقة والضيم، أسمعها كلمات العتاب، أشكو عندها ألم الفراق، أقول لها إن أدغال غربتي سدّت مسارب الروح وأوصدت شبابيك القلب والعينَين، وتأصلتْ مرارتها في جذور الروح. في تلك اللحظة، نفذت رائحة دارنا إلى رئتَيّ. كانت لدارنا نكهة خاصّة هي خلطة عجيبة من رائحة التوابل الشرقية وأريج الورد الجوري والقداح والفلّ والياسمين، عندما يهب النسيم من النهر. في تلك اللحظة رأيتُني صغيراً أبكي عند منحنى النهر، ويتسلّمني الجسر، يسلّمني إلى الضفة الأخرى، وأسير في دروب القرية القديمة، وألج باب منزلنا، وأتّجه إلى سرير أمّي وأنام في حضنها، فتضمّني بكلتا يديها، وتقبّل وجنتي، وتمسّد شعري. كم كان لذيذاً النوم في حضنك يا أمّاه.

قام سليم من فراشه، واتّجه إلى رفوف الكتب في الشقّة، وتناول دفتر الصور، فتحه، طالعته صورةٌ تجمع والديه، حدّق فيها طويلاً فتمثّلت له أمُّه يكلّلها كفن أبيضُ، وهي مسجّاة في تابوت يحمله إخوته على أكتافهم إلى المقبرة، يمسك أحد أولادها معولاً، يحفر جدثاً، ويشق فيه لحداً، ثم يتناول الجثمان من أخوته بيدين مرتعشتَين وشفتَين مطبقتَين، ويوسده التراب، ثمَّ يهيلون عليه الرمل ويبني فوق الرمس شاهداً، ويودعون عشرين عاماً أو أكثر

من الأمومة الرؤوم. وهكذا ترحل أمّه من شاطئ الحياة إلى مرفأ العدم عبر بحر الظلمات ذي الاتّجاه الوحيد.

تساءلتُ في نفسي هل يستطيع أستاذي الدكتور أرتشبولد أي هيل أن يفسّر لي رمز الموت ودلالته كما يشرح رموز القصص ودلالاتها، أم أنّ قصة الموت تختلف عن جميع قصص الحياة. لا أدري لماذا تذكّرت في تلك اللحظة رواية « قصر أُمّي » للكاتب الفرنسي مارسول بانيول الذي تأسّف كثيراً، لأنّ أمّه لم تشهد نجاحاته اللاحقة في الحياة، ولم تهنأ بالمنزل الجميل الذي كانت تتمناه في حياتها، والذي اشتراه ابنها بعد وفاتها. لكنّي قلتُ في نفسي: « أيّة نجاحات ستشاهدها أمّي لو ظلّت على قيد الحياة؟ لم أحصد في مزرعة الغربة سوى الخيبة. سألحق بك، يا أمّي قريبا، حتّى إذا أخطأني الموت سنةً أو سنتَين، حتّى إذا تأجّل رحيلي ليوم أو يومَين، فقد سئمتُ الانتظار ».

كان في زاوية من زوايا نفسه القاتمة بالفراق، ثمّة كوّة ينسلّ منها بصيص أمل في العودة إلى وطنه يوماً ما، ليفرح بلقاء أمّه وأبيه وإخوته. أمّا اليوم فإنّ فظاعة المأساة جعلته يشعر بعبث الحياة المذهل، وتفاهة الآمال. والدمعة التي انحدرت على خده، رغم ما تعبّر عنه من هول المصيبة، فإنّها مجرّد عبث آخر لا يغير من قسوة الحياة وهشاشتها في آن واحد. لن يرى أمّه بعد اليوم، ولن يفيده طيفها وهو يمر بخاطره، أو خيالها وهو يخطر في البراري. السراب لا ماء فيه لظمآن.

إنّه الموت يحلّ بوادينا مرّةً أُخرى. ما أشدّ جزعي اليوم. سربلني صمتٌ أسود. لم أدرِ ما أقول. وهل ينفع قول بعد أن فعل الموت فعلته. قمتُ متثاقلاً من غير وعي كمن يمشي في نومه. توجهتُ إلى حقيبتي، فتحتها ببطء، أخرجت شال أمي الذي أخذته معي في ذلك الفجر الشاحب الذي غادرت فيه قريتي، وصرّة التراب التي حملتُها معي. وغرفتُ بكفي حفنة من التراب، قرّبتُها من

أنفي، شممتُ بها رائحة أرضنا ورائحة أُمّي معا، أحسستُ ببرودتها. وتناولتُ شال أمّي، عصبتُ به رأسي ووضعت طرفه على وجهي ثم غطّيت عينَيَّ به. فتكشّفتْ أمام عيني أمّي وهي تحتضر وتهمس بصوت واهن: «سليم، سليم». لا بدَّ أنّها كانت تتمنّى أن أكون إلى جانبها في تلك اللحظة، أمسك يديها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

هل تتوسدين يا أُمّي الآن ترابا بارداً، وأنتِ وحيدة في غياهب اللحد؟ كيف تحتملين صمت القبر القاتل، وقد اعتدتِ على صخب الأطفال وأصواتهم العالية وضحكاتهم الرنانة؟ وتردّدت في أرجاء روحي كلمات بدر شاكر السياب عندما تذكّر أمّه وهو غريب وحيدّ كسيحّ طريحّ في مستشفى في لندن:

البابُ ما قرعته غيرُ الريح في الليل العميقْ،

البابُ ما قرعته كفُّكِ.

أين كفُّك والطريقْ

ناءٍ ؟ بحارٌ بيننا، مُدُنٌ، صحارى من ظَلامْ

الريحُ تحمل لي صدى القُبُلات منها كالحريق

من نخلةٍ يعدو إلى أُخرى ويزهو في الغمامْ

قال في نفسه لكي يخفّف من مصابه إنَّها أدّت رسالتها في الدنيا، وخلّدت نفسها في أولادها الاثني عشر الذين وهبتهم الحياة وسهرت الليالي في سبيل تربيتهم وإسعادهم. ولكن ماذا يفيد الوردة بعد أن تذبل وتسقط من الغصن وتدوسها الأقدام، إذا كان الشعراء العِظام قد خلدوها في قصائد يتضوّع منها أريجها كلّما أُنشِدت على مر العصور؟.

رحلتْ أُمّي ولكنَّ خطاها ما زالت على الدرب القديم، ولمسات

أناملها على مقابض الأبواب العتيقة، والقلوب الخافقة بحبّها، ورائحة الحناء المنبعثة من ذوائبها تسري في الممرّات تسابق النسيم، وتصل حاسة شمّي فتخدّرني بالحنين. آه، يا أمّي! العمر ينقضي، والآمال المحبطة والأحلام المجهضة تبقى غصّة في الحلق، وحريقاً بين حنايا الروح. كانت عيناكِ، يا أمّي، قنديلين في ظلام الغربة أحفظ بهما توازن خطواتي المتعبة. كنتِ تزرعين البسمة في درب أحزاني وأنا أواصل السير ظناً مني أنَّ الأرض مدورة وأنّي سأعود، إذا ما بقيت سائراً، إلى النقطة التي انطلقتُ منها، فألقاك يا أمّي. كنتِ تحافظين على كياني موحّداً متماسكاً، أمّا اليوم فإنَّ موتك يشتّت روحي، ويبذر أشلاءها في حقول الحيرة، والأسى، والغربة.

أيواسي نفسه بترديد القول المأثور « الموت أهون مما بعده وأشدُّ مما قبله ». ؟ أيواسي نفسه بالقول إنَّ الموت بداية حياة جديدة للروح، إذا استحال الجسد إلى تراب؟ إنّه تناقض فاضح واضح. ولا بدّ من أنَّ هذا التناقض في معنى الموت ناتج عن الإبهام والغموض اللذين يتّصف بهما الموت نفسه، لأنّه نوع من العدم، والعدم لا يفصح شيئاً. أم أنّنا لا نعرف مصيرنا لأنّنا لا نعرف بدايتنا. من أين أتينا وإلى أين نحن ذاهبون. أيواسي نفسه بترديد كلام الفلاسفة أنَّ الموت فعلٌ عامٌّ وخاصٌّ، عامٌّ لأنّه يعمُّ جميع الناس، وخاصٌّ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يموت وحده. إنَّه فعلٌ ولكنه يقضي على كلِّ فعل، فما أسوأكَ أيها الموت.

كان فراق أُمّه وهي على قيد الحياة، بالنسبة إليه، نوعاً من الموت يمكن تسميته بالموت الأصغر. أمّا اليوم فإنَّ الموت الأكبر قد أقترب منه أو هو اقترب من الموت الأكبر، اقتراباً ظنّ معه أنَّه يستطيع أن يحدّد ماهيته بشكلٍ أدقَّ، وبصورةٍ أكثر جديّة. ولكنَّ جدّيته لا تنسجم مع عبثيَّة الموت، فالموت لا يكشف عن جوهره إلا لعابث مثله. كان عليه أن يتعامل مع الموت باحتقار وإهمال، كما تعامل معه الشاعر الإنكليزي جون دون، الذي خاطب الموتَ

باستعلاء قائلاً له : « **إنّ النوم العادي يفعل ما تفعل ويعطي ما تعطي، فلا تفخر ولا تتبختر، وسيأتي يوم تموت فيه أنتَ، أيّها الموت !** ».

ستجابه مصيرك المحتوم، أيُّها الموت! كم أتمنى أن أشهد ساعة هزيمتكَ الأخيرة، لحظات موتكَ، أيُّها الموت ! لا تتكبّر، أيُّها الموت، ولا تجرّ أذيالك متباهياً متبختراً وجميع من حولك يرتجف فرقاً منك، فهناك من الرجال الذين لا يخشونك ولا يرهبونك. ألم تسمع الإمام علي حين قال: « **أتخوّفونني بالموت، والله لا آبه إن سقط الموت عليّ أم سقطتُ عليه.** » وهنالك من قام بمطاردتكَ أيها الموت غير هيّاب، لأنّه ظنّ أنّ فيك شيئاً مثيراً جديداً يبدّد ملل الحياة وسأمها، كما فعل نجيب محفوظ حين صرخ: « **أين محطة الموت، فقد سئمت مركبة الحياة المملّة.** » كيف ينبغي أن نتعامل معك، أيُّها الموت، يا ترى؟.

في تلك الليلة، بين الحُلم واليقظة، بين الواقع والخيال، مرَّ أمام مقلتيه، في موكبٍ رهيب جميع أولئك الأحبّة الذين رحلوا عن دنياه، وبقيت وجوههم لصيقةً ببؤبؤ العين: أخوه أحمد الذي قدّم مهجته فداءً لفلسطين في جنين، سمع عن موته ولم يرَه رؤية العين، وإن ظلَّ يتخيَّل ساعة سقوط البطل في أشكال متعدِّدة وصور مختلفة؛ جاره صديق طفولته الصغير عبد العظيم الذي أصابه لهيب حريق شبَّ في براميل الزيت في ساحة الدار فظلّ ثلاثة أيام يتلوى ألماً حتى فاضت روحه، وسليم الصغير يجلس مشدوهاً إلى جانب سرير الموت؛ زميله في المدرسة الابتدائية التلميذ الصغير حسين الذي غرق في النهر، وعندما عثروا عليه بعد يومَين أخرجوه وقد انتفخت وتضخمت جثته؛ وجدّه الذي أسلم الروح على فراشه في غرفته المعهودة وهو باسم يتلو القرآن وقد أمسك بيديه أبناؤه في حين كانت النساء تذرف الدمع وتخنق النشيج والعويل حتى علا صوت الرجال مكبرين، وزميلته في الكلّيّة وحبّه الأول، وداد، التي اختنقت بالغاز في حمام المنزل،

وانتقلت روحها إلى بارئها، ولكنَّها ظلّت تعوده في أحلام النهار وكوابيس الليل؛ ورفيق غربته في بيروت زكي الذي أطلقوا عليه النار في شارع الحمراء فأردوه قتيلاً. كلّ أولئك الأحبة مرّوا أمام عينيه بسرعة مذهلة.

ومن لم يمُت بالسيفِ مات بغيرِه

تعدّدت الأسبابُ والموتُ واحدُ

لا، أيها الموت، لست واحداً، فأنتَ تداهمنا متنكّراً بأشكال متعدّدة مثل ساحرة لعينة. لا، أيُّها الموت، لستَ واحداً. تمنيتُ لو كنتَ واحداً تُدرك جميع الناس قدراً محتوماً في عمرٍ واحد، ووقتٍ واحد، وطريقةٍ رحيمة واحدة؛ ولكنَّك لا تنفكّ تبرهن على قسوتك وشناعتك وجورك وخداعك.

هذه الافتراضات التي حيرت كثيرين قبله، استحوذت على فكره في تلك الليلة، سلبت من عينيه النوم، حشت فراشه ظنوناً وشوكاً. أمّا الموت فقد ظلّ على دأبه وسيره الحثيث، لا يخفّف من غلوائه سؤال، ولا يفتُّ في قسوته بكاء ولا رثاء.

56

في تلك الليلة داهمتني رغبة الكتابة مثل حصان جامح. كنتُ أتساءل أحياناً بيني وبين نفسي ما الذي يؤجّج تلك الرغبة في الأعماق. ولماذا تجافيني أياماً وأسابيعَ وشهوراً وسنين؟ ما بواعثها وما أسرارها؟ سألت بعض الكتّاب المكثرين : متى تكتبون؟ وأين تكتبون ؟ وكيف تكتبون؟ وأي وضع جسدي تتّخذون عندما تكتبون ؟ فلم أجد اتفاقاً في إجاباتهم. قال بعضهم: لكي تكتب يجب أن تقرأ أدباً راقياً. فالأدب الحقيقيّ يمتاز بقدرته على إيقاد جذوة الإبداع في نفس القارئ، والإتيان بأفكار جديدة، وأساليب جديدة. وقلتُ في نفسي : ليس المهم أن نرفض المألوف في

سبيل التجديد، ولكنَّ الأهم أن نأتي بالبديل الأفضل، وإلا فالقديم الجيد خيرٌ من الجديد السيئ.

يلجأ كثير من الكُتّاب إلى الخمرة والمخدرات لشحذ التخيُّل وتحفيز الإبداع. وكان الشاعر الرومانسي شارل بودلير صاحب كتاب « **الجنة الاصطناعيّة** » ينصح الأدباء بتناول جرعات إضافية من الخمرة والشعر والفضيلة. فالخمر يحرِّر العقل من عقاله، ويخلِّص الحياء من وثاقه. وكان أبو محجن الثقفي وأبو نواس يكرعان الخمر وينظمان الشعر. أمّا همنغواي وجيمس جويس وسكوت فيتزجيرالد فكانوا ينتبذون زوايا قصية في مقاهي باريس في سنوات الجنون أوائل القرن العشرين، ويتناولون أنواع الخمرة للوصول إلى حالة الانتشاء التي تهب أفكارهم أجنحةً تحلّق في عالم الخيال والإبداع. أمّا سليم فيردد مقولة « إنَّ الله خلق الماء، وخلق الإنسانُ الخمر » ولهذا لا يعاقر الخمرة ولا تعاقره، ولا يحبّ المقاهي ولا تحبُّه. لا يدري إن كانت تطربه لو التجأ إليها، بيد أنَّه يدرك أنَّ الحزن والوحدة يطربانه، يفجّران وجدانه، ويضرمان رغبة الكتابة في أعماقه. للحزن تأثير الخمر ومفعوله، والوحدة تهبه جزيرةً نائيةً عن بقية الجزر، محاطةً بأسماك القرش الشرسة، ولا يقربها سابح أو متنزِّه. وهذه الليلة طافحة بلون الحزن، عبقة بأريج الوحدة. فليقطع الليل بالكتابة، فالكتابة خير من النوم.

لاحظتُ أنَّني أكتب عندما تغطس روحي في خلجان الأسى وأتيه غارقاً في أرخبيل الأحزان. عند ذاك تتلوى الأبجديَّة، وترقص مذبوحةً طافيةً على سطح الحزن الآسن، وتتدفَّق الكتابة مثل ينبوع دم. وكما تنساب القطرات إلى القطرات، وكما تنهمر الدموع على الدموع، تتداعى الكلمات إلى الكلمات، وتتوالى الصور، فتتشكّل الكتابة حرفاً حرفاً وعبارة تلو أخرى، ويتحوَّل المتخيَّل إلى المرئي، وحواسي بين شدٍّ وجذبٍ وربطٍ وإيلامٍ بين أمواج مشاعري المتلاطمة.

أكتب بحثاً عن الزمن الضائع. أطارده في كهوف الذاكرة، كمن يطارد فراشات ملوّنة في حقول مزدانة بالخضرة والربيع. أطارد الزمن الضائع، لأقبض عليه وأعتقله في سراديب الزمن الحاضر ليتّسع المستقبل لي قليلاً. أواجه الموت بالكتابة، فأنا شهرزاد التي تحكي لتحيا، وتسرد من خيالها ما قد يؤجّل الموت ويُبطئ الزمن. أنا الكاتب الساحر الذي يحوّل حجارة الحاضر إلى ذهب الماضي لينعم بالمستقبل. أخشى رحمَ الأرض الفاغر فمه في ثنايا المستقبل. أخشى رحم الأرض، أتجنبه، أبتعد عنه، أعود إلى رحم أمّي لأولد من جديد. أعود بالكتابة إلى الزمن الماضي، زمن البدايات والأساطير، لأبتعد عن زمن النهاية الذي تحكمه الآلة.

الحزن هو العاطفة التي تفجّر رغبتي في الكتابة. لعلَّ الحزن أقوى من الفرح إن لم يكُن أقوى العواطف الإنسانيَّة، فلحظة حزنٍ واحدةٌ تمسح ساعاتٍ طويلةً من الفرح كأنَّها لم تكُن أبداً، وتفجّرُ في خبايا الروح ينابيع الأحاسيس والمشاعر والعواطف. وللفرح أغنية أخرى لم يتيسَّر لي سماعها، ولم أتهجَّ أبجديتها، ولا أجيد توقيعها، ولا أداءها. أمَّا الحزن فهو مقيم في شمال الروح وجنوبها، ومستقرٌّ في سويداء القلب وصميمه، منذ عصور سحيقة، حتّى أدمنتُ عليه، منذ عصور لم يعُد عقلي قادراً على حسابها، أو تذكّر أحداثها، ربّما منذ أن تركتني حبيبتي أمتطي سفينة نوح ولم تلحق بي، وظلَّت واقفة على التلّ دون أن تكترث لندائي لها أن تركب السفينة معنا، ودون أن تأبه بصراخي. ربَّما منذ أن غدرت عشتار بالراعي ديموزي وقادته إلى العالم السفليّ، وأوغرت صدور الزبانية عليه، وغادرت المكان، وتركته هناك، بعد أن جعلتهم يوصدون الأبواب في وجهه، ويمعنون في جلده بالسياط، وحرق أجزاء جسمه الحساسة بالنار، وسمل عينيه وقطع لسانه وبتر أطرافه.

57

في تلك الليلة، كتب سليم في دفتر مذكراته :

« رحلت أُمّي وما زالت لمسات أناملها على مقابض الأبواب وأوتار قلوب أطفالها. رحلت أُمّي وبقيت رائحة الحناء والياسمين تعطّر النسيم على الستائر المرتعشة، وتسري على آثار قدمَيها في ممرات منزلنا العتيق. رحلت أُمّي وما زالت خطوتها لم تتعدَّ عتبة الباب لتبلغ الدرب العريض. دُفِنت ودُفِنت معها جميع أحلامها وآمالها وآلامها. عجباً لك أيُّها اللحد الضيق، كيف استطعت أن تأوي كلَّ تلك الأحاسيس الواسعة والآمال العريضة؟.

كانت أُمّي نقطة الضوء البعيدة التي توازن خطواتي في طريق العودة المظلم إلى وطني، يا إلهي. كانت أُمّي تشكّل اللازمة في سُلّم روحي الموسيقي، وإذا اختفت اضطرب اللحن، واختل النغم، وأصابني الدوار والضياع. في أزماتي، كانت أُمّي أريج الخزامى يهدئني وينعشني في الوقت ذاته، والآن تذبل زهور الخزامى ويتلاشى عطرها.

عندما ودَّعتك، يا أُمّي، تلك الليلة المشؤومة، قلتُ لك: سأرحل بعيداً بعيداً عنك، قلتِ لي وأنتِ مدركة عمق المأساة: لا، انتَ قريب جدًّا منّي ما حييت، فإنَّكَ مهما بعدتَ، فأنتَ في قلبي دوماً. سأتحدّث إليك كلّما أشرقت الشمس وكلّما غربت، قد لا أسمع جوابك، ولكنّي أدرك ما تقول لي وأحسّه بنبض القلب.

كلّما تذكرتك يا أمّي أينع جرح في الفؤاد، وكلّما تعوّذت باسمك، ظلّ طعم الدمع على شفتيّ. كنتِ تذرفين الدمع السخين سخياً من أجل الفقراء والغرباء والبائسين والمظلومين، قريبين منك كانوا أم بعيدين، فما أرقّ قلبكِ، يا أُمّي. أفلا تستحقين دمعةً مني يوم رحيلك الأخير؟.

قومي، يا أُمّي، من مرقدك، ولو للحظة واحدة، وامسحي دمعتي من عيني، كما كنتِ تفعلين في طفولتي. انهضي، أيّتها الحبيبة، من ضريحك، ولو لدقائق معدودات، وحنّي وجنتيّ كما كنتِ تفعلين في صغري، ولكن، حنيهما هذه المرّة بقبلة وداع تخفّف من شجن الفراق الأبديّ.

ذاكرتي موشومة بدموعك يا أُمّي. تمنيتُ أن أموتَ في يوم هادئ على الفراش الذي ولدتُ فيه في حجرتك التي تظلّلها نخلتنا الباسقة. تمنيت أن أموت بين ذراعيك فتذرفين دموع الفراق، تماماً كما ضممتني إلى صدرك يوم ولدت وذرفتِ دموع الفرح. أمّا اليوم وقد رحلتِ، فمن الذي سيبكيني، يا أمّاه؟

تذكّر سليم أنّه عاد ذات يوم من مدرسته الابتدائية، وكانت سنته الأولى في تلك المدرسة. رأى أمّه جالسة واجمة وحيدة في باحة الدار، والدمع يتحدّر من عينيها بصمت وبلا نحيب. ظنّها تبكي أخاه أحمد الذي استشهد في فلسطين. فقال لها :

ـ ألم تقولي لي يا أُمّاه نحن لا نبكي الشهيد، فهو لا يموت وإنّما يبقى خالدا في الجنّة.

ـ نعم، نحن نزف إليه التهاني لا الدموع. أعمامك الهواشم قاتلوا الغزاة في الخليج أزيد من مائتي عام، وسقط منهم المئات والألوف ولم تذرف امرأةٌ هاشميّةٌ ثكلى أو أرملةٌ دمعةً واحدة. كانت نساؤهم يزغردن عندما يسقط منهم شهيد، ورجالهم يكبّرون.

ـ ولكن العراقيّين يبكون الأمام الحسين في محرّم الحرام من كلّ عام منذ أن قُتل على أرضهم قبل أكثر من ألف عام، يا أماه. أليس الأمام الحسين شهيداً؟ فكيف تفسّرين ذلك؟.

ـ بلى، إنّه سيّد الشهداء، ولكنّنا لا نبكي الحسين الشهيد، يا ولدي. نحن نبكي غربة الحسين. نبكي غربة السبايا من آل رسول الله.

اليوم أفهمك يا أُمّي. فالغربة تستحقّ أكثر من دموع العين. الغربة تستحقّ أن تُنزَف لها دماء القلب حتّى آخر قطرة.

ـ إذاً لماذا تبكين يا أُمّي اليوم، إذا لم تكُن دموعك من أجل أخي أحمد الذي استشهد في فلسطين؟.

ـ أبكي الفلسطينيّين الذين شُرِّدوا من ديارهم ظلماً. قتلوا شيوخهم وأطفالهم، اغتصبوا أراضيهم وأملاكهم، أحرقوا زرعهم وضرعهم، هدّموا دورهم على رؤوسهم، صادروا مواشيهم، طردوهم من بيوتهم. هجّروهم وجعلوا منهم لاجئين في ديار الغربة.

ـ لا تبكي، يا أُمّي، سيعود الفلسطينيّون إلى أرضهم. الظلم لا يدوم.

كفكفتِ دموعك، وجاهدتْ بسمةً للوصول إلى شفتيكِ، وأنتِ تضمّينني إلى صدرك الحنون.

وتفهّمتُ بكاءَك على اللاجئين، والشهداء، والمجاهدين الفلسطينيّين، فقد جاهد أبوك في ثورة العشرين وجُرح جرحاً بليغاً، ونجا من الموت بأعجوبة، وظلّ طوال حياته يعانق رصاصةً بين الضلوع وفخراً خفيًّا في بريق عينَيه.

لم توقفي دموعكِ يا أُمّي على الفلسطينيّين فقط، وإنّما أرسلتِه مدراراً في مناسباتٍ كثيرة، من أجل جميع البائسين والمنكوبين. أذكر يا أمّي أنّني بعد سنوات قليلة، عدتُ من مدرستي الابتدائيّة، ودخلتُ منزلنا. فاجأتُك جالسةً على الأرض، وأنتِ تندبين وتنتحبين وحيدة. فرحتِ تكفكفين دمعك بأطراف عصابة رأسك، وترسمين بسمة مُقحمَة على شفتَيك، مرحِّبة بعودتي. وسألتكِ:

ـ ما الذي حدث، يا أُمّي؟ لماذا تبكين؟

قلتِ وقد عاد الحزن إلى صوتكِ المخنوق بعَبراتكِ:

ـ هزّة أرضية في أغادير. مات جميع أهل المدينة المساكين.

مصيبةٌ حلّت بالمسلمين.

ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله.

كنتُ جائعاً ذلك اليوم عندما عدتُ من المدرسة، ولم أرَ طعام الغداء معدًّا كما هي العادة. فأنتِ لم تعجني ولم تخبزي ولم تعدّي الرز والمرق. فالحزن عندنا يلغي الأكل والتزيين وكلّ شيءٍ آخر. ولحظتِ الجوع في عينيَّ، وقلتِ لي:

ـ انتظر، يا حبيبي، سأسلق لك بيضتَين.

ونهضتِ إلى المطبخ. ولم أستطع الانتظار، فدلفتُ خارجاً من المنزل إلى دار خالتي المجاورة لأشارك ابنها محمّد طعامه، فقد عدنا سويّة من المدرسة قبل دقائق.

وقال لي محمد على استحياء:

ـ أُمّي هي الأخرى كانت تبكي على ضحايا أغادير، ولم تطه شيئاً.

وناولني حفنةً من التمر التهمتُها.

في تلك اللحظة، شعر سليم أنَّ الكهرباء التي دخلت قريتهم، لم تجلب الضوء والمذياع فحسب، وإنّما كذلك الأخبار المحزنة التي جعلت أمّه وغيرها من النساء، يبكين يوماً بعد آخر على مصائب الآخرين أينما كانوا.

الحزن، يا أُمّي، قَدرنا، نحن العراقيّين، منذ أيام السومريّين عندما غدرت عشتار بالراعي العراقيّ المسكين ديموزي، أعني تموز. وجميع أشعار السومريّين كانت مطبوعة بالحزن، نديّة بالدمع، مجلّلة بالسواد، مسربلة بالكآبة. نحن الذين انترعنا المرثيات والبكائيات والمناحات قبل أن تنشدها الخنساء أو يرددها متمم بن نويرة. أما يكفينا بكاءً يا أماه؟!

كان قلبه يفيض أسىً
فهام على وجهه في المروج
الراعي ديموزي ـ كان قلبه يفيض أسى
ومزماره يتدلى من رقبته وهو يبكي

...

وبعد كلّ الدموع التي ذرفتها عيناك في حياتكِ، ألا تستحقّين دمعةً من عيني في مماتك؟

وتذكّر سليم أنّ أُمّه ليست الوحيدة من العراقيات اللواتي يذرفن الدمع عندما تحلّ كارثة بعربٍ أو مسلمين مهما كانوا بعيدين عنهن. فتذكّر قصيدة « الكوليرا » للشاعرة نازك الملائكة. أرادت الشاعرة أن تعبّر في تلك القصيدة عن الحزن والألم اللذين ألمّا بها لدى سماعها انتشار وباء الكوليرا في مصر، مصر معقل العروبة وقلبها النابض. لا بدّ أنّ الشاعرة نظمتْ قصيدتها مع النشيج والنحيب المتقطّع المنبعث من أعماق روحها، وبكت وناحت كما كانت أمُّها تبكي وتنوح على الإمام الحسينِ في مجالس العزاء العاشوريّة التي تقام في العشر الأوائل من كل شهر محرم الحرام. ولكنّ أوزان الشعر العربيّ كلّها لم تستوعب حزن الشاعرة، ودموعها المتساقطة المتلاحقة بسرعة، ونشيجها المتقطع المتوجع، فجاءت قصيدتها على صورة تفعيلات شكّلت فيما بعد حجراً أساساً في صرح حركة الشعر الحرّ :

سكَن الليلُ
أَصغِ إلى وَقْع صَدى الأنّاتْ
في عُمْق الظلمةِ، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ

....

وتذكّر سليم القصائد التي كتبتها نازك الملائكة وعشرات

الشعراء العراقيّين ومنهم صديق طفولته الذي اختطفه الموت في عزّ شبابه، حميد فرج الله، عن الثورة الجزائريّة وشهدائها الذين سقطوا واحداً تلو الآخر وهم يحتضنون راية الجزائر قريباً من مهجهم. وتذكّر عمله في وكالة الأنباء العراقية في حي الصالحية في بغداد أثناء دراسته في كلّيّة التربية ببغداد أيام اندلاع الثورة الجزائريّة. فقد احتاجت الوكالة إلى عددٍ من المترجمين والمحرّرين، لإعداد النشرات الإخباريّة التي كانت تبعث بها إلى إذاعة بغداد في حي الصالحية كذلك على بعد شارعَين أو ثلاثة من الوكالة، فأجرت اختباراً لعددٍ من المرشّحين وكان من الفائزين.

كان رئيس قسم الأخبار في وكالة الأنباء العراقيّة آنذاك رجلاً صارماً يُسمّى الأستاذ صباح عبد المسيح، وأعطى تعليماته لجميع المسؤولين عن إعداد نشرات الأخبار بأن لا تخلو نشرةٌ إخباريّة من أنباء بطولات الثوار الجزائريّين، لتبقى الثورة حيّة مستعرة في قلوب المستمعين العراقيّين وضمائرهم. وذات يوم عرض سليم نشرة الأخبار التي أعدها، على الأستاذ عبد المسيح للحصول على تأشيرته قبل إرسالها إلى دار الإذاعة، فألقى عليها الرئيس نظرةً وقال بنبرةٍ فيها شيءٌ من اللوم :

ـ لا يوجد أيُّ خبرٍ عن الثورة الجزائريّة في هذه النشرة؟ !

فقال سليم معتذراً :

ـ لم يصلني أي خبر عن الجزائر بـ « التلبرنتر » من وكالات الأنباء، ولا من قسم الإنصات على الإذاعات هذا اليوم.

ـ لا يهمّ.

قال الرئيس عبد المسيح ذلك ورفع عصاً طويلةً كانت إلى جانبه، ووضع نهايتها بحركة اعتباطيّة على خريطة الجزائر المُكبّرة المعلّقة على جدار المكتب خلفه، وسأل :

ـ أيّة بلدة وقعتْ عليها العصا.

أجاب سليم بجديّة :

ـ باتنة،

قال له الرئيس :

ـ الآن اكتب : « شنَّ أبطال جبهة التحرير الجزائريَّة هجوما بالقنابل اليدويّة والأسلحة الأوتوماتيكيَّة على حامية عسكريَّة فرنسيَّة في منطقة باتنة في جبال الأوراس الشماء، وأوقعوا خسائرَ جسيمةً في صفوف الجنود الفرنسيّين ومعدّاتهم، وقد استُشهد في هذه العمليّة عدد من الثوار الأشاوس. ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ ».

انتهى سليم من الكتابة وعلى شفتيه ظِلُّ ابتسامةٍ باهتة، ورفع رأسه وهو ينظر إلى رئيسه باندهاش، وقال بعد شيءٍ من التردُّد:

ـ ألم تقُل لنا أثناء التدريب إنَّنا ينبغي أن ننقل الخبر بأمانة ولا نخلقه ولا نغيّره ولا نعلّق عليه، لأنّنا صحفيّون ولسنا روائيّين نستلهم الخيال، ولا محلّلين ولا معلّقين سياسيّين نبدي وجهة نظرنا ؟!.

كان جواب الرئيس بلهجة آمرة قاطعة توحي بإنهاء النقاش في هذا الموضوع :

ـ ولكنَّها، الجزائر، يا ولدي.

كانت دهشة سليم مضاعفة لاستشهاد رئيسه بآية قرآنيَّة في خبر ملفَّق، ولم يدرك أنَّ الرجل مسيحيٌّ ديناً وعقيدةً، ومسلم ثقافةً ووطناً، كما قال الزعيم المصري مَكْرم عبيد عن نفسه ذات يوم.

58

في اليوم التالي، لم يعرف سليم ما الذي ينبغي أن يفعل للتنفيس عن حزنه، والتخفيف من آلامه الدفينة. هل يبقى في

شقته يكفّنه السكون، وليس في مقدوره أن يفعل شيئاً سوى أن يدثّر الأسى بالصبر، ويواري الغربة بالصمت، أم يسير حتّى آخر الشارع حيث يجري نهر كولارادو فيبثّه ما به من شجى، وهمٍّ، وغمٍّ، وحنين؟ وأخيرا صلّى ركعتين ترحّماً على روح أمّه، وذرف دمعتين بصمت، وذهب إلى الجامعة في الصباح والمشتل بعد الظهر، فالعمل عبادة.

سرتُ ذاهلاً في أزقة المدينة. رأيتُ الحزنَ مخيماً على البنايات والنوافذ والأشياء والأشجار، وحتّى على الأزهار في قارعة الطريق وفي المشتل. رأيتُ الحزن في قلبي وعلى عينيّ.

في المشتل تحدَّث معه جونثان، العامل الأمريكيّ الأسود، فقال له :

ـ عيناك محمرتان. والشحوب بادٍ على وجهك. ألم تنم الليلة البارحة؟

وعلى الرغم من أنّه لم يخبر أحدا من الطلاب أو الأساتذة بوفاة أمّه، لأنّهم لا شأن لهم بذلك، وجد نفسه يفتح قلبه لهذا الإنسان الطيّب، ويخبره بكلّ شيء. ولكن رجاه أن لا يُخبر أحداً بذلك، فقد كان جونثان قريباً إلى نفسه بسبب حبّه للقراءة ، فهو يطالع دائماً عندما لا يوجد زبائن في المحل.

ـ آسف جداً، أرجو أن تتقبّل مواساتي. وبالمناسبة، أودُّ أن أدعوك لتناول طعام الغداء معي في المنزل بعد غدٍ الأحد. وسنتسلّى ببعض الألعاب بعد الغداء. من الضروري أن تروِّح عن نفسك. وما دام الموت هو نهايتنا الحتميّة، يجب أن نغتنم المسرات في الحياة.

حسب الموعد مع جونثان، يأتي سليم ظهراً إلى باب المشتل المغلق، فيجده في انتظاره، يتمشيان إلى موقف الحافلات، ثمَّ يستقلان إحداها في اتجاه منزل صاحب الدعوة. تأخذ الحافلة

بالابتعاد عن وسط مدينة أوستن، وشيئاً فشيئاً تختفي البنايات الشامخة الجميلة النظيفة وتظهر للعيان محلّة أقلّ ما يمكن أن يُقال عنها إنّها مساكن فقيرة وسخة ذات أزقة قذرة ويكثر السود في تلك الأزقة وليس للبيض أي أثر. وأخذت تلوح له حانات عديدة ومخازن بيع الخمر؛ إنّها أحياء السود الفقيرة التي سمع عنها سليم ولم يزُرها من قبل.

عجباً لهذه الدولة، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، أغنى دولة في العالم، وأعظم الديمقراطيّات في الدنيا، ولكنّها تجمع المتناقضات بلا مواربة ولا حياء. تنفق بلايين الدولارات على تجارب الأسلحة الهيدروجينيّة والذريّة، ولا تستطيع أن توفّر مساكن تليق بكرامة الإنسان لشريحة واسعة من مواطنيها. جاء المستوطنون الأوربيّون الأوائل إلى أمريكا هرباً من الاضطهاد، ولكنّهم اضطهدوا سكان البلاد الأصليّين، الهنود الحمر؛ وتدعو الإدارات الأمريكيّة الحديثة إلى الديمقراطيّة، ولكنّها تعمل على إسقاط الديمقراطيّات في العالم الثالث، كما فعلت في تشيلي وعددٍ من بلدان أمريكا اللاتينيّة مرارا. يا لها من متناقضات!.

في المنزل وجد سليم امرأتَين وعدداً من الأطفال، قدَّم له جونثان أفراد عائلته :

ـ مليسا امرأتي، تينا امرأتي، جورج، روني، سارا، ماريا، ليو، كريستين.

صافح سليم كلَّ واحد منهم وقبَّل كريستين الرضيعة في حضن أمّها. كان وجوده بينهم حدثاً نادراً ليس بالنسبة إليه فحسب، وإنّما لهم كذلك. وظهر ذلك واضحاً من حبّ الاستطلاع الذي أبان عنه سيل الأسئلة المتبادلة وهم يتناولون طعام الغداء.

وفيما هم يتناولون طعام الغداء، فُتِح الباب ودخل شابٌّ أسودَ وألقى تحيةً عابرةً من كلمة واحدة « هاي » ، واتّجه إلى غرفة من

غرف المنزل. ناداه جونثان قائلاً :

ـ تعال، يا ولدي، لأعرّفك بزميلي سليم.

فغيّر الشاب اتّجاهه وأقبل عليهم. فنهض سليم لتحيته، وقال جونثان بلهجةٍ رسميّة:

ـ سليم، أقدّم لك ولدي جون، طالب في الجامعة.

فقال سليم بابتسامة :

ـ تشرّفتُ. أنا كذلك طالب في الجامعة.

قال جون:

ـ لا بدَّ أنك في جامعة تكساس في أوستن. فهي أكبر الجامعات الخمس التي تضمُّها مدينة أوستن. أمّا أنا فأدرس في جامعة يؤمّها السود فقط انبثقت عن كلية تلوتسون.

قال جونثان:

ـ لماذا لا تتناول الطعام معنا، يا ولدي :

ـ لأنّني تناولت شطيرةً في مطعم الجامعة قبل أن آتي.

قال سليم :

ـ لماذا لا تجلس معنا، فأنا أود أن أسألكَ عن جامعتك.

فاتّخذ جون مقعده إلى جوار أبيه. وواصل سليم كلامه سائلاً:

ـ لماذا تقول إنَّ جامعتك خاصّة بالسود؟ ظننتُ أنَّ حركة الحقوق المدنيَّة أنهت التمييز العنصريّ في الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل الستينيّات.

قال جون :

ـ هذا صحيح، على المستويَين الدستوريّ والقانونيّ، وليس

على المستويات النفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. وجامعتي من مخلّفات التمييز العنصريّ. كانت هناك أحياء خاصّة بالسود، وأماكن مخصّصة لهم في وسائط النقل، ومدارس خاصّة بهم، إلخ. أضف إلى أنّ جامعتي تتقاضى أجوراً دراسيّة تقلّ بكثيرٍ عن الأجور الدراسيّة التي تتقاضاها بقية الجامعات في المدينة.

فقال جونثان :

ـ هكذا كان الحال في طفولتي وشبابي. وقد عانينا كثيراً بسبب ذلك. كان معظمنا يلجأ إلى الشراب للهروب من الواقع المرّ. لا جرح يؤلم كجرح كرامة الإنسان.

قال سليم :

ـ آسف. لم أكن أعرف ذلك.

واصل جون كلامه قائلا :

ـ منذ أن وصل الأوربيّون مع كولومبس إلى الأمريكتين عام 1492 وحتّى أواخر القرن التاسع عشر، جلبوا نحو ستة ملايين ونصف مليون إفريقيّ، واستعبدوهم في الأعمال الشاقة وأذلوهم واضطهدوهم، إضافةً إلى اضطهاد أهل البلاد الأصليّين، الهنود الحمر، الذين وُضِعوا في الأسر على شكل محميّات، بحجّة حمايتهم، وقد أغرقوهم بالمسكرات لتقتلهم وتُنقِص من أعدادهم.

قال سليم :

ـ يجب أن أعترف بجهلي في تفاصيل الموضوع.

قال جون :

ـ إذا كنتَ ترغب في القراءة، فإنّ رواية « الجذور » التاريخيّة للكاتب الأمريكيّ الأسود ألكس هيلي، تعطيك فكرةً عن الموضوع. إنّهم يقومون حالياً بتحويلها إلى مسلسلٍ تلفزيونيّ. للربح طبعاً. هل لي أن أسألكَ عن العبوديّة والتمييز العنصريّ في بلادك العربيّة.

قال سليم :

ـ لعلَّكَ تعلم، جون، أنَّ الثقافة العربيَّة مطبوعة بالدين الإسلاميّ. وكان الإسلام قد حرَّم الرقَّ قبل أربعة عشر قرناً تقريباً، وحرّم التمييز العنصريّ، فقال النبي محمد (ص) : « **الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى. كلُّكم لآدم وآدم من تراب** ». وكان من أقرب صحابته بلال الحبشي وصهيب الرومي، إشارة إلى نبذ التمييز بسبب اللون أو العِرق. وتشتهر في ثقافتنا مقولةٌ لأحد خلفائه الراشدين، عمر بن الخطاب، الملقَّب بالفاروق لِعدله، أطلقها في وجه أحد ولاته: « **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟!** ». ومع ذلك، ففي فترات مختلفة من تاريخنا، استخدم بعض الحكّام والأغنياء رقيقاً بيضاً أو سوداً في منازلهم، فالنظرية والتطبيق قد لا يتّفقان. الخمر في الإسلام محرَّم، ومع ذلك تجد كثيراً من المسلمين يعاقرون الخمرة.

قال جون :

ـ المسلمون السود في أمريكا لا يشربون الخمر. أنتَ تشوّقني للاطلاع على ثقافتكم. هل هنالك كتاب معيَّن تقترح عليَّ قراءته؟

ـ لعلَّك تريد أن تبدأ بقراءة ترجمة معاني القرآن؟

ـ شكراً، والآن، أودِّعكم لأنّني على موعد مع بعض زملائي. زُرنا مرّة ثانية.

وبعد أن تناولوا القهوة، وجَّه جونثان كلامه إلى سليم قائلاً :

ـ أتفضّل مشاهدة صراع الديكة أم قتال الكلاب ؟

ـ أين؟ في التلفزيون؟

ـ لا، في ساحات الرهان في الحي.

ـ وهل تراهن أنت؟

ـ أحياناً. وسأصطحبكَ هذا اليوم إلى إحدى هذه الساحات لتسليتكَ.

كان سليم يكره جميع أنواع العنف الجسدي، بل لا يرتاح حتّى للمنافسات الرياضيَّة، ويشعر بتوتُّر لدى مشاهدتها، خاصَّة مباريات الملاكمة والمصارعة. ولكنَّه كان يخشى أن يُسيء إلى مضيِّفه إذا رفض دعوته لمشاهدة إحدى هاتين اللعبتَين بعد الغداء، خاصَّةً أن جونثان يقصد الترفيه عنه. أجاب :

ـ لعلَّ صراع الديكة أخفُّ وطأة عليّ.

59

كانت الحلقة مربَّعة وقد ازدحم حولها جمعٌ غفير من السود. ثمَّ دخل رجلٌ أسودُ اللون يرتدي بذلةً بيضاء وربطةَ عنق ملونةً، إلى وسط الحلقة، فقال جونثان: « إنَّه الحكَم ». ونادى هذا الرجل على أحدهم بصوتٍ مبحوح، فجاء الرجل وهو يحمل سلَّة أخرج منها ديكاً رماديَّ اللون، له رقبةٌ طويلةٌ غليظةٌ مغطاةٌ بالريش، وهو نوع من الديكة يُسمى بالديك المقاتل أصله من آسيا. ووقف في آخر الحلقة ، ثمَّ نادى الحَكَم على رجل آخر فحضر ذلك الرجل وهو يحمل بين يديه ديكا يغلب عليه اللون البني ووقف في آخر الحلقة. ثمَّ قال الحَكَم شيئاً لم يتبيَّنه سليم، ولكنَّه فهم مغزاه عندما ترك الرجلان الحلقة، وبقي الديكان يحدِّق أحدهما في الآخر وينفش ريشه. كان هذان الديكان مختلفَين عن الدِيَكة التي عرفها سليم في قريته. فقد كانا أكبر حجماً ولكلٍ منهما عنقٌ طويلٌ مغطى بريش كثيف في أعلى الرقبة في حين يخلو أسفل الرقبة من الريش الطويل الكثيف؛ ولكلٍ منهما ذيلٌ طويل أقرب إلى ذيل الطاووس منه إلى ذيل الديك العادي. ويتوِّج أعلى الرأس عُرْفٌ أحمرُ اللون وعلى جانبَيه عينان واسعتان ويتّصل به منقارٌ مدبب؛ وسيقانهما مرتفعة يكسوها الريش في أعلاها، ويخلو

أسفلها منه، وتنتهي كلُّ ساقٍ بثلاثة مخالبَ طويلة.

وبعد لحظات صفر الحَكم وتعالى صياح المشاهدين، وصفيرهم، وتصفيقهم، وضجيجهم، وهرجهم. واقترب الديكان أحدهما من الآخر. وعندما التقيا في وسط الحلقة تقريباً، رفعا عنقيهما عالياً، واقترب منقاراهما من بعضهما، وكأنَّهما يهمسان بسرٍّ أو يتفاهمان علي قواعد المباراة؛ ثمَّ تراجع أحدهما خطوةً أو خطوتَين، وهجم كلٍ منهما على الآخر، وقد ارتفع جناحاه القصيران قليلاً؛ وانهال كلّ واحدٍ منهما نقراً على الآخر، وسط هياج المتفرّجين وصراخهم. وبعد لحظات كان الدم يقطر من وجهَي الديكَيْن العنيدَيْن. وشاهد سليم الدم ينزف من عين أحدهما فقد فقأها غريمه بمنقاره. ومع ذلك فإنّ هذا الديك ما زال يواصل الشجار.

لا يدري سليم لماذا فرّ ذهنه في تلك اللحظة من الحلقة والساحة كلها وعاد به إلى الجامعة، وعلى وجه التحديد إلى الفصل المخصَّص لدراسة النقد الأدبيّ. وهناك تراءى له فريدي، فريدي هاينمان، أحد زملائه وهو ينهض من مقعده في الفصل عند دخول سوزان ويخصُّها بتحيَّة وابتسامة ثمَّ يأخذ في الحديث معها. كان فريدي طويلاً فارع الطول، ذا عنق طويل وشعر حليق من الرقبة، وله مشية بطيئة لعلّه يتبختر بها، فبدا له مثل ديك رومي ينفش ريشه أمام الدجاج أو شبيهاً بالديكَين في حلبة الصراع . أمّا سليم فيظلّ جالساً في مقعده في انتظار وصول الأستاذ.

وفي الدقائق التي تسبق دخول الأستاذ إلى الفصل، تبقى عينا سليم مثبتتَيْن على سوزان وفريدي، فيرى سوزان تقول شيئاً لفريدي بابتسامة وتنسلّ من مكانها تاركة فريدي وراءها وتتَّجه إليه، فيحوِّل عينيه بعيدا عنها بسرعة لئلا تراه وهو ينظر إليها. تقترب منه، تحيّيه، تسأله عن أحواله، عن أهله، عن بلاده وأخبارها، هل وصلته رسائل من إخوته؟ هل تحسَّن الوضع السياسي في بلاده؟ فكان يجيب إجابات مقتضبة وهو جالس في مقعده.

بيدَ أنّي أغتبط في نفسي، فابتسامتها تبثّ في أعماقي نوراً من حبور يبدد بعض غربتي، وينسيني شيئاً من أحزاني للحظات، وتنتشي روحي بنظراتها الوديعة المنسابة بهدوء، ولكن بنفاذ لا فكاك منه. إنّها تنوّمني تنويماً مغناطيسيًّا ينقلني إلى عالَم من الفرح والسرور واللذة والانتشاء، لا تستطيع الكلمات أن تعبرَ عنه. أتمنّى لو تطول تلك الدقائق، وأن يتأخّر الأستاذ أكثر. لماذا سمحوا للأستاذ بالتأخّر عشر دقائق فقط؟ لماذا لم يسمحوا له بأكثر من ذلك؟ ومن دون أن أشعر، يطوي قلبي المسافة الطويلة بين الأسى والابتسامة، فأبتسم لها. وأتساءل في نفسي ما إذا كان شعوري ذاك هو الحبّ الذي تحدّث عنه الإمام ابن حزم الأندلسي في كتابه « طوق الحمامة » ، وما إذا كان ابن حزم، وهو الفقيه الكبير، يتحدّث عن الحبّ البشريّ حقًّا.

انتبه سليم على صراخ الجمهور، فقد سقط أحد الديكَين أرضاً في حين تقدّم صاحب الديك المنتصر ليحمل ديكه ويضمه إلى صدره فتلطخ الدماء النازفة من الديك قميص صاحبه الأبيض. وهنا قال سليم مخاطباً جونثان:

ـ إنّها رياضة وحشيَّة، ألم ترَ الدماء تنزف من الديكَين؟

ـ يعمد أصحاب الديوك إلى ربط سكاكين صغيرة حادّة في سيقانها، لكي تُنزِل أفدح الخسائر في العدو. ويعتمد تزويد الديكة بالسكاكين على شروط المباراة، فإذا لم تكُن مسموحاً بها في تلك المباراة، يأتي دور الحَكَم في التأكّد من عدم حمل الديك لسلاح أبيض مخفي.

ـ كيف ابتكرتم هذه الرياضة المتوحشة؟

أجاب جونثان مازحاً:

ـ أمريكا لم تبتكر شيئاً، فصراع الديكة لعبة قديمة جداً، منذ زمن الإغريق والرومان.

60

بعد انتهاء جولات صراع الديكة، اصطحبه جونثان إلى حانةٍ في الحيّ لتناول المشروبات. وفي الطريق قال جونثان وهو يضحك:

ـ أتعرف، يا صديقي، أنّكَ خرقت قوانين البلاد؟

ـ كيف؟

ـ لأنّكَ شاركتَ في لعبةٍ يحرّمها القانون. فصراع الديكة ممنوع طبقاً لقوانين ولاية تكساس. مرحباً بكَ في نادي الخارجين عن القانون.

ـ هل هذا صحيح؟ لم أكُن أعرف ذلك. وإذا كانت محرَّمة، لِمَ دعوتني إليها، وكيف حضر ذلك الجمع الغفير من الناس؟

قال جونثان وهو يواصل مزاحه :

ـ إنّهم يلتذّون بممارسة المحرَّمات، فكلٌّ ممنوع مرغوب. حتّى البغاء محرّم في هذه الولاية، ولكن كثيراً من الناس يمارسونه، ويرتادون المنازل ذات الضوء الأحمر؛ وحتّى شرب الخمر قبل سن الحادية والعشرين محرّم كذلك، ولكن كثيراً من الأطفال يبدأون بتناول الجعة والنبيذ منذ نعومة أظافرهم.

ـ وهل هناك من الولايات الأمريكيّة ما يسمح بممارسة رياضة صراع الديكة؟

ـ لا أظنُّ ذلك. فمعظم الدول الأوربيّة أخذ بتحريمها منذ القرن الثامن عشر، وتكاد تكون محرَّمة في جميع دول العالم. ومع ذلك فهواة هذه اللعبة يجتمعون سراً.

وصلا إلى الحانة. وعندما جاء النادل، قال سليم :

ـ عصير برتقال من فضلك!

ـ ولماذا لا تشاركني مشروب الويسكي أو الجن.

ـ لأنّني لا أتناول المشروبات الكحوليّة.

ـ المسلمون منا نحن السود لا يتناولون الكحول ولا يدخّنون، كما ذكر لك ولدي جون. يُقال إنَّ جدّي الأعلى الذي اصطادوه في إفريقيا وجاءوا به رقّاً إلى أمريكا، كان هو الآخر مسلماً. ولكنَّ أحفاده دخلوا الكنيسة وأصبحوا مسيحيّين. أمّا أنا فلا أمارس أيّة ديانة.

ـ وكيف تعرف أنَّ جدَّك الأعلى أصطاده البيض في أفريقيا؟

ـ أنا لا أعرف على وجه التأكيد، ولكن هذه هي القصة المتداولة بيننا في العائلة، أباً عن جد.

ـ سمعتك تقدّم لي سيدتيْن في المنزل بصفة « امرأتي » هل تعني أنّهما زوجتاك؟

ـ نعم، بصورة غير رسميَّة؛ لأنَّ تعدُّد الزوجات محظور في القانون الأمريكيّ، ولكنَّ بعض السود يمارسونه بصورة غير علنية ولا رسمية. وهذا مثال آخر على الفرق بين القانون والممارسات الفعليّة.

ـ هل تعدُّد الزوجات وقفٌ على السود في الولايات المتَّحدة؟

ـ لا، طائفة المورمون المسيحيّة التي يعيش معظم أفرادها قرب مدينة « سولت لَيك » في ولاية أوتاوا، تمارس تعدُّد الزوجات بصورة سريّة كذلك، فهو جزء من معتقداتهم الدينيّة. وماذا عن تعدُّد الزوجات في دينكم؟

ـ قبل الإسلام كان تعدُّد الزوجات لا حدّ له، وكان الرجل يرث زوجات أبيه أو أخيه، كما هو الحال في كثير من البلاد الأفريقية حالياً، ولكنَّ الشريعة الإسلاميَّة حدّدته بسقف أربع زوجات في حالات استثنائية بشرط أن يعدل الرجل بينهنَّ. ولما كان العدل

بين النساء مستحيلاً، فإنَّ القرآن ينصح بالزواج من امرأة واحدة. بيدَ أنَّ بعض الفقهاء وبعض الأغنياء أغفلوا الحالات الاستثنائيّة، وأغفلوا الشرط، ومارسوا تعدُّد الزوجات. في الوقت الحاضر، لا تشجع الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة في البلاد العربيّة، خاصَّةً في المُدن، على الزواج بأكثر من واحدة، إضافة إلى أنَّ مدوّنات الأحوال الشخصيَّة في معظم البلدان العربيَّة، تجرّم الزواج من ثانية إلا في حالات استثنائيَّة وبموافقة الزوجة الأولى.

ـ أتعرف، يا سليم، أنَّني قرأت قبل مدة عن ظاهرة معاكسة لتعدُّد الزوجات وهي تعدُّد الأزواج، وتُمارَس في المناطق الجبليَّة من بلاد النيبال، حيث يشترك أكثر من أخٍ في زوجةٍ واحدةٍ، ذلك لقلّة النساء في تلك المناطق.

ـ أحسبكَ مصيباً، يا جوناثان. لا بُدَّ أنَّ ظاهرة تعدّد الزوجات، كذلك، كانت في الأصل ناتجة عن نقص الرجال في جماعة من الجماعات بسبب الحروب، أو عن جشع بعض الأقوياء الذين ينظرون إلى المرأة بوصفها جزءاً من المتاع والضياع.

كان جونثان يتحدَّث إلى سليم وهو يحدِّق فيه بعينَيه الجاحظتَين وتجول عيناه في ملامح وجهه من جميع الزوايا، كما لو كان يروم أن يرسمه أو يصفعه. بيدَ أنَّه بعد لحظات تبيَّن لسليم أن جونثان كان يحدق فيه ليعرف مدى استعداده لمصاحبته إلى حفل موسيقيّ ليسري عنه، إذ قال له:

ـ سليم، أود أن أدعوك إلى حفلٍ موسيقيٍّ يُقام في الهواء الطلق هذا المساء تُحييه فرقة « رعاة البقر » الموسيقيّة، أشهر فرق تكساس على الإطلاق. لا أريد أن أتركك وحيداً هذه الليلة. وغداً ستشغلك دروسك في الجامعة.

ـ شكراً لمشاعرك الطيّبة، جونثان. أنتَ رجل كريم حقاً. وأنا أعرف قصدك النبيل من تسليتي طوال الوقت. وهناك في بلادي

مثل يقول : « لا يردّ الكريم إلا البخيل ». ولكنّي لا أريد أن أكون مثل غريب البير كامي الوجوديّ الذي يشارك في حفل في اليوم الذي يخبرونه بوفاة أمّه. إنَّ حزني دفين في حنايا الروح. وسأرافقك في وقت آخر إلى إحدى حفلاتك الغنائيَّة المفضَّلة.

61

في اليوم التالي، لم يستطِع سليم تناول طعام الفطور في الصباح. ذهب إلى المكتبة للبحث والقراءة. وعند الظهر، فكّر في أنَّ عليه أن يأكل شيئاً لئلا تخور قواه فلا يقدر على الدرس. لم يُرِد أن يذهب إلى مطعم الطلاب في الجامعة، فذهب إلى مطعم خارج الجامعة يقدم أكلات مكسيكية مثل التاكو الذي يحبّه عادة لأنّه يشبه أكلة (المحشي) العراقيَّة. دخل المطعم وانتبذ طاولةً في إحدى جنباته. تناول قائمة الطعام الموضوعة سلفاً على الطاولة لتسريع الخدمة. ألقى نظرة عليها وجالت عيناه في أصناف الطعام المتوافرة، فلم يشعر بالرغبة في تناول شيءٍ منها. ومع ذلك أحسَّ بأن عليه أن يأكل شيئاً، فقال في نفسه: سأطلب التاكو. شعر بأن شخصاً وقف أمام طاولته. لا بدّ أنّه النادل لتلقّي طلباته. رفع رأسه. فكانت المفاجأة. النادلة الواقفة إزاءه هي حميدة، خطيبة صديقه زكي الذي اغتالوه في بيروت. يا للمفاجأة! انتصب سليم واقفاً للسلام عليها. كانت مفاجأة لها كذلك. بُهِتت. قالت :

ـ لم أعرف أنَّكَ هنا في أوستن.

وأضافت كأنّها تجيب عن أسئلة داهمته عند رويتها :

ـ بعد رحيل زكي لم أستطع العيش في العراق، هاجرتُ إلى أمريكا. لا أستطيع التحدَّث معك طويلاً هنا أثناء العمل. اترك لي رقم هاتفك. أريد أن أراك كثيراً. ماذا تودّ أن تأكل؟

لا أريد أن ألتقي بها، لا لأنّها تذكّرني بصديقي الراحل

ومأساتي وعذابي في بيروت ليلة اغتياله فحسب، بل لأنّني لا أرغب في أيّ نوع من العلاقة بها. سأشعر، في كلّ لقاء، بأنّني أخون صديقي، فقد كانت خطيبته. لا، الخيانة عار. النار ولا العار. حتّى في شرائع السومريّين وقوانينهم القديمة، يحرّم على الصديق الزواج من خطيبة صديقه السابقة أثناء حياته. وزكي ما زال حياً، بالنسبة لي، فهو في خاطري وناظري أينما ذهبتُ وحيثما حللتُ.

62

في عصر يوم من أيام الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر في ذلك العام، كان سليم جالساً في مقصورته، في المكتبة بجانب الشباك، والطابق فارغ من الطلبة، فمعظمهم يذهب عادة في تلك الساعة لتناول القهوة والفطائر. وكانت ريح الخريف تعول وتنتحب، وقطرات المطر تقرع زجاج النافذة بحدّة وإصرار. فهبّ الحنين في أغوار نفسه. يعيد له المطر ذكريات طفولته، يثير فيه روائح تلك الليالي الممطرة حين كانت عائلته كلّها، أبوه وإخوته يتجمّعون حول النار ويتبادلون الأحاديث الحلوة. وداخله شعورٌ أليم بالوحدة. وتذكّر كيف أنّه أعتذر عن الدعوة التي وجهتها إليه سوزان في عيد الحلوين يوم 31 من شهر اكتوبر/تشرين الأوّل الماضي، ليتناول طعام العشاء مع عائلتها. ألحّت عليه ولكنّه اعتذر. كان اعتذاره يعني أنّه لا يريد أن ينمّي صداقتهما، وأنّه يعتزم أن يبقيها في حدود ضيّقة، لا يخرجها من الحرم الجامعيّ إلى المطعم، والمسرح، والشقة، والمنزل. لقد فصّل أحلامه على قدر حرمانه، ومدّد رجليه على مقاس مأساته.

في تلك اللحظة، أحسّ أنّ شخصاً ما يقترب من مقصورته. التفتَ ليرى سوزان مقبلةً وهي مضمّخة بالابتسام والعطر. ما إن رأته حتّى تضرّج خداها الأسيلان بالحياء. هكذا هي سوزان، تختلف عن جميع الفتيات الأمريكيّات اللواتي يتّسمن بالجرأة. كلّما تحدّثتْ إليه وصوّب نظراته إليها، صعد الدمّ حاراً إلى خديها

فتوردا حمرة، وغضّت من بصرها، وازداد رمش عينَيها، وتغيّر رنين صوتها الفَرِح حتّى غدا خفيضا عميقاً كأنّه صادرٌ من القلب.

تعانقت بسمتاهما :

ـ هل تعرف، يا سليم، أنَّ يوم الخميس القادم هو عيد الشكر، وسنتمتّع بعطلة نهاية أسبوعٍ طويلة.

قال لها ممازحاً :

ـ يبدو أنَّ الأمريكيّين يكثرون من العطل.

ـ على العكس مما تظنّ. فمجموع العطل السنويّة للعامل الأمريكيّ لا تتعدّى 23 يوماً، وهو الأدنى في الدول الصناعيّة الغربيّة، فالعامل الفرنسيّ، على سبيل المثال، يتمتّع بحوالي 46 يوماً. طبعاً أنتَ على حقٍّ إذا قارنت عطلنا باليابان التي لا تتجاوز عطل العامل فيها أسبوعاً على الأكثر.

ـ المهمّ ما مناسبة هذا العيد، سوزان؟

ـ بدأ هذا العيد في عام 1621، عندما احتفل الحجّاج من المهاجرين الأوائل بنجاح الحصاد وشكروا الله على نعمته، ودعوا جيرانهم من الهنود الحمر لاحتفالهم، وظلَّ الأمريكيّون يحتفلون بهذه الذكرى في الخميس الرابع من شهر نوفمبر من كلّ عام، ويطهون عادةً الديك الرومي، ويطعمون الأهل والضيوف، كما أطعم أولئك الحجاجُ الهنودَ الحمر.

قال بابتسامة وبنبرة ساخرة :

ـ لم يكُن الهنود الحمر بحاجة لطعام المهاجرين ولا لرصاصهم. كانوا سعداء قبل قدوم الأوربيّين إلى أمريكا..

ـ انسَ الأوربيّين المهاجرين، وانسَ الهنود الحمر الآن، من فضلك، ولنتحدّث عنك وعن والديّ. إنّهما يدعوانك لتناول طعام

العشاء معنا يوم الخميس القادم بمناسبة عيد الشكر. إنّه مناسبة تجتمع فيها الأسَر والأقارب والأصدقاء.

ـ أنتِ تعرفين، يا سوزان، أنّ جميع المجتمعات الزراعية القديمة كان لها عيد الشكر للاحتفال بنهاية موسم الحصاد: السومريّين، المصريّين القدماء، الصينيّين، الإغريق.

ـ هل المقصود من سرد هذه المعلومات التهرُّب من قبول الدعوة؟

ونظرتْ إليه بعينَين مبتسمتَين وشفتَين منفرجتَين فيهما دعوة ورجاء، فجرّدته من جميع أسلحة الممانعة والاعتذار.

ودون أن يدري، قَبِلَ الدعوة، فلاح على قسماتها فرحٌ غامر لا تخطئه العين، وقالت بنبرة انشراح :

ـ أمّا أنا فأدعوك الآن لتناول فنجان قهوة في مقصف الجامعة.

وأضافت بإغراء :

ـ ألا تريد أن تستريح قليلاً؟

63

عصر يوم الخميس، وقف سليم في الموعد المحدَّد أمام مدخل الجامعة الغربيّ المطلّ على شارع غوادالوب ينتظر سوزان. وكانت بعض جماعات (الهيبيّين) تفترش أرض الشارع هنا وهناك، في حين مرّت جماعة (هاري كريشنا) في الشارع متّجهة جنوباً وهي متّشحة، رجالاً ونساء، بأوشحة هنديّة صفراء وأرجوانيّة اللون، فيما كان بعضهم يعزف ألحاناً هنديّة على دنابك وآلة (سيتار) صغيرة محمولة.

وكانت الساحة المترامية أمام مكتبة العلوم الإنسانيَّة، شبه فارغة من الطلاب على غير عادتها. فقد سافر معظم الطلاب

لتمضية عطلة عيد الشكر مع أهاليهم أو أصدقائهم ممَّن لهم عوائل في مدينة أوستن أو البلدات المجاورة لها.

وصلت سوزان بسيَّارتها قبل دقيقتين من الموعد المضروب. وفيما كان سليم يهمُّ بركوب السيّارة إلى جانبها، أوقفتْ سوزان المحرِّك، ونزلتْ من السيّارة، واتّجهت صوبه بابتسامة عريضة أشاعت الفرحةِ في المكان، وحيّته تحيَّةً مؤدَّبة. إنَّها ليست تحت ضغط الوقت، كما هو حال الناس في أمريكا.

في طفولتي كنتُ، ذات يوم، أقف على ضفة النهر بالقرب من منزلنا، أشاهد الماء الجاري فيه، فظهر قطيعٌ من الإوز البريّ أبيض اللون يسافر في النهر مع التيار، تقوده إوزة كبيرة رمادية اللون أشبه ما تكون بالبجعة، وعندما كان القطيع على وشك الاختفاء وراء منعرج النهر، بدت إوزة بيضاء جميلة واحدة جاءت من الجنوب متّجهة إلى الشمال، عكس التيار. إنّها الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، كما يقول الفرنسيّون.

انسابت السيَّارة غربا وعبرت نهر كولورادو وأخذت تصعد المرتفعات الغربية في المدينة وتمرُّ في شوارع فسيحة ذات أرصفة واسعة، ومشجَّرة تشجيرا كثيفاً، وتكثر فيها المساحات الخضراء. وكانت بحيرة أوستن تتراءى لهما من خلال الحدائق المنتشرة على جانب الطريق الأيسر، وقد ازدانت البحيرة بأشرعة قوارب النزهة. فتراقصت الألوان المنبعثة من أوراق الأشجار الخريفية المخضلَّة بالمطر، اللامعة تحت تحوُّلات الضوء المنبعث من الشمس الغاربة، وتداخلتْ هذه الألوان مع الزرقة الداكنة التي خيّمتْ على البحيرة المطرَّزة بألوان أشرعة القوارب الزاهية المتحرِّكة. وزادت الموسيقى الكلاسيكيَّة الخفيضة الصادرة من جهاز التسجيل في السيّارة من جمال الطريق وسحر المنظر. لم يشأ سليم أن يتكلَّم لئلا يشغل سوزان عن قيادة السيّارة، أو يقاطع أحلامها التي صاغتها ألحان الموسيقى وإيقاعاتها.

توقّفت السيّارة أمام منزل فسيح الواجهة، تغطّي جداره نباتات متسلّقة مزهرة، فانفتحت بوابة المَرْأب مرتفعةً إلى الأعلى، بفعل إشارة أطلقتها سوزان من ضوء السيّارة الأماميّ، وبعد أن دخلت السيّارة، أخذت البوابة بالانخفاض حتى أحكمت إغلاق المَرْأب. وفتحت سوزان باباً يُفضي إلى صالة الاستقبال في المنزل.

حاول سليم أن يُخفي انبهاره بما رأى هناك. لم يدر إنْ كان قد أُخِذ أكثر بأناقة أثاث الصالة الذي ينمُّ عن ذائقة راقية أم بمنظر البحيرة الأخّاذ الذي ظهر كاملا بفضل وقوع المنزل على مرتفع يطلّ على البحيرة، وبفضل الواجهة الزجاجيّة الكبيرة. الماء يأخذ بلبه ويستحوذ على أحاسيسه.

لا أدري ما الذي يربط بيني وبين الماء. هذا الماء الذي يعرّفه الكيميائيون بأنّه سائل لا طعم له ولا لون، هو الذي يلّون حياتي بالأحاسيس العميقة ويهَب وجودي مذاقاً وطعماً ومعنى. ما رأيتُ الماء إلا أحسستُ بنوعٍ من اللذة الخفيّة، وما غاب عن نظري بضعة أيام حتّى شعرت بنوعٍ من التوتّر النفسيّ الذي تولّده حاجتي إلى رؤيته متدفقاً متموّجاً مترجرجاً جارياً. كنتُ في طفولتي أعتقد أنّ اللذة والألم من مشتقات الماء، أو أنّ الماء من مشتقاتهما. فعندما طلب منّا معلم اللغة العربية في المدرسة الابتدائية أن نبحث عن تعريف الماء في المعجم، لم أكن أعرف الجذر الذي تندرج تحته كلمة الماء، فبحثت عنها تحت مادتي (ل ذ ذ) و (أ ل م) في المعجم. وعجبتُ عندما أخبرنا المعلم أنّ كلمة الماء توضع في المعجم تحت الجذر (م و ه) وأنّ حرف الهاء الأخير يظهر في صيغة الجمع «مياه».

الماء، بالنسبة إليّ، هو الحياة والموت، هو الوجود والعدم، هو السعادة والشقاء، هو الرعشة الخفيّة عند أوّل لقاء. في طفولتي، كنتُ أرى الماء يجري في الجداول في البساتين يسقي الزرع والكروم والأشجار المثمرة، وكنتُ أرى الماء يتدفّق مارداً جباراً من نهر الفرات

أيام الفيضان، فيدمِّر كلَّ شيءٍ يعترض مسيره الأهوج. كان ماء البئرِ في منزلنا، منذ أن حدَّثوني عن سقوطي فيه عندما كنت طفلاً أحبو، مَعلَمةً تحمل في أعماقها الحياة والموت في آنٍ واحد.

كان بعض إخوتي الصغار يهرب من أُمّي إذا ما دعتهم إلى الحمام للاغتسال، أمَّا أنا فقد كنت أطلب منها الاستحمام. علّمني أبي الفقه في طفولتي فأفاض في باب الطهارة. الماء هو الطهارة. قال لي إنَّ المطهِّرين في بابل قبل الإسلام اختاروا العيش بالقرب من الأنهار وكان فاتك، أبو مانع، ذلك المصلح الديني البابلي، من أولئك المطهِّرين. قلتُ لأبي مازحاً وهو يحدثني ذات يوم عن عشيرتنا (الهواشم) البدوية المنتشرة في شبه الجزيرة العربيَّة والعراق والشام :

ـ « هل أنتَ متأكد من أنَّ أصلنا من الصحراء؟ ألا ترجِّح أنّنا انحدرنا من أولئك السومريِّين الذين سكنوا الأهوار في جنوب العراق، وبنى بعضهم منازلهم من القصب على الماء؟ ».

أجاب والدي :

ـ « ولكنَّ الصحراء كانت مغطاة بالماء، ولو حفرتَ في رمال صحراءِ نجْد قليلاً، لظهرت لك القواقع والمحارات المتحجّرة ».

نادت سوزان على أبيها وأُمِّها، فهبطا من الطابق العلوي للقاء سليم. رفع سليم نظره إلى السُّلَّم، فلم يصدّق ما رأى. أهي ليلة عيد الشكر أم ليلة العجائب والغرائب والمفاجآت؟. ظن أنَّهما مدعوان كذلك. ولكنَّ سوزان قالت بكلِّ بساطة: « بابا وماما ». حدَّق سليم فيهما. يا لدهشته. إنّهما الأستاذ روبنشتاين وزوجته اللذان التقاهما في الطائرة أوّل يوم من وصوله إلى أمريكا. إنَّه الأستاذ اليهوديُّ الذي استمع إلى محاضرته بدعوة من سوزان. ولكنَّ سليم يعرف اسمها، سوزان روبرتسون، وليس روبنشتاين. سمعهما يقولان شيئاً للترحيب به. حرَّر نفسه بصعوبة من تيّار

التساؤلات المتدفّق في نفسه، وقال بأدبٍ وابتسامةٍ محاولاً أن يُخفي علامات الدهشة التي غزت وجهه:

ـ إنّني سعيد جداً بتلبية دعوتكما، سيدي سيدتي.

ـ أرجو أن تناديني باسمي الأول «إيلي» إنّه يقابل «علي» في لغتكم العربيّة، فالعربية والعبريّة من أصل واحد، كما تعلم.

قالت السيدة روبنتشتاين :

ـ تفضلوا بالجلوس.

64

كان سليم يعمل في المشتَل ذات يوم جمعة، حين اقترب منه زميله جونثان وقال له:

ـ لقد وعدتني قبل أسبوعَيْن أن ترافقني إلى حفلٍ موسيقيّ. وقد حضرت فرقة (ألتون جون) البريطانية إلى أوستن لإقامة حفلٍ موسيقيّ. وألتون جون مغنٍّ شابٌّ يكتب أغانيه بنفسه ويلحِّنها وهو عازف بيانو ممتاز. ويسرُّني أن أدعوك للذهاب معي غدا السبت مساء.

ـ أقبل دعوتك بكلّ سرور على شرط أن أدفع أنا رسْم الدخول إلى الحفل.

ـ لا يوجد رسْم دخول، فالحفل يُقام في ساحة عامّة مفتوحة، ومجلس المدينة البلديّ هو الذي ينظّم هذه الحفلات الموسيقيّة، لتنشيط الحياة الثقافيّة في المدينة.

استقلا الحافلة. وصلا إلى ساحة يتجمهر فيها عدد كبير من الناس، وهم يتحلّقون حول منصّة واسعة، سُلّطت عليها أضواء كاشفة ذات ألوان مختلفة. كان الناس يتحدَّثون مع بعضهم، وما إن ارتقت الفرقةُ الموسيقيّة المنصَّةَ حتّى علا صراخ الفتيان والفتيات. وجّه رئيس الفرقة الموسيقية التحية إلى الجمهور ثمَّ

أعطى الإشارة لفرقته لبدء العزف، أمّا هو فقد كان يحمل قيثارته معلقة على صدره وراح يضرب على أوتارها بعنف وقد ارتفع صوته بالغناء وسط هياج الجمهور وصراخه الذي يصكّ الآذان.

التفتَ سليم إلى جونثان يسأله :

ـ لا أفهم كلمات الأُغنية، هل تفهم ما يقول هذا المغنّي؟

ـ لا أحد هنا يفهم كلماته، خاصَّة إذا كانت الأغنية جديدة. إنَّهم يطربون للأنغام والألحان، ويحرّكون أجسادهم مع إيقاع الموسيقى.

نظر سليم حوله فوجد الجمهور في هياج كبير وصراخ عنيف، وقد أُغمي على فتاتَين أو أكثر. لم يفهم شيئاً. ثمَّ رأى فتاةً قرب المنصَّة، وقد بلغت بها الحماسة أشدها، وهي تخلع قميصها وترميه على المغنّي، ويبقى نصف جسدها الأعلى عارياً، فما كان من المغنّي إلا أن يلتفت إلى أحد زملائه الموسيقيِّين ويأخذ قيثارته منه ويضربها بشدة على أرضية المنصة فيحطمها، وزاد هياج الجمهور وصراخه، على حين قال زميله صاحب القيثارة وقد استولت عليه الدهشة :

ـ لماذا حطَّمت قيثارتي؟!

ـ لأنَّني لم أُرِد أن أحطّم قيثارتي.

ولم يعلم المتكلمان أنَّ صوتهما ينتقل بمكبرات الصوت إلى الجمهور الذي انفجر ضاحكاً. ولعلَّ الجمهور لم يفهم من كلام الفرقة إلا هاتين الجملتَين.

65

في منزل الأستاذ روبنشتاين، بدت الصالة أنيقة، رائقة، مؤثَّثة بذوقٍ رفيعٍ، يشعر الجالس فيها، بعد وهلة، بالهدوء يتسرَّب إلى

نفسه وبشيءٍ من الاسترخاء، بفضل اللون الأبيض المهيمن على معظم مرافقها وأثاثها، ابتداءً من الستائر المصنوعة من الدانتيل الأبيض والأرائك الوثيرة الواطئة التي تجعلك تمدّ ساقيك باسترخاء مريح، وانتهاءً بالبيانو الكبير المصنوع من الخشب المطلي باللون الأبيض. وكانت مائدة العشاء، هي الأخرى، مغطاة بمفرشٍ أبيضَ جميلٍ مطرَّزٍ بزهورٍ بيضاءَ لا تظهر للعيان من بعيد. وعلى المائدة شمعدانان من الفضة، وكلٌّ واحدٍ منهما يحمل خمس شموعٍ بيضاءَ طويلة. وفي وسط المائدة، ثمَّة دورق ماء من البلور الخالصِ الشفاف، يحيط به عدد من الكؤوس البلوريَّة. وانفتحت جميع مرافق الطابق السفليّ من المنزل على بعضها، لتكوّن صالةً واسعةً واحدةً يبعث اتساعها على الارتياح، فلم تكن هناك غرفة للطعام وأخرى للجلوس، بل كانت صالةً واحدة، حتّى مكتبة الأستاذ كانت مفتوحة على الصالة المشتركة حيث كانت رفوفها جميعاً من الخشب المطلي باللون الأبيض، وكان مكتبه الذي يطلّ على البحيرة مطليًّ باللون الأبيض كذلك.. ولاحظ سليم نسخةً مرمرية بيضاء لتمثال « الكاتب » الفرعونيّ تتربَّع في وسط المكتب، وبين رفوف الكتب كانت لوحة بإطار خشبي أبيض هي نسخة من لوحة بيكاسو الشهيرة « جورنيكا » التي رسمها بعد أن قصف الطيرانُ النازيُّ الألمانيُّ قرية جورنيكا في شمال أسبانيا عام 1937 وقتل الكثير من أبنائها. وعلى الجدار المقابل، لوحةٌ من المنمنات للفنّان أكبر تجويدي تمثل إحدى رباعيات الخيام، حيث يظهر عمر الخيام مستلقياً على الأرض في بستان، متكئاً على ذراعه الأيسر وهو يرفع بيده اليمنى دورقَ خمر لغانيةٍ فاتنةٍ تعزف له على ربابتها الصغيرة، وتظللهما عرائش العنب.

يكاد أن يكون كلُّ شيءٍ في الصالة قد عراه اللون الأبيض، ما عدا مقابض الباب الرئيس فقد كانت مذهَّبة اللون تماماً مثل النجمات العسكريَّة الثلاث التي كانت تزيِّن كتف النقيب أحمد، شقيق سليم الأكبر.

كان عمري ست سنوات عندما غادرنا أخي أحمد، مع قطعات الجيش العراقي، إلى فلسطين. كلّ ما أذكره عنه نجماته الذهبيّة الثلاث التي كانت تزيّن كلَّ كتف من كتفَي بزّته العسكريّة الزاهية. عندما انحنى بقامته الطويلة ورفعني إلى الأعلى، ليقبّلني مودِّعا، ويضمّني إلى صدره. كنتُ أصغر إخوتي. وضعتُ حنكي على كتفه فاستقرَّ على النجمات الذهبيَّة. وقفت أمّي خلفه، رأيتها تشيح بوجهها عن نظراتي، وتمسح دمعة انحدرت على خدّها. لم أفهم لِمَ البكاء. لم يعطني أحمد قطع الشكولاته تلك المرة كما كان يفعل كلّما جاء من فرقته العسكريّة لتمضية عطلة نهاية الأسبوع معنا. أخبرتني أمّي فيما بعد أن أحمد ترك لي لعبة صغيرة، سيّارة تتحرّك لمسافة قصيرة بعد أن نملأ النابض. فرحتُ بها كثيراً. ولكنَّ أحمد لم يعُد إلينا بعد ذلك اليوم أبداً.

بعد حديثٍ قصيرٍ قدَّمت لهم سوزان خلاله عصير البرتقال الطازج، دعتهم السيدة روبنشتاين للتحوُّل إلى المائدة لتناول العشاء. نظرت السيدة روبنشتاين إلى سليم وأشارت بيدها إلى أحد الكراسي التي تحيط بالمائدة، فوقف خلفه لحظة ريثما يجلس الأستاذ وزوجته. ولاحظ سليم أنَّ سوزان أخذت مجلسها على الكرسي المقابل له في حين قعدت السيدة روبنشتاين على الكرسي المقابل لزوجها. كانت المائدة تتوسَّط المطبخ وصالة الجلوس في فضاء مفتوح واسع، بحيث يسهل نقل الطعام من المطبخ إلى المائدة.

وُضِعت على المائدة أصنافٌ محدودةٌ من الطعام أكثرها من السَّلَطة، يتوسَّطها الديك الروميّ المشويّ، وصحن من البطاطس الحلوة، وسلة صغيرة فيها أقراص من خبز الذرة. أطباق قليلة ولكنَّها ذات طعم لذيذ. « هذا ما استطعت أن أعدّه اليوم.» قالت السيدة روبرتشتاين ذلك بلهجة اعتذار، « إنَّه عشاءٌ تقليديٌّ خاص بعيد الشكر، آمل أن يروق لك ». ولاحظ سليم غياب النبيذ أو المشروبات الروحيّة التي تعدّ من لوازم المائدة في تلك البلاد،

خاصّة في المناسبات، ولم يستطع أن يجزم ما إذا كان ذلك مجاملةً له، لأنَّ الخمر محرَّم في دينه، أم أنَّ هذه الأسرة هي من الأسر الأمريكيّة التي لا يتناول أفرادها الخمور ولا يتعاطون التدخين. وإذا كان سليم قد خمّن السبب في غياب المشروبات الروحيّة من المائدة، فإنّه لم يستطع أن يفسّر خلوها من الكوكاكولا.

قال البرفسور روبنشتاين أثناء تناولهم الطعام :

ـ أنا أفضّل عيد الشكر هذا على جميع الأعياد الأمريكيّة، لأنّه يرتبط بمناسبة إنسانيّة يحتفي بها الجميع، ولا يتعلّق بمناسبة دينية تخصّ فئةً معيَّنةً من المواطنين كما هو الحال بالنسبة لعيد الميلاد وعيد الفصح، ولا بدوافع تجاريَّة شعبيَّة كعيد الحلوين الذي تحوّل إلى مناسبة لتشجيع الاستهلاك، حيث يشجَّع الأطفال والشباب على ارتداء أزياء تنكريَّة زاهية الألوان، والخروج إلى المزارع القريبة، لشراء ثمار القرع الأحمر. بيدَ أنَّ الحقيقة هي أنَّ الرأسماليَّة الأمريكيَّة حوّلت جميع الأعياد إلى مناسبات استهلاكيَّة. ماذا عن بلادك العربيَّة، يا سليم، ما هي الأعياد عندكم؟

ـ معظم الأعياد لدينا دينيّة، مثل عيد الفطر في ختام شهر الصيام رمضان، وعيد الأضحى أثناء الحج، وعيد الميلاد المجيد. وبعضها قديم من زمن السومريّين والفراعنة القدماء مثل عيد أوّل الربيع بعد انتهاء موسم الحصاد في العراق الذي يقابله شم النسيم لدى المصريّين.

وفي آخر وجبة العشاء، نهضت سوزان وحملت إلى المائدة حلوى فطيرة التفاح، وحلوى فطيرة اليقطين وصحناً مليئاً بالفواكه المتنوّعة، وهي تقول: « لقد حرصت أمّي على أن يحتوي هذا الصحن على شيء من التمر، ولكنّه تمر أمريكيّ ».

ـ شكراً، سيدتي، على عنايتك. سأزوّدك بشيء من التمر العراقيّ عندما يصلني.

وبعد أن انتهوا من العشاء، لم ينسَ سليم أن يشكر مضيّفيه ويكيل الثناء للسيدة روبنشتاين على حذقها ومهارتها في الطهي، « إنّه طعام لذيذ جدا، سيدتي! ».

وبعدما عادوا إلى صالة الجلوس وتناولوا القهوة، دعت السيدة روبرتشتاين ابنتها سوزان إلى عزف قطعةٍ موسيقيّةٍ على البيانو ترحيباً بالضيف. تردّدت سوزان وهلة، نظرت إلى أمّها، كأنها تروم أن تتأكّد من إصرارها على الطلب، ثمَّ حوّلت نظرتها إلى سليم، كما لو كانت تريد أن تعرف ما إذا كان يرغب في سماع موسيقى البيانو. ثمَّ نهضتْ ومشت بتؤدة إلى البيانو وجلستْ على النصف الأماميّ للمقعد وظهرها منتصب باستقامة تلفت النظر. وضعت يديها على أصابع البيانو دون أن تحركهما بعض الوقت، كما لو كانت تستجمع نفسها أو تصلّي أو تفكّر في اختيار القطعة الموسيقيّة التي ستعزفها.

ـ « البولنديّة لشوبان »

قالت سوزان ذلك، ثمَّ أخذت أصابعها تلامس أصابع البيانو برقةٍ وبطءٍ أوّل الأمر فتنبعث الموسيقى هادئة، مريحة، ناعمة الملمس، إذا صحّ وصف الصوت بالنعومة، ثمَّ، تدريجياً، بخفّةٍ ورشاقةٍ وسرعةٍ وعنفٍ أحياناً، فتصدح الموسيقى مثل أمواج البحر الهائج التي ترتطم بصخور الشاطئ فتوقظ كلّ شيء حولها فتتطاير النوارس ويرتفع رذاذ الماء الأبيض عالياً إلى عنان السماء.

الموسيقى تفعل مفعولها في النفس، فتنعكس الانفعالات على وجه السامع المتلقّي الذي لا يتابع، عادةً، كلّ جملة موسيقيّة، بل يسرح فكره في فضاءٍ واسعٍ لا يحدّه مكان ولا زمان، وقد يتذكّر حوادث حلوة أو مُرّة، وتعود إلى ذاكرته وقائع سارّة أو حزينة، وتتناسل الذكريات في نفسه بلا قيود. في تلك اللحظة كان وجه سليم ساحةً لانفعالات مختلطة لا يمكن تحديد هُويّتها.

66

كانت لأخي أحمد خطيبة من الجيران اسمها سلمى. وكانا من المفروض أن يتزوّجا بعد أن تتخرج هي من المدرسة الثانويّة. كنتُ ألتقي أحياناً بها في الشارع وأنا في طريقي إلى المدرسة، فكانت تُقبِل عليّ، وتضمّني إلى صدرها وتقبّلني عدّة مرّات، وأحياناً تفتح حقيبتها الجلديّة وتنفحني قطعة حلوى أو أكثر، فأحببتُها لذلك، وكنتُ أعدّها أجمل بنات البلدة، لأنّها كانت بيضاء وفي عينَيها لونٌ لم أرَه في عيون فتيات محلّتنا السمراوات، وكانت تبتسم لي دوماً.

دأبتْ سلمى على زيارة أُمّي وأخواتي كثيرا أثناء غياب أحمد، فهي صديقة أختي نعيمة، وكثيراً ما أراهما تتهامسان وتضحكان. وعندما سألتُ أختي، ذات مرّة، عن سبب ضحكهما، قالت إنّ أحمد، ذات مرة، أمضى الليل كلّه واقفاً في الشارع أمام دار سلمى على أمل أن تطلّ من الشرفة أو الشباك فيراها، ولكنّها كانت تغط في نوم عميق. وعندما بلغنا خبر استشهاد أخي أحمد في معركة جنين بفلسطين، رأيتُ سلمى تدخل دارنا وتعانق أمّي وأخواتي واحدةً واحدةً، ثمّ تشاركهن البكاء والنواح والعويل ولطم الخدود. كانت حزينة بحرقة ولوعة. ولكنّ زياراتها لأهلي قلّتْ شيئاً فشيئاً بعد ذلك حتّى انقطعت عن زيارتنا. وسمعتُ أنّها تزوّجت معلماً في المدينة القريبة أصله من بلدتنا.

ومع أنّ أحمد لم يعُد إلينا أبداً وإنّما ظلّ ثاوياً هناك في مقبرة الشهداء العراقيّين في جنين، ومع أنّ سلمى تزوّجتْ وانتقلت إلى بلدة أخرى ولم نعُد نراها، فقد ظلّت أمّي تذهب كلّ يوم إلى غرفة أحمد في الطابق العلوي من منزلنا، وتمضي بعض الوقت هناك. وأثار سلوكها هذا حبّ استطلاعنا ـ نحن الصغار ـ فكلّفنا أحدنا ـ حسن ـ ذات يوم ليتجسّس عليها، ويرى ما كانت تفعل في تلك الغرفة. أخبرنا حسن أنّها كانت تنظف الغرفة وتجدّد وضع

الملايات على السرير، ثمَّ تعدّل من صورة أحمد على المنضدة، وتضع الزهور بجانبها كما لو كان عرسه تلك الليلة. ودأبت على فعل ذلك سنةً بعد سنة. ذات يوم قرَّرنا نحن الصغار أن نخبرها بأنَّ أحمد قد مات منذ مدّة طويلة وأن لا زواج في الأفق. ولكنَّنا فوجئنا بردِّ فعلها، قالت باستغراب: «عجيب ألا تعرفون أنَّ الشهداء أحياء عند ربِّهم يرزقون؟ عرس أحمد في الجنة». كان بعضنا على وشك أن يقول لها، ولكنَّ دارنا هذه ليست الجنة، إنّها دار بسيطة في بلدة صغيرة في محافظة القادسية في العراق. ولكنَّنا أحجمنا عن قول ذلك أدباً واحتراماً لأمِّنا الحبيبة.

67

صفَّق والدا سوزان لها طويلاً بعد أن انتهت من عزف مقطوعة شوبان، وشاركهما سليم في التصفيق تعبيراً عن الإعجاب. وبعد لحظات نهض البرفسور روبنشتاين بصحبة السيدة زوجته وهو يوجِّه كلامه إلى سليم:

ـ الآن نذهب إلى غرفة نومنا، فنحن نأوي إلى فراشنا مبكراً، للسنِّ أحكامها. أرجو أن تشعر أنَّك في بيتك.

ثمَّ نظر إلى ابنته وأضاف مخاطباً سليم :

ـ وأنتَ في أيدٍ أمينة، وسنراك على مائدة الفطور في صباح الغد. تُصبحان على خير.

نهضت سوزان وطبعت قبلة على خدِّ كلٍّ من والدها ووالدتها، مردِّدةً Good night.

في ليلة عيد الشكر ذاك، في منزل الأستاذ روبنشتاين، كان سليم مأخوذاً بكلِّ شيء، فقد تدفَّقت عواطفه من أعماقه مثل ينبوع جبليّ، وتفجَّرت مشاعره مثل حُمم بركان ثائر، إذ حاصرته أصنافُ الجمال من كلِّ صوب، جمالٌ لا يرحم؛ فقد أطفأت سوزان الأنوار الكهربائيّة، ولم يبقَ سوى نور القمر يتسرَّب عبر واجهة

الصالة الزجاجيَّة المطلَّة على البحيرة، وضوءٍ خافتٍ ينبعث من شموعٍ بيضاءَ موقدة في كلِّ زاوية من الصالة، يداعب لهيبها عينَيه فيُصابُ بشيء من الغَشوة تفقد الوجوه والأشياء معها واقعها وتتَّشح بلون الخيال والحُلم. باقات الزهور المتفتِّحة الربيعيّة الألوان، المرتبة بأناقةٍ مدهشة، تزيِّن المناضد ورفوف الكتب ومائدة الطعام. موسيقى باخ المنبعثة من جهاز التسجيل "الهاي فاي" تصدح في حنايا الروح، مياه البحيرة الممتدّة أمام ناظريه يتلألأ عليها نور القمر راسماً شجرة عيد ميلاد فضية اللون لا يشوب صفاءها إلا مرور قوارب العشّاق المتهادية على أمواج البحيرة في تلك الليلة الفريدة في مسيرة العمر القصير. ها هو الأستاذ يترك ابنته في يديه، وبإمكانه أن يخطفها ويذهب بها بعيداً على أجنحة الرغبة والحلم. الكاتب البريطاني د.هـ. لورنس خطف زوجة أستاذه التي كانت تذكّره بأمِّه ورحل بها في باخرة إلى أمريكا، ليقاسي غربتَين معها: غربة العمر وغربة العجز. فهل يجرؤ هو على خطف ابنة الأستاذ والذهاب بها إلى العراق لتقاسي هي الغربة هناك؟

سألتُ نفسي عن طبيعة العلاقة التي تربطني أو التي ستربطني بسوزان. كنتُ أصنِّف علاقة الرجل بالمرأة ثلاثة أصناف: علاقة حاجةٍ جنسيَّة، مثلما يكون المرء في جوعٍ فيُقبل على الطعام سواء أكان لذيذاً أو غير لذيذ؛ وعلاقة اشتهاء امرأةٍ مثيرةٍ؛ وأخيراً علاقة الحبِّ التي قد يشكِّل الجنس أو لا يشكل مكوِّناً من مكوِّناتها. في تلك الليلة شعرتُ بأنَّني أشتهي سوزان وأتوق إليها بكلِّ ما بي من ذكورةٍ عارمةٍ محرومةٍ.

في طفولتي كانت دارنا تطلُّ على نهر الفرات، وكنتُ أذاكر دروسي على ضوء الشموع والفوانيس. فصارت خلطة الماء والموسيقى وضوء القمر والشموع هي التعويذة السحريّة التي ترفعني، في الليالي المقمرة، بعذوبةٍ ونعومةٍ من مقعدي، وتحملني مخدَّراً على أجنحتها الشفّافة كما لو كنتُ قد تناولت المراوانا أو

أي مخدِّرٍ لطيف، محلِّقة بي بعيداً بعيداً في عوالم الحُلم والخيال.

ولكنَّ تلك الليلة أضافت إلى جحافل الجمال الذي يحاصر سليم جمالاً لم يعهده من قبل. إنَّه جمال سوزان بكل مفاتنها المتعدِّدة السحر، وروعة غمازة الخدَّين التي تغار من ابتسامة الثغر الأخّاذة، وفستانها الأبيض الناعم الذي يكشف عن عنقها العاجيّ الطويل، ويشكو نفور النهدَين، ورقّة ساعديها البضتَين، وشعرها الذي تبعثرت خصلاته الذهبيَّة على كتفَيها العاريتَين. لم يرَ شعرها بتلك الصورة المثيرة من قبل، فقد حرصتْ دائماً على أن تأتي إلى الجامعة وقد ضمّت شعرها مثل زهرة الداليا في مؤخر رأسها، وأخفتْ رقبتها وساعدَيها بقميصٍ طويلِ الكمَّين ذي ياقة عريضة. أمَّا هذه الليلة، فقد ظهرت سوزان الأنثى التي حجبت العقل، وعطّلت الحجاج المنطقي، وكشفت عن جسدها الفاتن وأطلقتْه في حلبة الاشتهاء.

عندما اختلى سليم بسوزان، كانت هنالك وهلة صمت. نظر إليها دون أن يتكلَّم. قالت بتردد:

ـ أعرف أنّك تتساءل لماذا لم أخبرك بأنَّ البرفسور روبنشتاين هو والدي. أردتُ أن أحتفظ بذلك مفاجأةً لك.

ـ إنَّها مفاجأةٌ سارَّة جدًّا لي، فقد أحببتُه والسيدة زوجته منذ اليوم الأوَّل الذي التقيتهما داخل الطائرة في رحلتي من نيويورك إلى أوستن. وطبعاً لم أستطِع إدراك العلاقة بينكما لعدم انتباهي إلى التشابه بين اسمك « روبرتسون» واسمه « روبنشتاين ».

ـ لقد حوَّرتُ اسمي متعمِّدةً، لتفادي مشاعر الخوف من العداء للساميَّة أو التمييز العنصريّ الذي لم يتخلَّص منه كثيرون في هذه البلاد. الخوف من الآخر قد يولِّد الكره فينا. ومشاعر الكراهية تحطِّمنا من الداخل. فهناك مَن لا ينظر إلى الفرد بوصفه إنساناً مثله بل يصنّفه طبقا لدينه أو جنسه أو عرقه أو لونه. وأضافت

بابتسامةٍ مازحةً: أنتَ لستَ من هؤلاء، يا سليم، أليس كذلك؟

بقي سليم صامتاً، فاستأنفت سوزان كلامها قائلةً :

ـ كثيرٌ من اليهود غيَّروا أسماءهم تفاديا لمشاعر العداء للساميّة، فالمغني بوب ديلون كان اسمه روبرت زمرمان، والنجم السينمائي كيرك دوغلاس كان اسمه أيسود دومسكي، وكذلك مقدّم برنامج مقابلات في فضائية سي أن أن، لاري كينغ. ولمحاربة التمييز الديني العنصري ضدّهم في أوربا وأمريكا، أيّد اليهود نشر الديمقراطيّة والعلمانيّة.

فقال سليم مقاطعاً :

ـ ولكن ليس في إسرائيل.

قالت بابتسامة :

ـ هذا صحيح، وهذا ما تحدَّث عنه والدي في محاضرته.

في حقيقة الأمر، وفي عمق الأشياء، كانت صدمةً أليمةً لي. على الرغم من أنَّني كنتُ منجذباً لسوزان، فإنَّني كنتُ عازماً على أن تبقى علاقتنا في حدود الزمالة الجامعيّة، أو الصداقة البريئة، إذا كان بالإمكان وجود هذا النوع من الصداقة بين رجل وامرأة. ومع ذلك، بصورةٍ لا شعوريّة، لم أتقبَّل صداقةً مع فتاة يهوديّة، حتّى إن كان والدها معاديا للصهيونيّة. ماذا سيقول عنّي الطلاب العرب إذا رأوني معها؟ ها هو الوطنيّ الغيور، ابن المجاهد ضد الاستعمار البريطانيّ، وأخو النقيب الشهيد في معركة جنين في فلسطين، يرافق فتاةً يهوديَّة أمريكيَّة في الوقت الذي يذبح اليهود أبناء جلدته يوميًّا في فلسطين، وفي الوقت الذي يتولّى اليهود الأمريكان إمداد المغتصبين الصهاينة بالمال والسلاح، وقيام اللوبي الصهيونيّ بتوجيه سياسات الحكومة الأمريكيّة إلى معاداة العرب، وتشويه صورة العرب في وسائل الإعلام وصناعة السينما التي يسيطرون عليها. ماذا سيقولون عني؟ ألم أجد، لسوء حظّي العاثر،

زميلةً إلا هذه اليهوديّة الحسناء، يا إلهي؟! الناس ترى ظواهر الأشياء ولا تبصر بواطن الأمور.

وفي الصخب الناتج عن صراخ عقله برفض تلك العلاقة، يضيع ذلك النبض الواهن المنبعث من قلبه والهامس باسم سوزان. انتبهَ إلى أنَّ سوزان قد سألته عمّا إذا كان هو عنصرياً، ولكنّه بقي صامتاً يبحث عن جوابٍ مناسبٍ. قالت له :

ـ لماذا لا تترك البحث عن الجواب الآن، ولنذهب نبحث معاً عن جمال الكون في سكون الليل. فلدينا قارب عند بوابة المنزل الخلفيّة المطلّة على البحيرة.

قادته برفق من يده. هبطا السُّلَّم الخشبيَّ المؤدّي إلى البحيرة. صفّان من شجيرات الورد والليلك يحيطان بالممرّ الخشبيّ، يحيطان بهما. جلسا في القارب. تناولتْ هي المجدافَين، جدَّفت القارب برفق بعيداً عن مرساه في اتّجاه وسط البحيرة. هناك أمسكت عن التجديف. ترنَّح القارب متباطئا. لم يدرِ تماماً ما إذا كان القاربُ قد توقّف أم أنَّه ما زال منساباً على صفحة الماء. فقد انتشى بمنظر الماء وخريره. وأعشى عينَيه ضوءُ القمر. وبعد وهلةٍ نظرَ إلى وجهها المشرق الباسم كالبدر. في تلك الليلة كان أسيرَ قمرَيْن في وقت واحد. رفعت المجدافَيْن ووضعتهما على جانبَي القارب، ثمَّ قالت :

ـ الآن، جاء دورك. أنتَ الذي ستسيِّر القارب. خذني إلى حيث شئت.

أنا ملاح سومري، ضَلت سفينتي الشراعيَّة. قادتني ريح عاتية إلى هذه البحيرة النائية المستلقية بهناء في أحضان تلال تكساس الغافية. أنا ربُّ القوارب والمراكب والمرادي. أنا سندباد بحريٌّ جال العالم وقاسى الأهوال والصعاب، وهو اليوم يريد العودة إلى أهله، محمَّلاً لا بالجواهر والذهب، بل مثقلٌ بالهموم، مثخن بالأحزان.

نهضت سوزان بخفة من مقعدها لتتبادل معه المكان. قام هو بارتباك، فاهتزّ القارب بشدّة ، أمسك بيدها، فقدا توازنهما، فوقع جالساً على المسطبة الوسطى في القارب ووقعت هي في حضنه. لم يتحرّكا لبعض الوقت، ثمّ أخذت يده اليمنى بكلتا يديها ووضعتها على صدرها بالقرب من قلبها. أحسّ بنبض قلبها مسرعاً، فخفق قلبه هو الآخر. أسندت رأسها إلى كتفه. تدلّت خصلات شعرها الناعم الطويل في حضنه مثل شلال ، ودون أن يدري طوقها بذراعه ومدّ يده الأخرى لتمسّد شعرها برفق. كانت تنظر في عينَيه بصمت، وكان ينظر إليها بصمت، لم يكُن بينهما سوى النسيم والنظر ولغة العيون، وغطّا في ما يشبه الإغفاءة الحالمة.

عندما درستُ نظرية الاتصال وأنواع اللغات: لغة الإنسان، لغة الحيوان، اللغات الطبيعيّة، اللغات الاصطناعيّة، كنتُ أوقن في أعماقي أنَّ لغة العيون أقوى لغات التواصل التي عرفها الإنسان. لغة العيون أقوى من أيِّ خطاب منطوق أو مكتوب. هي أشبه بالإشارات اللاسلكية المشبَّعة بجذب مغناطيسيٍّ شديد. ولكنّها الأقوى تعبيراً، والأسرع تبليغاً، والأمضى فتكاً.

في طفولتي في ليالي الشتاء الباردة، دأبت قطتي المدلَّلة على المجيء إلى فراشي، تقف قليلاً تنظر إليّ بعينيَها الخضراوَين، وكأنّها تستأذنني أو تحاول سبر رغبتي قبل أن تندسَّ تحت لحافي وتلصق جسدها بجسمي. فأمدّ يدي لأمسّد جلدها المكسو بشعرها الناعم، وأشعر بالدفء واللذة.

لم يدرِ كم من الوقت مرّ عليهما وهما على تلك الحال. أفاق من غفوته. نظر إلى سوزان. كان رأسها ما يزال على كتفه، وذراعها العارية البضة تطوّق عنقه، وعيناها مغمضتان فبدت كأنّها إحدى الجميلات في رواية « منزل الحسناوات النائمات » للكاتب الياباني ياسوناري كاواباتا، الذي انتحر بعد فترة وجيزة من فوزه بجائزة نوبل للآداب، تماماً كما فعل قبله الكاتب الياباني

الشهير أوسامو دازاي، وكما فعل بعده الأديب الياباني الأشهر يوكيو مشيما.

لماذا ينتحر هؤلاء الأدباء اليابانيون؟ أتراهم تعجز أرواحُهم المرهفةُ الإحساس عن تحمُّل مشاعر الحبِّ العاصفة؟ أم أنَّ هنالك أسباباً خفيَّة؟ زميلتي اليابانية يوكيكو، هي الأخرى، انتحرت الشهر الماضي دون سبب ظاهر، فشعرنا، نحن زملاءها ، بالغصّة والأسى المرّ، وفي الوقت نفسه دهمنا شعور بالذنب، لأنّنا كنا نغبطها أو نحسدها بسبب تفضيل أستاذنا أرتشبولد أي هِيل لها علينا. إنّهم ينتحرون بسهولة في اليابان، ولا أدري كيف يوفّقون بين الاستهانة بالحياة وبين تعظيم قيمة العمل الجادّ من أجل ترقية الحياة؟ !.

نظر إلى سوزان، فرأى أنوثة طاغية تتألّق في فضاءٍ كلُّ ما فيه يبعث على تذوّق الجمال والفنّ. التقت نظراتهما، استلهمتْ مغازي نظرته الرجوليّة، غضّت من بصرها، تجرَّدت من ترددها، وجرّدت جميع أسلحتها: سوّت من سنابل شعرها الذهب على منكبيها العريضَيْن، أبانت عن أسنان لؤلؤيّة بابتسامة أخاذة، تورّد خدّاها الأسيلان، وامتدَّت يداها الرقيقتان لتخلع سترتها السوداء، فبان كتفاها البضّتان اللتان أخذ لونهما يتناغم مع لون فستانها الحريريّ ونور القمر الخافت. ازدادا التصاقاً، تقارب وجهاهما، أحسَّ بأنفاسها تعلو، تتردَّد، تلهب وجهه. فجأة انتفضت واقفة أمامه بقامتها الرشيقة الفارعة الطول، فبدت في فستانها الأبيض الطويل مثل عروسٍ في ليلة زفافها، أو مثل مهرةٍ أصيلةٍ تتأهَّب للطراد.

68

في طفولتي وصباي، كان والدي يمتلك عدداً من الخيول العربيّة الأصيلة، وعلّمني منذ صغري كيف أعتني بها وأصطحبها إلى النهر مرَّتَيْن في اليوم لترد الماء. كنتُ أعشق مهرةً من تلك الخيول، خفاجيَّة عربيَّة أصيلةً محجَّلة. كنتُ قد شهدتُ

مولدها بنفسي، فظلّت عملية الولادة حدثاً ينتفض في ذاكرتي دوماً بالروعة والجمال والمعجزة. ومنذ تلك اللحظة وأنا مشدود بأحاسيسي وعواطفي إليها. ورحتُ أرقبها وهي تكبر لتصبح مهرةً رائعة الحسن، بهيّة الطلعة؛ ذات جسم متناسق الأعضاء، ولونٍ كستنائيّ مشرب بحمرة رائقة؛ ولها عنقٌ مقوّس طويل ذو عُرْفٍ ناعمٍ حريريٍّ منسدلٍ على جانبَيْه، ورأسٍ مخروطيٌّ الشكل جميلٍ. يتوسّط جبهتها العريضة الشقراء هلالٌ أبيضُ يزيد طلعتها حسناً، وبرتاح عليها شعر ذؤابتها، ولها عينان واسعتان ذات نظراتٍ ذكية، وأهدابهما طويلةٌ سوداء، وأذنان صغيرتان متّجهتان دوماً إلى الأمام كأنّها تريد أن تسمع ما أقول لها؛ وجلدها رقيق يبدو أملسَ لنعومة شعره وقصره، وظهرها طويلٌ منبسطٌ، ويبتعد ذيلها المتدلّي عن جسمها، ويرتفع بشكلٍ رائعٍ مثل ريشة نعام، ثمَّ ينسدل إلى الأسفل حتّى يكاد شعره يُلامسُ الأرض. خطواتها كانت موقّعة راقصة، ولفتاتها سريعة حلوة منغّمة مثل لفتات المها. كنتُ آتيها بالطعام من الدريس والشوفان ونخالة أُمّي، وأصطحبها إلى النهر لتشرب، وأغسل جسدها بفرشاة ناعمة وأمسّده بأصابعي وأنا أدس في فمها قطع السكر بين الفينة والأخرى. كنتُ أشعر من نظراتها ومن نغمة صهيلها عندما أقترب منها أو أبتعد عنها، بأنّها تبادلني المحبّة. كانت لا تدع أيًّا من إخوتي يقترب منها، ولو لم أكُن موجوداً. وما إنْ بلغت السنة الثالثة من عمرها حتى أخذتُ امتطيها. كنتُ أركبها عارية بلا سرج، خاصّةً في أيام الصيف عندما نعبر النهر إلى الضفة الأخرى حيث الفضاء شاسع يصلح للجري والطراد، فكانت تسبح فرحةً منتعشةً ببرودة الماء. كان التفاهم والتجاوب بيني وبينها تاماً، إذ نشعر معاً بالانسجام والتناغم والتواطؤ في الحركة والسرعة والاتّجاه. يكفي أن أضغط بركبتي أو فخذي على بطنها التي كنتُ أحيطها بساقي، أو أحدث لمسةً خفيفةً بكعب قدمي اليمنى على خاصرتها، لتزيد سرعتها بالقدر الذي أروم، فتنتقل من الخطو إلى الخبب؛ وبعد دقائق

أرخي لها العنان قليلاً وأضغط بركبتي على بطنها، فتنتقل من الخبب إلى الرَّمح؛ وجذبةٌ واهنةٌ للرسن كانت كفيلة بجعلها تغير الاتجاه إلى حيث أريد. وعندما تبلغ أقصى سرعتها، أنحني مقترباً من عنقها وكأنّي أروم تقبيلها، أمسك بخصلة من عرفها، ألتصق بها أكثر ما أستطيع، أمدّ ساعدَيَّ إلى أقصى ما تبلغانه من رقبتها الطويلة ، ألمسها برفق، أمسّدها بأصابعي بأناة، ألصق خدّي الأيمن على ملمسها الناعم، أقبّلها بشفتيَّ مرة وأخرى وثالثة، أردّد اسمها مراراً كما لو كنتُ استمطر الحبَّ، والريح تصفر في أذنَي، تتوقف حاسة السمع عندي، وتتفاقم حاسة اللمس، أشعر بنشوة حتّى أحسّ بأنّني أصبحت جزءاً منها أو هي امتداداً لجسدي، نصير كياناً واحداً في وجه الريح والمكان والزمن. وأنا فوقها أحسُّ، والنسيم يداعب وجهي، بأنّني أتبوأ مكاناً عالياً مرتفعاً عن الأرض، قريباً من النجوم والقمر، أحلّق في أجواءَ شاهقةٍ، أطير من النشوة، أشعر بالامتنان لها، لأنّها تمنحني تلك اللحظات الموغلة في اللذة والفرح والسعادة، فأنحني أكثر على رقبتها الطويلة حتّى يقارب رأسي رأسها، وكأنّي أقبّلها، فأسمع همهمة تصدر عنها، وكأنّها تقول لي « وأنا سعيدةٌ كذلك ». أذكر أنّني سقطتُ من على ظهرها ذات يوم وهي منطلقة. سرعان ما توقّفت، عادت إليّ قلقة، مدّت رأسها إليّ كأنها تشمني، وأخذت تحرّك رأسها إلى الأعلى وإلى الأسفل، كما لو كانت ترجوني أن آخذ الرسن بيدي، أنهض، أمتطيها، أعاود الركوب، والانطلاق، واقتسام لذّة الجري معها. كان اسمها حبيبة.

69

تتداول الأيام من حيث كونها يوماً للفرح ويوماً للترح؛ يوماً للمرح ويوماً للجد؛ يوما للرضا ويوماً للسخط. والأماكن كذلك تجمع بين الأحزان والأفراح، وبين الفشل والنجاح، وبين التعاسة والسعادة، حتّى إن الإمام علي أوصى ولده الحسن يوما بقوله:

« يا بُني! الدنيا يومان: يومٌ لكَ ويومٌ عليكَ. فإذا كان لكَ فلا تبطر. وإذا كان عليكَ فلا تضجر؛ فكلاهما منصرم ».

وحالات الاستثناء نادرة، فقلّما نجد يوماً خالصاً للفرح، أو مكاناً مُبرَّأً من السوء. ومن هذه الحالات النادرة حفل التخرج، فهو مناسبةٌ خالصةٌ للفرح والرضا والشعور بالنجاح، زماناً ومكاناً. فجميع مَن يحضره مفعمٌ بالسرور والإحساس بالإنجاز: الخريّجون، وأهلهم، وأساتذتهم. إذ يشعر الخريجون أنّهم حقّقوا نجاحاً في دراستهم، وأنّهم مقبلون على حياة جديدة سعيدة. ويشعر الأهل بأنّهم نجحوا في تربية أولادهم وأوصلوهم إلى نهاية المشوار الجامعيّ. ويشعر الأساتذة بأنّهم أدّوا رسالتهم التربويّة على خير وجه. وحتّى العمال الذين نظّموا حفل التخرج بجامعة تكساس في أوستن، كانت البهجة مشرقة على وجوههم، ربّما لأنّهم سيتمتّعون بعطلتهم الصيفيّة بعد هذا الحفل.

عُقِد حفل التخرج في جامعة تكساس ذلك العام في الساحة الكبرى أمام المدخل الرئيس لبُرج الجامعة. وتتوسّط تلك الساحة بركةٌ مستطيلةٌ تنطلق من وسطها عدّة عيون ماء اصطناعيّة. وتطلّ هذه الساحة الكائنة على ربوةٍ عريضةٍ، على بناية الكابيتول التي تضمُّ مكتب حاكم ولاية تكساس وإدارته. وقد رُتِّبت فيها آلاف الكراسي للخريجين على الجانب الأيمن والضيوف على الجانب الأيسر، وكلٌّ مجموعة من الكراسي يجمعها لونٌ معيَّنٌ مخصَّص لإحدى كليّات الجامعة، كالآداب والعلوم والهندسة وغيرها. وفي القسم المخصَّص للخريجين، كانت هناك لافتات تُرشد الطلاب إلى أماكن مقاعدهم: طلبة الدكتوراه في المقدِّمة، وطلبة الماجستير بعدهم، ثمَّ طلبة البكالوريوس، وجميعهم يلبسون رداء التخرُّج الخاصّ بجامعتهم ذا اللون الأزرق الغامق، المزينة ذراعاه بخطوط سوداء، ويعلوه وشاحٌ أحمر يتوسّطه شريطٌ أبيض.

وجلس رئيس الجامعة وعمداء الكليات ورؤساء الأقسام العلمية

على منصة عريضة عالية يتوسَّطها منبر قائم وعليه لاقطة مكبِّر الصوت.

وفي الساعة المحدَّدة، وصلت طائرة الهليكوبتر التي تقلّ رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية، ريتشارد نكسون، وهبطت في الملعب الكبير إلى جوار الساحة. فقد دأبت الجامعات الأمريكيّة على دعوة شخصيّات بارزة لإلقاء الخطاب الرئيس في حفل التخرُّج. واعتاد كلُّ رئيس أمريكيّ أن يختار جامعةً أو جامعتَين لإلقاء خطاباً في حفل التخرّج الذي تنظّمه آخر كلّ عام دراسيّ، تكريماً للعلم ولاغتنام المناسبة لعرض سياسات أمريكاً في أهمّ القضايا الدوليّة والداخليّة. وأشار الرئيس إلى جهوده في سبيل إنهاء الحرب في فيتنام عن طريق المفاوضات، دون أن تفقد أمريكا هيبتَها أو تبدو منهزمةً منسحبةً خاسرة في تلك الحرب.

بعد أن ألقى الرئيس الأمريكيّ خطابه، توجّه رئيس الجامعة إلى المنصة لإلقاء خطابه. فخاطب طلبة الدكتوراه بقوله: أيّتها السيدات والسادة، إنَّ الشهادة التي نسلّمها إليكم بعد قليل لا تعني أنكم أصبحتم علماء، وإنّما تعني أنّكم قادرون على القراءة والبحث والتعلّم. فالجامعة لا تعطي طلابها العِلم، فالعلم يصنعه ويكتسبه الباحثون. الجامعة تُطلع طلابها على طرائق البحث العلميّة، وكيفية النفاذ إلى مصادر المعلومات، ومنهجيّة حلّ المشكلات.

وبعد أن انتهى رئيس الجامعة من إلقاء خطابه، صدحت الموسيقى معلنة بدء توزيع الشهادات. ولأنَّ أعداد الخريجين تتجاوز بضعة آلاف (فعدد طلاب جامعة تكساس آنذاك يربو على الأربعين ألف طالب وطالبة)، فإنّ الشهادات لا تُسلّم من قبل الرئيس إلا للطلبة الحائزين على الدكتوراه، وعددهم لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين، وللخريجين الأوائل في كلّ كلية، وعددهم لا يتجاوز العشرين كذلك. أمّا بقية الطلبة، فإنَّ عريف الحفل يطلب

من خريجي كلّ قسم من الأقسام العلميَّة الوقوف، فيخاطبهم رئيس الجامعة بقوله: « منحتكم جامعة تكساس في أوستن شهادة البكالوريوس في الآداب، أو العلوم... » ثمَّ يجلسون.

ويتمتَّع الطلبة الحائزون على الدكتوراه بميزة على غيرهم من الخرّيجين هي أنَّهم يتوجَّهون واحداً واحداً إلى المنصة وهم يحملون رداء التخرج وغطاء الرأس الخاص به ويتولَّى الأستاذ المشرف على الدكتوراه وعميد الكلية ورئيس الجامعة بخلع رداء التخرج على الطالب. ولا تستغرق العملية أكثر من دقيقة واحدة لكلّ طالب، يسمع فيها منهم كلمة التهنئة ويسمعون منه كلمة الشكر.

لا يعرف سليم كيف خطر بباله، وهو يتوجَّه إلى المنصة، أن يخاطب رئيس الجامعة بقوله :

ـ «يشرفني أن أرتدي زياً عربيّ الأصل »،

فيرد الرئيس بنغمة الاستفهام :

ـ « المصدر؟ »

فيجيب سليم :

ـ « دوزي، معجم الملابس العربيّة ».

فيقول الرئيس :

ـ « شكراً، أنا أتعلَّم من طلابي باستمرار ».

وكأنّه يردِّد مقولة الإمام أحمد بن حنبل : " مع المحبرة إلى المقبرة".

نعم، كان جميع من حضروا حفل التخرج مبتهجين إلا سليم، فقد كان الشعور بالغربة يخنق البهجة على ملامح وجهه.

70

لا يعرف سليم متى أخذ شعوره بالغربة يتفاقم حتى احتلّ عرصات الفكر كلّها، وأخذ بتلابيب الفؤاد جميعها. كان وجيب قلبه يشتدّ كلّما ذكر أهله، يتزلزل من الأعماق، وتتصدع سكينته. شعر بأنّ غربته قد تمادت وامتدت إلى ما يفوق صبره المترنّح. صار غبار المسافات يحجب عنه رؤية معالم الوطن. وأصبح ضباب السنين يخفي ملامح الأصحاب والأحباب. تذكّر أنّ هذا الشعور أخذ ينتابه بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه في فترات راحت تتمادى في توسّعها. لا بدّ أنّ هذا الشعور بالغربة كان يتقزّم أمام عملاق طموحه في نيل تلك الدرجة العلميّة، أو أن ذلك الطموح ملأ عليه جميع مشاعره وغطّى غيره من الخواطر، وكان يؤمّل نفسه أنّ الأمور ستتغيّر في بلاده وسيعود إلى موطنه. فلمّا نال الدكتوراه وأشبع طموحه، طفا ذلك الإحساس بالغربة وصار يمدّ عنقه أكثر فأكثر حتّى أبان عن وجهه الرهيب المخيف، بحيث أمسى سليم ينظر إلى وجوه المارّة في هذه المدينة فينكرها بل لا يستسيغها. إنّها وجوه غريبة كما هو غريب عنها. وأخذت أصوات أهلها تبدو له نافرة ناشزة لا معنى لها، على الرغم من إتقانه اللغة الإنكليزيّة.

ينظر إلى شوارع المدينة وأبنيتها، فيجدها غريبة العمارة، لا تلقى منه إلا الاستغراب بل الاستهجان. وأخذ يتساءل ما إذا كان الجمال موضوعيًّا يكمن في خصائص الشيء الذي نراه، أم أنّه ذاتي يعتمد على ذات الشخص الذي ينظر إلى ذلك الشيء. وهل يتغيّر حكم الفرد على الموضوع نفسه بتغيّر الظروف والمكان والزمان. فعند وصوله إلى هذه المدينة أوّل مرّة، كان يجدها جذابة فاتنة تزدان شوارعها بالأشجار المورقة التي تتقافز عليها السناجب الصغيرة، وبالمارّة الذين تطفح وجوههم بالبِشر والبسمة. أمّا اليوم فلم يعُد يشعر بالارتياح إلى الفضاء وما يؤطره من أشجار وحيوان

وإنسان. حتّى السناجب الصغيرة التي كانت قد أثارت انتباهه وإعجابه عندما وصل أوّل مرّةٍ إلى أوستن، وهي تقطع الشوارع بخفّةٍ وتتسلق الأشجار بسرعةٍ، أخذت تزعجه وتثير أعصابه. ووجد نفسه، وهو يسير، يردّد أبياتاً من قصيدةٍ لعبد الوهاب البياتي:

غريبٌ كنتُ في وطني وفي المنفى
جراحاتي التي تُشفى
ستفتح في غدٍ فاها
لتسألني
لتصلبني
على شبّاك مستشفى
فأوّاها
بعيدٌ أنتَ يا وطني!
كحُلم عبر نافذة القطارِ أراكَ في الوسنِ
نخيلُكَ في ضباب الفجر أيقظني...

لم يكُن لدى سليم شكٌّ في أنّ الإنسان في جوهره إنسان، ولا فرق بين إنسانٍ وآخر مهما اختلفا من حيث العرق أو الجنس أو المعتقد. هكذا علّمه أبوه في صغره وهو يستشهد بمقولة الإمام علي بن أبي طالب التي وردت في عهده إلى الأشتر، عندما بعثه والياً على مصر: «فالناس إمّا أخٌ لك في الدّين، أو نظيرٌ لك في الخَلق». ولكنّ العقل شيءٌ والعاطفة شيءٌ آخر. فهو يؤمن أنّ أحاسيس الفرد ومشاعره هي وليدة الثقافة التي ترعرع فيها، وتغلغلت أنماط تفكيرها في عروقه، وجرت في دمائه، وكوّنت وجدانه. صحيحٌ أنّ الثقافات كلّها تنتمي إلى الحضارة الإنسانيّة، غير أنّ لكلّ ثقافة لغتها، وتاريخها، وتقاليدها، وعاداتها، وسلوكها. وإذا انتقل الإنسان من ثقافة إلى أخرى، فإنّه يحسّ بنوعٍ من الغربة. وقد لا يتقبّل بعض تصرفات أبناء تلك الثقافة الجديدة ولا يرتضيها، كما أنّ

سلوكه الذي يبدو له طبيعيًّا، قد لا يستسيغه أبناء تلك الثقافة ولا يرتضونه. أصبح وجوده يتضمَّن كائنَين: فكما أنَّ لقطعة النقد وجهيْن، وللوجه عينيْن، وللنهر شاطئيْن، فإنّ وجوده له ذاتان: هو والوطن.

هذه هي السنة السابعة من عمر غربتي. نعم، سبع سنين وأنا أحمل على عاتقي الواهي عبء غربتي الذي هدَّ حَيْلي. أما آنَ الأوان لأُلقي هذا الحمل الثقيل من منكبَيّ؟ يراودني أملٌ سومريٌّ في أنَّني سأستريح في السنة السابعة، كما كان السومريّون الذين ابتكروا تقسيم الزمن والحساب، يستريحون من العمل في اليوم السابع، كما خلق إلههم الكونَ في سبعة أيام واستراح بعدها. سبعة، هذا الرقم المقدَّس لدى السومريِّين، ألا يستطيع أن يُثبِت قدسيَّته عندي ويعيدني إلى وطني. سبعة. فالنجوم التي قدّسها السومريّون سبعة، تماماً كما ذهب العرب بعدهم إلى أن الثريا في السماء تتألف من الأخوات السبع، وحتّى الجفاف في زمن يوسف لم يدُم أكثر من سبع سنوات، جاء بعده الخصب والنماء. ترى هل ينتهي جفاف روحي بعد هذه السنوات السبع من الغربة، فقد أتت بقرات الغربة العجاف السبع علي بقية الفرح في حشاشتي، يا إلهي. أصلّي صلاة الاستسقاء، لعلّ سحابةً مرَّت في أعالي وطني، تتصدّق عليّ هنا، من سماء المستحيل، بقطراتٍ تحمل مذاق الفرات وطعم الوطن.

انظر إليّ يا ربي، فأنا مثل سالك الصوفيَّة المتقرِّب إليك، مررتُ بجميع المقامات السبعة، وأنا في المقام السابع، إلا تسبغ عليّ شيئاً من الرضا وتعيدني إلى وطني، كما أعدتَ يوسف إلى أهله بعد السنة السابعة؟

غريب أنا. لا أعرف مَن حولي ولا أتبيَّن ما حولي. اشتدّت بي الغربة حتّى إنّني لم أعُد أعرف نفسي، بل ينكر بصري ردائي، ويستغرب سمعي من لساني. غريبٌ عن أرضي، غريبٌ عن أهلي،

غريبٌ عن لغتي وفكري. أقتاتُ على مذاق الحنين، والذكريات ملح طعامي. تحيط بي أبنيةٌ لم آلفها من قبل، وتحيق بي وجوهٌ لا أعرفها. وتحدِّق بي نجومٌ لا يلامس ضوؤها أهدابي، ولا ينفذ شعاعها إلى قلبي. إنَّ الشقاء يلثغ اسمي، ويكفّن البؤس حواسي. أسير منهوكاً، وأنا أحمل في أعماقي أحلامي المجهضة، وخيباتي الثقيلة، وأحزاني المزمنة. كلّ مَن يحمل ثقلاً يستطيع أن يستريح قليلاً عندما يُنزله من على كتفَيه، أمّا أنا فلا أستطيع التخلّص من أثقالي، فأنا أحملها في وجداني وأعماقي.

أتأمل العالم المنظور حولي، أحدِّق في الأشياء، أحاول أن أكتشفها وألتقط صورها، كي أدرك كُنهها وأفهم العلاقات المتشابكة بينها؛ كي أكتشف نفسي، وأدرك ذاتي، وأحدِّد موضعي ووضعي بينها وأنا أنظر إليها، فأنا جزء من هذا العالم. أتلفتُ مذعوراً من أين تهبُّ الريح؟ ومن أي الجهات سيغتالني موتي؟ وكيف ولماذا أنا هنا؟ ولكن حتّى لو عرفت سرَّ وجودي، هل أستطيع أن أصحِّح مسار الأشياء أو أوجِّهها غير وجهتها المقدَّرة لها؟ ألوي عنقي حولي خيبةً، ينزف قلبي دمه فوق أوتاره حيرةً، تتماثل الرؤى الضبابيَّة في عيني، وتترنّح الأفكار المضطربة في مخيِّلتي، وأظلّ بعيداً عن قرار التيار، وأخشى أن أنهار في آخر النهار.

لماذا لا أستطيع البقاء في هذه المدينة المترفة؟ جميع هؤلاء الأمريكان جاؤوا، هم أو أسلافهم، من البلاد الأخرى، وبدأوا حياتهم في العالم الجديد واتّخذوه وطناً لهم. كلّهم مهاجرون، ولا يختلفون إلا في تاريخ وصولهم. يوم أمس، عرضَ عليَّ أستاذي البرفسور أرتشبولد أي هيل منصباً تدريسيًّا في الجامعة اعتذرتُ عن قبوله. أريد أن أعود إلى بلادي. إنّني أعجب أشدَّ الإعجاب بأولئك الأشخاص الذين يستطيعون التنقّل بين الثقافات والبلدان والأفكار دون أن يشعروا بأيّة غربة. لا بدَّ أنهّم على درجة عالية من الذكاء. أليس تعريف الذكاء هو القدرة على التكيُّف للظروف

الجديدة أو القدرة على حلّ المشكلات ؟ فرجلّ مثل الموسيقار الفرنسيّ جوليان فايس استطاع أن ينتقل من ثقافته الفرنسيَّة إلى الثقافة العربيَّة، فيتحدَّث بالعربيَّة كما يتكلَّم الفرنسيَّة، ويصبح اسمه جلال الدين بالإضافة إلى جوليان، وينتقل من العزف على البيانو إلى العزف على القانون، ويغادر مسكنه في باريس إلى حلب ليستقر في منزلٍ في المدينة القديمة، ويشعر بسعادة بالغة. أمَّا أنا فكم تمنيت أن يكون قلبي مدينةً مفتوحةً على جهتَين أو أكثر، ولكنَّه ظَلّ سوراً محصَّناً يحتضن وطني العربيّ وحده.

أهيم في المدينة الصاخبة الصماء. تجول عيناي في شوارعها. تطالعني جدرانها الحزينة، كالحةً معتمةً دونما أيَّة زينة. تختفي في عيني معالمها، بناياتها، أشجارها، أضواؤها، ويتلاشى صخبها فلا يبلغ سمعي. تتراءى لي بساتين قريتي، نهرها الرقراق، جداولها المعطاءة، نخيلها، أزقتها، منزلنا القديم. يسري عبق الوطن في عروقي، وأوردتي، وشراييني، ومفاصلي، وجميع مسامات جسدي، مثل دمي، ويترنّح الوجيب في قلبي.

أتوضأ بالدمع وبالسهد، أيمم وجهي شطر بغداد، أصلي ركعتَين للعشق وثالثةً للوجد، تتطاير في عينَيّ فراشات بيض وصفر وزرق، تحمل على أجنحتها الشوق، أحترق بالحنين، تطمسني ظلال الرؤى، وأغيب في صلاة ودعاء. طوبى للنخيل المتشبثة جذورُه بأرض النخيل، المجد للإنسان الراسخ الأصيل.

أخاطب نفسي، ثمَّ أنادي على رفاق طفولتي بصوتٍ عالٍ، ودموعي تحرق أجفاني ولا تنهمر :

رفاقي! أما يزال النهر يجري في أحضان قريتنا؟ أما تزال مياهه الثرّة تفيض كلّ ربيع فتغسل عتبات دارنا؟ وهل ما زال البط يسبح في مجراه كما كان؟ وهل ما زالت الأغنام ترتع على شاطئَيه تحت ظلال النخيل؟

أصحابي! رفاقي! هل تسمعونني؟ أنا أسألكم عن بساتين قريتنا؟ أما يزال نخيلها محمَّلا بعذوق الرطب؟ وأشجار التوت والخوخ والرمان، هل ظلّت مثمرة كما كانت؟ وهل تسمعون نوح الحمام القادم من عرائش العنب، كما كنا في طفولتنا؟ وهل تتناهى إليكم أنغام مزامير الرعاة من ضفة النهر؟

أحبائي، أصحابي، رفاق طفولتي! أناديكم على البعد، هل تسمعونني؟ وهل تعرَّفتم على صوتي؟ فعبراتي تخنق كلماتي فلا أكاد أتبيّن صوتي، أنا نفسي. لفلفتْ رياح الغربة أوصال روحي، وقذفتْ بها في منحدر هذا المنفى السحيق.

أناديكم على البعد، أجيبوني: أما يزال القمر مضيئاً ؟ أما تزال النجوم تحتفظ ببريقها؟ وهل ظلت قريبةً من أيدينا كما كنا صغاراً؟ أم تُراها اختفت عن أنظاركم كذلك؟ فأنا لا أراها هنا في مدن الضباب والغيوم والسحاب. أما زلتم تبصرونها لامعةً هناك في سماء قريتنا؟ أحبائي، انتظروني حتّى إذا انفضَّ المنتظرون أحبابَهم من حولكم. انتظروني!!

أجيبوني!

أحبائي، هل تسمعونني؟ ردّوا عليّ! هل تعرفونني؟ وهل تبشون في وجهي إذا ما أتيتكم وألقيت قلبي المنهك بين أيديكم؟ هل تعرفونني؟ سأرفع قبعتي، وسأخلع هذه البذلة الإفرنجيَّة، وسألبس «دشداشتي» القديمة البيضاء، كي تعرفوني. ولكنّني لا أستطيع أن أخلع شحوبي أو الأسى الذي التصق على جبيني ووجنتي وشفتيَّ وامتزج بدمع عينّي. لقد طحنتني الغربة بَعدكم، ونخلني الحنين إليكم، إلى مرابع طفولتي. هل تفهموننني؟

أجيبوني، أحبائي، صحابي، رفاق طفولتي! أما زلتم تلعبون «الدعبل» في أزقة القرية بدوني؟ أما زلتم تلعبون «الكعاب» كما كنا، كما كنتم؟ أما زلتم ترددون نشيد « موطني موطني » في

ساحة مدرستنا الابتدائيّة المطلّة على النهر؟ صحيح أنّ نهر الفرات بعيد عني وراء الأفق، ولكنّني أستطيع أن أرى بطتي تعوم في مياهه، وأبي يصطاد السمك على ضفته، وسفينةً شراعيّةً محمّلةً بالتمور يجرّها الملاحون المنهكون، تمرُّ في مجراه. فهلا بعثتم إليّ بقطرات قليلة من مائه أبلّ بها شفتي، وأروي ظمأي؟ هلاّ بعثتم إليّ بتمراتٍ معدودةٍ من نخيله تسدُّ رمقي؟ فقد ذوبني الحنين لسماع لغتنا، وأضحت أذناي زهرتين ذابلتين بعد فراقها، واشتاقَ فمي لمذاق حروفها.

رفاقي، أقراني، أصحابي، هل تذكرون كيف كنّا نلعب كرة القدم في وسط الدرب، نجري، نتسابق، نتنافس، يلحق بعضنا بعضاً، نتدافع بالمناكب، ونحن ننادي بأسماء بعضنا، نصيح، نصرخ، وكثيراً ما كنتُ أودع الكرة المرمى. أتذكرون كيف كنتم تلقبونني « سلطان الكرة ». بإمكانكم اليوم أن تنعتوني بسلطان اللاجئين والمحرومين الذين يظمأون لبسمة حنان والتفاتة مودة، ويتلهَّفون لجرعة من ماء نهركم. أنا اليوم سلطان الغرباء والبائسين. خلعوا أوزارهم عليّ. خففوا أثقالهم وحمَّلوني همومهم. أنا اليوم سلطان المشرَّدين والمطارَدين، الخائفين على حياتهم، يهابون الحجرَ عند كلّ منعطف، ويخشون الشجرَ في كل بيداء. هل تفهمونني؟

رفاقي، أجيبوني. أصحيحٌ ما أقرأ هذه الأيام من أخبار مروِّعة؟ أصحيح أن بعضكم اختفى منذ مدّة ؟ وأن بعضكم يئن تحت سياط الجلادين في أقبية السجون؟ وأنَّ بعضكم الآخر لفظ أنفاسه تحت التعذيب؟ أصحيح أنَّ النخيل احترق ؟ وأن العنادل لم تعُد تعرف التغريد؟ أصحيحٌ أنَّ النهر جفّ وأنَّ الأرض أجردت؟ أصحيحٌ أنَّ هذه الجرائم تُقترف اليوم في العراق وباسم العراق؟ هل كان الروائي الروسي ديستوفيسكي، عندما كتب روايته «**الجريمة والعقاب**»، يعتقد حقّاً بأن لكلّ جريمة عقاباً، أم أنّه كان يريد أن يقول لجلادي الشعب الروسي أنَّ جرائمكم لن تمرَّ دون عقاب

يحيق بكم؟ لو عاش ديستوفيسكي في العراق اليوم لعرف أن آلاف الجرائم تُقترف بحقّ الإنسان والإنسانية كل يوم ولا يعاقب القانون مقترفيها. أصحيحٌ أنَّ الثقة ماتت وأنَّ بعضكم يقول عنّي إنَّني جبنتُ، وانهزمتُ، وآثرتُ العيش بعيداً بحجّة مواصلة الدراسة؟.

يا أيُّها الوطن الشارد في فلاة العمر، كم مرَّةً نصبتُ لكَ الشراك وحفرت لكَ الكمائن، في النوم أتصيَّدك، أتصيدُ طيفاً عابراً لك ، أطارد عبقاً سارياً منك، فلم أفلح، بل أعود مخضَّب اليدَين بالخيبة، وأفيق في الفجر وعيناي غارقتان في دمع الحنين. نذرٌ عليَّ إن عدتُ إلى أحضانك، يا وطني، أن أغسلَ عتباتكَ بدموعي، وأعانق أشجاركَ وأمسح الغبار عنها بشفتيّ.

آه، يا أيُّها الوطن المسافر في عروقي كالدماء. يا أيُّها الوطن الملازم جفن عيني كالبكاء. يا أيُّها الوطن المثخن بحوافر الغزاة، ومخالب اللصوص والعتاة والطغاة. يا أيُّها الوطن الموغل في متاهات الحزن وتباريح الفداء. يا أيُّها الوطن الجريح، يا أيُّها الوطن الذبيح. يا أيُّها الوطن المتشبِّث بجذور النخيل ومجرى الفرات ومنائر أضرحة الأولياء. يا أيُّها الوطن المضمَّخ بدماء الأبرياء والشهداء. يا أيُّها الوطن المعانق روحي بلا فكاك. يا أيُّها الوطن المعتّق بالشموع والنشيج والدموع. أجبني أيُّها الوطن المعلّق على أعواد الإباء والكبرياء: أتذكُر فتىً ودَّعكَ قبيل الفجر. تعمَّد بمياه فراتكَ واستحم بالغسق المهيض. أتذكرني يا عراق؟ كيف تخلّيت عني عند الحدود رغم أنَّ محبتي لك لا تعرف الحدود. صحيحٌ أنَّه يحدث أحياناً أنَّ الذين نحبُّهم أكثر، هم الذين يسارعون إلى التخلّي عنّا وخذلاننا في أحرج الأوقات، ويخلّفون أمضى الجروح في أغوار الذات؟ وداعاً يا حبّي الأكبر.

آه يا وطني الذبيح ! إنّي تخطيت عتبة الانتظار بعد انتصاف الألم، وحللت في فناء المواجع، باحثاً عن وطن خلّفته ورائي. أحسُّ أنَّ نهايتي اقتربتْ، فأنا مريضٌ حقاً.

هكذا إذن، يا أُمّي، سأموتُ غريباً في أرض غريبة. لا يعرفني أحد ولا أحد يأبه بي أو يرثي لي. ولن تُذرَفَ دمعةٌ واحدةٌ من أجلي، يا أمّي. أموتُ هنا وتُقبَر معي أحلامي وأحلامك العريضة عرض السماء. ستدفن معي آمالكِ الواسعة اتساع الأرض. وسيتبيَّن لكِ، وأنتِ في مرقدكِ، أنَّ ما قالته المنجِّمةُ لكِ ذات يوم لم يكُن إلا من بناتِ مخيِّلتها. هل تذكرين ما كنتِ تقولين لي في صغري، وأنت تشجعينني على الاجتهاد في مذاكرة دروسي؟ كنتِ تقولين لي أنَّ المنجِّمة أخبرتكِ أنَّ أصغر أولادكِ سيغدو عظيماً ذا مجد شامخ، ويسطع نجمه في سماء الوطن، تلحظه العيون، ويهابه الناس، ويرفع اسمكِ إلى الأعالي. حاولتُ مراراً أن أقنعكِ بما أقنعنا به معلِّمنا من أنَّ السحر والتنجيم والعرافة مجرَّد شعوذة، وخفّة يد، وطلاوة لسان، ولا يعلم الغيبَ إلا الله. ﴿ **لو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسّني الضرّ؟** ﴾. ولكنَّك، أنتِ التي نشأتِ في بلاد سومر حيث ولد علم الفلك وحيث استطاع الكهّان أن يجمعوا بين تاريخ الميلاد وحركة النجوم، لم يتزعزع إيمانك بالنجوم والتنجيم والمنجمين. ليتكِ، يا أمّي، كنتِ معي الآن لتتأكدي بنفسكِ أنّني أموت وأنا غريب نكرة.

تقول الأسطورة الإغريقيَّة القديمة إنَّ الأله أوزيس حمل من بلاد الفينيقيِّين فتاةً اسمها أوربا وعاد بها إلى بلاده فأعطت اسمها للقارة الأوربيّة بأجمعها. وهذه الأسطورة الإغريقيَّة كنايةٌ عن انتقال الحضارة العربيّة إلى الإغريق ومنها إلى جميع أوربا، ابتداءً بانتقال الأبجديّة العربيّة من بلاد الفينينقيِّين إلى بلاد الإغريق التي استخدمت الحروف العربيَّة للكتابة (ألفا ، بتا ، جاما، دلتا، .. إلخ. أي الأليف، البيت، الجمل ، الدلو، إلخ.)، واستجلبت الورق من مدينة بيبلوس الفينيقيّة فاشتق الإغريق من اسمها كلمة (الكتاب Biblos) في لغتهم. أمّا أنا فلم أحمل إلى القارة الأمريكيَّة سوى غربتي وخوفي وحنيني، ولن أحمل منها شيئاً سوى خيبتي وجراحي وأنيني.

سأُدفَن يا أمّي دون أن يعرفوا اسمي الكامل، ولا القبيلة التي أنتسب إليها والتي كنت تفخرين بشجاعتها وإبائها. لم أحقّق أيَّ نجاح في حياتي، يا أمّي، فأنا لم أنجح في التجارة والأعمال ولم أجنِ البلايين كما فعل رفيق الحريري في غربته، ولم ألعب كرة القدم بمهارة مثل الجزائري الفرنسي زين الدين زيدان، ولم أكتشف شيئاً علميًّا مثيراً مثل المعوَّق المشلول البريطانيّ ستيفن هاوكنغ صاحب كتاب « موجز تاريخ الزمن »، ولم أكُن أوّل إنسان يخترق الفضاء مثل الروسي غاغارين. بخلاصة لم أنجز شيئاً عظيماً مثل هؤلاء العمالقة، و لن يُصنَع لي تمثالٌ في وطني، ولن يُسمّى شارع باسمي في قريتنا التي أنجبتني، ولن يكتَب أحدٌ شيئاً عن سيرتي، لأنّني ببساطة لم أفعل شيئاً يُذكر، أو بالأحرى لم تُتح لي الفرصة لفعل شيءٍ متميّز تفتخرين به. فقد مرّت حياتي كما تمرُّ مياه الساقية الصغيرة وتلاشت في الحقل. بيدَ أنَّ مياه الساقية قد تبعث الحياة في البذور لتنمو وتثمر. أمّا أنا فلم أُثمر شيئاً. لم أتزوّج ولم أخلّف ولدا صالحاً أو غير صالح. لم أفعل شيئاً لك. كنتِ تردِّدين على مسامعي: اجتهد فأنتَ ذخري لأواخر عُمري. وها أنتِ ترين أنّكِ مُتِّ في أواسط العمر، وأنا بعيد عنك بُعدَ الماء عن قافلة ضلّت في الصحراء. لم أستطع حتّى الإمساك بيدك وأنت تلفظين أنفاسكِ الأخيرة، ولم أستطع حتّى حمل نعشكِ مع إخوتي أو المشي وراءه. نعم، يا أمّي، كانت لي أحلامي وكانت لكِ أحلامك عني، فحتّى الفاشلون والعاطلون لهم أحلامهم وطموحاتهم الشبيهة بأحلامي، فالأحلام مشاعة للجميع، تماماً كالهواء. ولكنّها وحدها لا تكفي، والفرق يكمن في تحقيق تلك الأحلام. وها أنتِ ترين أنَّ طموحاتي وأحلامي تبخرت في حمّى الفشل، كما يتبخر رذاذ الماء في حرارة القيظ بالصحراء.

دعيني أسألك، يا أُمّي الحبيبة: هل مِتِّ كمداً على فراقي؟ هذا ما يصوِّره الغرور لي. ولكنّك تفعلينها، يا أُمّي. فأنا أعلم بشدَّة تعلّقك بأطفالك. غير أنّي لا أستحقُّ أن يموت أحدٌ من أجلي. فقد تركتُ

أهلي وأرضي خوفاً على حياتي. لم أقف كما تقف النخلة العراقيَّة في وجه الإعصار، وتموتُ واقفة وهي في منبتها، بل انسقت هارباً بعيداً مثل قشة صغيرة، يا للعار !

يقولون، يا أُمّي، أربعة تهدم البدن: الهمّ والحزن والجوع والسهر. وقد تضافرت هذه الأربعة عليّ، كما يتضافر القتلة على وحيد أعزل. افتحي ذراعيك، يا أُمّي، في ظلمة اللحد، أنا قادمٌ إليكِ، أنا مُقبلٌ عليكِ. فضميني إلى صدركِ، لأشمَّ رائحة الحنّاء في جدائلك، ورائحة الكافور، ورطوبة الموت، وصمت الأبديَّة.

في تلك الليلة تحوّل الشعور بالغربة الذي ينوء به القلب إلى صداع يمزق رأسي، وحمّى تلهب جسدي. لا بدَّ لي من أخذ الدواء المعتاد. فتحتُ حقيبتي، أخرجتُ شالكِ الأسودَ، وضعتُه على وجهي وأنا مُستلقٍ على السرير، شممتُ رائحة الحنّاء المنبعثة منه، تغرغرتُ باسمك يا أُمّي سبع مرات، تعوَّذت بذكرك كصوفيٍّ في خلوة، وأغمضتُ عينيّ على صورتكِ الحبيبة. وانتظرتُ، ليغادرني الصداع وأفتكَّ من الحمى... ولكنَّ الداء كان أقوى من الدواء.

71

انساقت تأوهات سليم مع الريح الرائحة، بلغت صيحات النجدة التي أطلقها أسماعَ ذويه وأصحابِه الذين كادوا ينسونه. وأخبر أبوه بعضهم أنَّ سليم مريض، نعم مريض بالحنين إلى الوطن؛ ورجاهم أن يعودوه لا بذواتهم بل بكتبهم ورسائلهم، ويهوّنوا عليه لا بكلامهم بل بكلماتهم. وهكذا وردته بعد مدّة رسالة من صديقه عبد اللطيف ، ذلك الشاعر الرقيق.

لقد كتب عبد اللطيف، من منفاه هو الآخر، إلى صديقه سليم يقول:

« أحييك، يا صديق الصبا والشباب، والأيام الجميلة الزاهية التي ولّت، صديق العمر اليافع الذي لن يعود، ويا رفيق الأحلام الطموحة التي لم تكن

الأرض يومها تتسع لآفاقها. يا إلهي..، ما كان أكبر زهونا وطموحنا، حينما كان العالم كلّه صغيراً أمام تطلعاتنا العريضة...كم كنّا يومها لاهين سعداء، دون أن ندرك ذلك أو نقدر قيمة تلك الأيام، لماذا في حياتنا دائماً لا نفهم الأشياء الجميلة إلا بعد فوات الأوان ؟ هل هي سذاجة الطفولة، أم الزهو والنظرة القاصرة؟

هل الليالي والأيام راجعةٌ أيامَ نحن وسلمى جيرةً خُلُطُ ؟

فأنا أحنُّ إليك، كلّما تذكرتُ تلك الدنيا، وذلك الزمن الوضيء وذكرياته العذبة وصوره التي ستظلُّ محفورةً في أعماق القلب والوجدان. هذه، على أيّة حال، مناجاةٌ لن تتوقف، وسوف نتبادل ذكرياتها حينما نلتقي. ولكن هل سنلتقي حقاً...؟ كلّما تسحقني الغربة وتطحنني وتذروني تذكرت بيتي أبي نواس، بكل ما فيهما من الصدق وحرارة الاغتراب:

رحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا ؟

فارق أحبابه..، فما انتفعوا في البين من بعده ، ولا انتفعا ».

وأرفق عبد اللطيف برسالته آخر قصيدة كتبها في المنفى بعنوان « وطن بلا أصدقاء » يرثي فيها الوطن ويندب ما آل إليه أهله الطيبون:

لقد أخطأتكَ المقاديرُ ..

حين وُلدتَ زمان الفجائع، يا وطني.

أيا بلد الزرع والماء،

(ما بين نهرين، أو بين سيفين)،

تشكو الظماً

وتشكو المجاعةَ،

مُذ رافداكَ استحالا دما

فحتّى متى-آه يا وطني-

تجرعُ العَلقما ..؟
تشرّدَ في الأرض - يا وطني -
أهلكَ الطيّبون.

...

قرأ سليم رسالة عبد اللطيف وكلماته، شعر بحرقة في الفؤاد وغصة في القلب ودمعة في العين. كانت كلمات تلك الرسالة كذرات ملح على جرح، أو زيت يقطر على نيران الحنين، وينطبق عليها قول الشاعر ابن العميد:

داوى جوىً بجوىً، وليس بحازمٍ مَن يُطفئُ النيرانَ بالحلفاءِ

ماذا فعلتَ يا عبد اللطيف؟ سامحك الله ورعاك. أجابه برسالة يقول فيها:

« أخي عبد اللطيف، إنّني لست أقلّ حزناً وحنيناً منك. عالمي الذي أنستُ به ينهار، عالمي الذي ألفتُه وأحببتُه يتلاشى. العالم يتكوّن من الذوات والأماكن والطبيعة. فأمّا ذوات أصدقائي فقد غيبتهم القبور والسجون والمنافي. وأما الأماكن التي أحببتها نالت منها معاول التغيير والزمن، فلم تبقَ إلا أطلال تبعث على الشجى. حتّى الطبيعة لم تعُد كما كانت في ناظريّ: فالنجوم أقلّ لمعاناً، والقمر آفل تماماً، والأشجار باهتة الخضرة، ذاوية الأغصان. كنتُ أقف على ضفاف الحزن، أمّا اليوم فإنني أغطس في أعماق مستنقع الألم...»

في العالم الجديد، يستطيع المرء أن يحصل على المال، و بالمال يستطيع أن يشتري أراضٍ ولكنّه لا يستطيع أن يشتري وطناً. بالمال يستطيع أن يشتري منزلاً، ولكنّه لا يستطيع أن يشتري بيتاً؛ بالمال يستطيع أن يشتري سريراً، ولكنّه لا يستطيع شراء النوم لعينيه؛ بالمال يستطيع أن يزور الطبيب، ولكنّه لا يستطيع الحصول على الصحّة. إذن ما قيمة المال الذي يحصل عليه؟ بربّك قل لي، يا عبد اللطيف...».

72

الآن، أخذتُ أفهمك، يا سمير النقاش. الآن جرَّبتُ ما اجتاحكَ من مشاعر عاتية. لم نلتقِ أنا وأنتَ من قبل. ولكنَّنا شربنا من الكأس المريرة ذاتها. أنتَ اقتلعك الصهاينة من جذورك في بغداد ولمّا تبلغ الرابعة عشرة من عمرك، حين هجّروا أهلك اليهود إلى إسرائيل ليحقّقوا حلمهم في تكوين دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل. وأنا غرّبتني الدكتاتوريّة. غير أنَّكَ كنتَ أشجع مني. وفاؤك أقوى وأصلب. كانوا يجرِّونك جرا وأنتَ تتلكأ، تقاوم، وتتلفَّت إلى الخلف لترى داركَ ومدرستكَ ونواديكَ وملاعب طفولتكَ. اغتالوا طفولتكَ، يا سمير. دفعوك دفعاً إلى داخل الطائرة وأنتَ ترفض، تقاوم، تحتج، تصرخ. أمَّا أنا فقد سرت برجليَّ إلى مصيري بكل خنوع. في إسرائيل زوَّدوكَ ببطاقة تعريف جديدة تعافها نفسك. حاولتَ الهرب مراراً والعودة إلى بغدادكَ عن طريق لبنان وعن طريق إيران وعن طريق الهند وعن طريق بريطانيا، وفي كل مرَّةٍ يقبضون عليك ويعيدونك إلى إسرائيل. أنهككَ حُلم العودة إلى فردوسك المفقود. ولما استحالت العودة عليك، أخذتَ تخلق فضاء بغداديًّا روائيًّا تعيش فيه بضعة شهور، تتنفَّس فيه هواء بغداد، وتسير فيه بمحاذاة نهر دجلة، وتمسّ بأناملك سعف النخيل على ضفافه، وتضيف إلى عناوين رواياتك وقصصك عبارة «رواية عراقيَّة» أو «قصص عراقيَّة»، وهي بحقّ عراقيّة صميمة وإن كتبتها في إسرائيل، لأنّها تزخر بحبِّكَ المتأجج للعراق، وأهل العراق، ونخيل العراق. قاومتَ النسيان، يا سمير، بتنشيط ذاكرتك بالكتابة عن أرض ميعادك، أرض العراق. كنتَ تكرِّر لازمتكَ المفضَّلة دوماً: «كنتُ يهوديًّا عراقيًّا في العراق، وأنا الآن يهوديٌّ عراقيٌّ في إسرائيل». عراقيَّتك ظلّت كما هي سليمة صلبة تشعرني بالخجل من نفسي، لأنّني لم أتوفَّر على شجاعتك، يا سمير. كنتَ تقول عن نفسك: «إنَّنا عراقيون رغم كل الظروف ورغم الزمن. وهناك ما هو

أكثر أهمّيّة من أوراق التعريف. إنّ عراقيّتنا مطبوعة في أجسامنا، في جيناتنا، والأوراق لا تغيّر الحقيقة، والحقيقة لا يمكن أن تُمحى». هل تدري، يا سمير، أنّ الدموع تنهمر من عينَيّ عندما أتذكّر غصّتك وغصّتي، مصيبتك ومصيبتي. لقد بكيتُ، يا سمير عندما قرأتُ روايتك « **نزولة وخيط الشيطان** » وأنتَ تحدّثني عن وفاة أبيكَ في معسكرات اللجوء في إسرائيل. وبكيتُ ، يا سمير، وأنا أقرأ روايتك « **الرجس** » وأنتَ تسرد لي قصّة هروبك إلى العراق عن طريق لبنان، ولكنّهم قبضوا عليك هناك، وسجنوك، ثمّ أعادوك إلى اسرائيل. وبكيتُ، يا سمير، وأنا أقرأ روايتك « **عورة الملائكة** » وأنتَ تصوّر حنينك إلى بغداد، وأهل بغداد، والمدرسة البغداديّة التي درستَ فيها، وكنتَ متفوقاً وسعيداً. كنتُ أتوقع، يا سمير، أنكَ ستبكي كذلك عندما تقرأ روايتي هذه، ولكنّك غادرتنا حتّى قبل أن تكتمل. كنتُ آمل أن تواسيني. أبكي على غربتك مرّة، وتبكي على غربتي مرّة. فالغرباء أقرباء تجمعهم أواصر التعاسة والحنين والدموع، كما قال امرؤ القيس، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة شِعراً في الأناضول بالقرب من قبر امرأةٍ عربيّةٍ غريبةٍ مثله :

أجارتَنا إنّ المزارَ قريـبُ وإنّي مقيـمٌ مـا أقامَ عَسيبُ

أجارتَنا إنّا غريبانِ ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

نعم سمير، إنّنا نسيبان ثلاث مرّات: نسيبان في الإنسانيّة، ونسيبان في الوطن، ونسيبان في الغربة. لقد داهمتني الغصّة في لحظة حزنٍ حارقةٍ أوقدها خبر وفاتك غريباً في إسرائيل.

سمير، يا صنو روحي. أنا وأنتَ غريبان. أنا وأنت عاشقان. أنا وأنتَ قتيلا هوىً فتّاك. أخبرني، سمير، هل عرفتَ السر في هذا الحنين؟ هل اكتشفتَ تعويذة السحر التي يتقلّدها هذا العراق الذي يجعل جميع ضحاياه، يلهجون بحبّه، يحنّون إليه، يبكون عليه كما يبكي القتيل حبًّا بقاتله؟ ألم تتكشّف لكَ الحقيقة،

يا سمير، وأنتَ تلفظ أنفاسك الأخيرة بعيداً عن بغداد ووادي بغداد وأهل بغداد؟ في تلك اللحظة التي فارقتْ فيها روحك جسدك، هل تكشَّفت لك الحقيقة، في تلك اللحظة البرزخيّة وأنت بين عالم الفناء وعالم البقاء؟ أخبرني سمير، ارفع صوتك قليلاً، فأنا لا أسمعك على البعد. قُل لي كلمة السرّ فأنا أخشى أن أغادر هذا العالم كذلك وأنا أجهل سرّ عذابي. ما أعجب وفاءك وإخلاصك للعراق، يا سمير. كنتَ تقول: «**إنّي يهوديٌّ، ولكنّي لست بخائن. كيف أخون أرضاً ممتزجاً بثراها رفات آبائي وأجدادي**». نَم قرير العين، سمير، لستَ أوّل عراقي اضطر لمغادرة العراق، وبكى على العراق ونخل العراق وأهل العراق. هذا ديدن الأحرار منذ الآف السنين. أتذكر كيف قاسى إبراهيم الخليل عندما مات غريباً في فلسطين؟. أتذكر كيف هامت روحه، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ورفرفت على بلدته التي شهدت مولده ونضاله، « أور » جنوبي العراق.

سمير، كيف أحببنا هذا الوطن؟ أترى أنّنا أحببناه لأنّنا عرفناه؟ خبرناه؟ قارناه بغيره من الأوطان؟ كيف نستطيع أن نحبَّ شيئاً لا نعرفه حقًّا؟ وكيف نعرف أنّنا نعرف حقًّا ما نعرف؟ هل أخضعنا محبّتنا للوطن لقواعد البحث التجريبيّ في المختبر؟ أو للاستدلال العقلي كما يستخدمه المناطقة؟ أم أنّ محبتنا له محبة قلبيَّة ذوقيّة كالهوى الصوفي لا يخضع للحسّ ولا العقل ولا المنطق؟ ما الذي أعطانا هذا الوطن لنحبّه؟ أعرف أنّك ستقول لي: لا تفكّر بما أعطانا الوطن بل اسأل ما الذي أعطيناه نحن للوطن؟

73

أضحت حياة سليم اغتراباً لا يُطاق وعذاباً متّصلاً، وصارت أماسيه كئيبةً موحشةً، وغدت لياليه طويلةً مثخنةً بالشوق والحنين والأنين. وبدا الشحوب على وجهه والنحول على بدنه. واستشار عدداً من معارفه وأصدقائه شارحاً لهم حالته. فأخبروه

بأنّه مريضٌ حقًّا، وذكّروه بأنّ الحنين يُسمى باللغة الإنكليزيّة HOMESICKNESS أي «مرض (الحنين إلى) الوطن». فهو مرض، وسليم مريض فعلاً، ولا علاج له إلا العودة إلى الوطن. هناك سيسمع الأذان ينطلق من صوامع المساجد في الفجر، وتتناهى أصوات اللغة العربيّة في الطرقات إلى مسمعيه، وتكتحل عيناه بالوجوه العربيّة السمراء، تسير في شوارعٍ مزدانةٍ بمنازلَ وبناياتٍ مشيّدةٍ على العمارة العربيّة الإسلاميّة.

ولما كانت عودته إلى العراق أمراً محفوفاً بالمخاطر، ولا ينال موافقة أهله، فقد نصحه أحد أصدقائه المغاربة بالحصول على عمل في الجامعة المغربيّة بالرباط حيث يستعين المغاربة آنذاك بعدد من الأساتذة العرب لتعريب بعض أقسام التعليم العالي.

بعد مراسلاتٍ مع كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة محمد الخامس بالرباط، ومع السفارة المغربيّة في واشنطن، حصل سليم على وظيفة أستاذ التعليم العالي بالكلّيّة وتحدّد تاريخ سفره.

74

« أخذت أنامل سوزان الرشيقة تلامس أصابع البيانو برقّةٍ وأناة، وتنتقل ببطءٍ من إصبعٍ إلى آخر، وهي تمسّ كلّ واحدٍ منها مسًّا خفيفاً وتمسح عليه بإغراءٍ ودلال. وكانت عيناها الخضراوان لا تفارقان تلك الأصابع المستسلمة، وكأنّ أهدابها شُدّت إليها بقوّة قُدسيّة. وراحت تميل برأسها المتوّج بخصلاتٍ غزيرةٍ من الشعر الأشقر إلى الأصابع الطيعة، وكأنّها تهمّ بتقبيلها. وهوت بعض خصلات شعرها الهفهافة على الأصابع المتحركة تشارك هي الأخرى في اللقاء المثير. واندلع في عينَيْها بريقٌ نشوان، واستعر خدّاها بحمرة جذّابة، وما لبث رأسها أن ارتدّ إلى الوراء بحركة مفاجئة، وراحت أناملها تتحرّك بسرعة وعنفٍ على الأصابع المنبسطة تحتها، وأخذت شفتاها الورديّتان تتمتمان بكلماتٍ غير

مسموعة. وانطلق صدرها الناهد ارتفاعاً وانخفاضاً مع ذبذبات رأسها المنسجمة مع الأنغام التي كانت تعزفها على البيانو الكبير.

وكان سليم يجلس على كرسيٍّ وثير بجانب البيانو، وقد مدَّ ساقيه باسترخاءٍ مسالم، وأسبل ذراعيه بوداعة، وأسند رأسه بأمانٍ إلى متكأ الكرسي، وأغمض عينيه كطفل نائم، فبدا كأنَّه يحلّق على أجنحة حريريَّة منسوجة من أنغام إلى عوالمَ ورديةٍ بعيدة... بعيدة... غيرَ أنَّ الابتسامة الباهتة التي كان قد رسمها على شفتَيه سرعان ما ذابت في صمتٍ يخفي وراءه آلاف الخواطر الملتهبة. المسافات لا معنى لها، وكلّ العلوم التي تعلمها لا تستطيع أن تفسر له لماذا تبدو «سوزان» هكذا بعيدة عنه، رغم أنه لا يفصله عن البيانو سوى قدم أو قدمَين. الأنغام الموسيقيَّة ذاتها ليست قادرة على أن تبرعم في أعماقه الانشراح أو تفجّر فيه تلك الرغبة الربيعيَّة في المرح واللهو. وليس بإمكان النظريات الموسيقيَّة التي درستها «سوزان» أن تفسِّر عجز الأنغام الكسيحة ذاك... لم تكُن سوزان قبل اليوم بحاجة إلى الموسيقى لتَهَبَ البسمة إلى شفتَيْه أو تؤجّج البريق في عينيه. كانت مناوراتها البريئة تكفي لأن تجعله يغرق في الضحك. سألته في لقائهما الأوّل قبل أربع سنين:

- «أيُّ اللغات الأخرى تجيد بجانب الإنكليزيّة؟».

أدرك أنّها – كعادة الأمريكيّين- لم تشأ أن تسأله عن جنسيّته مباشرة فردَّ مبتسماً:

- « العربيّة لغتي القوميَّة ».

« بالمناسبة، أصحيح أنَّ العربية لغة صعبة ؟».

فنظر إليها بثقة العارف وتواضع الزميل وقال:

« لا توجد لغة صعبة أو سهلة في حدِّ ذاتها. إنَّما تعتمد سهولة اللغة على مدى ما نبذله من جهد في تعلّمها وعلى قربها النوعيّ من لغتنا الأولى ».

لم يواجه أيّة صعوبة في تعلُّم العربية في صغره... جميع أهل القرية الغافية على كتفي النهر يتكلّمون العربيّة، بل إنّهم لم يسمعوا بغيرها قط، ولم يسمع هو بهذه الموسيقى المنبعثة من البيانو قبل أن يأتي إلى هذه الديار. في الأعياد كان يذهب مع أمّه وأخته الكبرى إلى بعض المزارات القريبة من القرية وبعد الزيارة والصلاة في المسجد، يخرجون إلى الفلاة المجاورة حيث يجتمع الشبان في دائرة تنتظم حول عازف الطبل ونافخ المزمار، ويؤدّون دبكاتهم ورقصاتهم التقليديّة على أنغامها، يتقدّمهم رجل طويل وسيم يحمل بيده اليمنى منديلاً ملوّناً يلوّح به باعتزاز وتباه، لعلّه تذكار من حبيبةٍ بعيدة. فتثير رقصاتهم عاصفةً من زغاريد النساء، وتحظى بإعجاب الأطفال الفرحين. وكان بعض الغجر يزور القرية بين الفينة والأخرى ويعزفون ألحاناً حزينة على عودٍ صغير، وينشدون قصائد في المدح والنسيب. في صغره كان كثيراً ما يتأبّط كتابه ويمشي إلى البساتين المجاورة ليقرأ أو يستظهر دروسه... لا مكان للقراءة في البيت مع خوار الأبقار، وثغاء الأغنام، وضجيج إخوته الصغار. وبين أشجار النخيل الباسقة كفتياتٍ رشيقاتٍ فارعاتِ الطول غزيراتِ الشعر، وعلى حافة الجدول الملتوي بين الأشجار كعربيدٍ أسمرَ ضاربٍ للخضرة، يتربّع فتى أسمر الوجه، ضامر الجسم يعزف على نايه ألحاناً شجيّة... لكم أنصت له ونسي الكتاب والقراءة والدروس. كان إذا سمع ألحان الناي أو العود، اعترته رعشة باردة، وانحدرت دمعة ساخنة من بين أجفانه المطبقة... ألحان البيانو لم تستطِع يوماً أن تُبكيه.

ربّاه كم يودُّ أن يبكي... الدموع الخرساء تغسل أدران الحزن، الدموع الدافئة تدرأ كآبة الغربة، الدموع تبلسم جراح الماضي برفق. يأتي إلى سوزان فتعزف له ألحان بيتهوفن وشوبان وموزارت وباخ، ينصت لها، يبتسم، ينظر إليها بإعجاب وتشجيع، ولكنّه لا يحسُّ بالحنين يبلور الدموع في مآقيه... أنغام البيانو لا تحمل له على موجاتها تلك الرعشة الباردة، ولا تفجّر في أغوار عينَيه الدمعة

الدافئة المريحة. وترتفع أنغام البيانو... ويعجُّ جوُّ الغرفة بموسيقى بيتهوفن، كل شيء حوله يتشرَّب بها إلا أعماق قلبه فقد كانت تختلط فيها أنغام الناي المتصاعدة بين أشجار النخيل الباسقة، وألحان العود يعزفها غجريٌّ على أبواب بيوت القرية، وأهازيج أبناء القبيلة المنسجمة مع دبكاتهم، وأناشيد القرويات في موسم الحصاد، وحكايات أمه في ليالي الشتاء الممطرة وخوار الأبقار ومواء قطته المدللة، وضحكات إخوته الصغار، أمّا أنغام البيانو فقد أخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً حتّى استحالت إلى مجرد رموز موسيقية كتبتها سوزان على ورقة مخططة أخذتها من أحد دفاتره الخاصة بالرسوم الهندسية. قالت له بعد يومَين من لقائهما الأوَّل:

« ذهبت اليوم إلى مختبر اللغة بكلِّيَّتنا، وأمضيتُ بعض الوقت في الإنصات إلى محادثة مسجَّلة بالعربيَّة ».

« وكيف وجدتها؟ هل أعجبتك؟ ».

«مختلفة عن الإنكليزيّة. فيها أصواتٌ حلقيَّة كثيرة. أعطتني انطباعاً بأنَّ الناطقين بها يمتازون بالرجولة ويتسمون بالخشونة».

لا شكَّ في أنَّها ستغيّر رأيها في رجولته حينما تراه يبكي كطفل صغير. من حسن حظه أنَّه لم يبكِ يوماً أمامها. لم يسند يوماً رأسه المتعَب إلى صدرها ليبكي... كان يحلم بامرأة تبعث رقّتها الدموعَ في مآقيه، وربَّما تبكي معه لتمتزج دموعه بدموعها كنهرَين يلتقيان في خليج من المرجان والأحزان، حنانها من نوع آخر لم يعتده من قبل، حتّى إنَّه كثيراً ما تساءل إذا كان ذلك حناناً مطبوعاً أو لطفاً مصنوعاً. البسمة لا تفارق شفتَيها وهي تعزف له على البيانو أو تحدِّثه بصوتها الناعم الخفيض كأنَّها تهمس بأذنيه، والبسمة لا تودِّع شفتَيها عندما تختلف معه في الرأي وتناقشه. حتّى مداعباتها كانت تحتاج إلى تحليل وتفكير. كان يضايقه طبعها المسرف في الهدوء والتروّي وابتسامتها المرسومة بألوانٍ ثابتةٍ والتي تسدل قِناعاً يخفي وراءه كل العواطف من فرحٍ

وترح، وغضب ورضا، ورجاء وخيبة أمل. لكَم تمنّى أن يمزّق ذلك القناع ويراها – ولو لمرّة يتيمة - تبكي فرحاً أو تذرف دمعةً واحدةً حزناً، أو تطلق ضحكةً عاريةً، أو تجثو أمامه راجية، أو تضمّه إليها مدلّلة. لأربع سنين متواصلة، كانت تتحدّث وتتصرّف بجدّيّة ودقّة تضاهي الحاسوب الإلكترونيّ الذي يستخدمه في أبحاثه... عندما أعلن لها قراره القاطع قبل أيام ظنَّ أنّها ستنفجر بكاء، أو يُغمى عليها كمداً... كان على يقين بأنَّ قلبها سيتفتت أسىً ولهفةً على ساعات الجذل والمرح التي لن تعود أبداً... سوف لن يتنزها معا على شاطئ البحيرة المحاذية لمنزلها وهما يشاهدان الشمس يغرق قرصها رويداً رويداً في الأفق البعيد، ولن يقودا السيّارة بين أشجار السرو إلى المطعم المنزوي في غابة قريبة ليتناولا طعام العشاء على أنغام أغنيات غجريّة قديمة... ظنَّ أنّها ستبكي، ستحتجّ، ستغيّر رأيها... ولكنّها قالت بلهجتها المعتادة، وبطريقتها المتأنّية:

«كنتُ قد تركتُ الاختيار لك».

وأضافت بعد إطراقة قصيرة، وكأنّها تقرأ نشرةً اقتصاديّةً بتمهُّل :

- « أنتَ تعلم تماماً أنَّ مستوى المعيشة في بلادك منخفضٌ جدًّا، وأنَّ المعدات والوسائل التي تتطلّبها بحوثك العلميَّة من مختبرات ومكتبات ليست متوافرة. فأنتَ بعودتك إنّما تكتب بنفسك شهادة وفاة مستقبلك المهنيّ، ولن تفيد أحداً بعلمك. وإذا كنتَ مصرًّا على اختيارك هذا، فأنا أفضّل أن نتألّم قليلاً اليوم على أن نندم كثيراً غداً. ولكن لنبق أصدقاء، واكتب لي عن أحوالك عندما تجد الفراغ لذلك».

القسم الثالث:

الرباط ـ الرياض

75

سافر سليم بالطائرة من نيويورك إلى باريس، ومن هناك اشترى سيَّارة صغيرةً قادها عبر إسبانيا إلى المغرب. في باريس، سمع من الإذاعات أنَّ طائرة العاهل المغربيِّ التي كانت في طريقها إلى المغرب، تعرَّضت لهجوم جويٍّ من قِبَل طائرات قادها ضبَّاط انقلابيّون. ولم تذكر الأخبار المذاعة في حينها أنَّ طائرات الانقلابيِّين المهاجمة تزوَّدت بالوقود من قاعدةٍ جويَّةٍ أمريكيَّةٍ في بلدة القنيطرة المغربيّة، كان الملك يتفاوض مع الأمريكيِّين على الجلاء منها ومن بقية القواعد العسكريَّة الأمريكيَّة في البلاد. أجمعت الصحف الفرنسيّة التي كان يقرأها أنَّ هبوط طائرة الملك بسلام، على الرغم من الإصاباتِ التي لحقت بها، ونجاة الملك من المحاولة الانقلابيَّة، معجزةٌ، بكلِّ المقاييس، لا يمكن تفسيرها إلا بـ « البركة ».

صعقته الأنباء وأذهلته. ها هم الانقلابيُّون يبطشون ببلد عربيٍّ آخر. وسيقع هذا البلد تحت حكم العسكرتارية، كما هو الحال في بلده. أين سيميِّم وجهه؟ هربَ من بلده بعد أن استولى العسكرتارية على الحكم، وملأوا السجون بالمفكِّرين الأحرار، ولاحقوا مَن هرب منهم خارج البلاد بالاغتيالاتِ التي تنظمها سفاراتهم، في الفنادق والمطارات والشوارع وفي كلِّ مكان، وابتدعوا الاغتيال بالطرود الملغَّمة والرسائل المسمَّمة. هرب هو ورفيقه زكي إلى بيروت، فاغتالوا زكي في شارع الحمراء في وسط بيروت. ففرَّ هارباً إلى أمريكا لمواصلة دراسته. وهناك أصيب بمرضِ الحنين إلى الوطن، فحصل على عملٍ بالمغرب. وها هو المغرب يصبح هدفاً لرصاص العسكرتارية. شعر بالضياع. لم يعرف ماذا يفعل. هل يواصل رحلته إلى المغرب بعد أن اشترى سيَّارة صغيرة بما ادَّخره من دخل عمله في أمريكا؟ هل يعود إلى من حيث أتى؟ هل يبحث عن مكانٍ جديدٍ في هذا الوطن العربيِّ المستباح؟ تأكَّد له أنَّه سيء

الحظّ، وأنَّ سوء طالعه يُلاحقه أينما حلّ وحيثما رحل، ولعلَّ من الخير له أن لا يذهب إلى أي مكان يحبّه، لئلا يلحق الضررُ بذلك المكان ويصيبه السوء.

وصلتُ إلى الرباط ، مدينة جديدة كلَّ الجِدَّة عليّ. لم أَرَها من قبل، ولم أُخْبُر دروبها، ولم أعرف أزقتها، بل من السهل أن تضيع خطواتي فيها. ولكنَّ شيئاً في هذه المدينة جعلني أشعر بأنَّها ليست غريبة. فوجوه أهلها تحمل ملامح وجوه أهل بلدتي. وصوامع جوامعها ينطلق منها ذات الأذان الذي كنتُ أسمعه في منزلي منذ طفولتي، وأزياء أهلها قريبة من أزياء أعمامي وأخوالي. أليس هذا ما كنتُ أبحث عنه بلسماً لمرض الحنين إلى الوطن الذي أصابني في أمريكا؟.

76

التحق سليم أستاذاً في كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بالرباط. وتقضي التقاليد الجامعيَّة المغربيَّة أن يبدأ العام الجامعيُّ في كلِّ كلِّيَّة من كلِّيّات الجامعة بدرس افتتاحيٍّ يلقيه أحد الأساتذة البارزين على طلاب الكلِّيَّة وأساتذتها مجتمعين في قاعة الكلِّيَّة الرئيسة في صباح اليوم الأوَّل من السنة الجامعيّة. وبعدها تتوجَّه كلُّ مجموعةٍ من الطلاب مع أستاذها إلى قاعتها وتنطلق الدراسة.

في تلك السنة الدراسيَّة، وقع اختيار عمادة كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة على الدكتور سليم الهاشمي لإعداد الدرس الافتتاحيِّ وإلقائه على الطلبة، وتُرِكت له مسألة اختيار موضوع الدرس. ولمّا كانت الجامعة قد شرعت بتعليم العلوم الإنسانيّة فيها باللغة العربيّة لأوَّل مرَّة وبقيت العلوم البحتة والتقنيَّات تدرَّس بالفرنسيَّة، فضّل الدكتور سليم أن يكون عنوان الدرس «طبيعة اللغة والأوهام الشائعة عنها»، يتناول فيه الأخطاء الشائعة بين

بعض الناس عن ماهيَّة اللغة، خاصَّةً ذلك الخطأ الشائع القائل إنَّنا يجب أن ندرِّس العلوم والتقنيات باللغات الغربيَّة كالإنجليزيَّة والفرنسيَّة، لتوافر المصطلحات العلميَّة فيهما، ولقدرتهما على التعبير عن المفاهيم العلميّة، وإنَّ اللغة العربيَّة لا تصلح لتدريس العلوم والتقنيّات، لعدم توفرها على المصطلحات اللازمة، لأنَّها لغة دينٍ وآدابٍ وليست لغة علومٍ وتقنيّات.

دخل الدكتور سليم الهاشمي قاعة الشريف الإدريسيّ في كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة يرافقه العميد ورؤساء الشعب والأقسام والأساتذة، والقاعة مليئة بالطلبة. ارتقى المنصَّة وجلس والعميد، الأستاذ إبراهيم، في وسطها وأحاط بهما رؤساء الشعب، في حين جلس الأساتذة في الصفِّ الأوَّل من القاعة. وقبل أن ينهض العميد لتقديمه إلى الحاضرين، مال بعنقه نحوه وهمس في أذنه قائلاً:

ـ أعتذرُ مسبقاً، دكتور سليم، لأنّي لا أستطيع البقاء معكَ إلى نهاية محاضرتك، فأنا مضطرٌّ إلى مغادرة القاعة بعد تقديمك مباشرة للذهاب إلى وزارة التربية الوطنية لتقديم استقالتي.

ـ آسف لسماع ذلك، أخشى أن لا تكون محاضرتي فاتحة خير على الكلِّيَّة، إذا كان عميدها يستقيل في اليوم الأوَّل.

ـ الأمر لا علاقة له بمحاضرتك، يا دكتور.

وتوجّسَ سليم في نفسه خيفةً وشراً. إنَّ النحس يلاحقه أينما ذهب. كيف سيكون الوضع في هذه الكلِّيَّة، إذا كان عميدها سيقدِّم استقالته بعد هذه المحاضرة الافتتاحيّة، بل في أثنائها.

قدَّم العميد الأستاذَ المحاضر بنبرةٍ هادئة لا يبدو عليها قلق مَن سيقدِّم استقالته بعد لحظات. ونهض الأستاذ سليم والتفت إلى العميد شاكراً وصافحه مودعاً.

وبعد انصراف العميد وقف المحاضر منتصباً، وظلَّ صامتاً للحظات وكأنَّه يستجلب فيها انتباه الحاضرين، ثمَّ حيَّا جمهوره

وأخذ يلقي محاضرته دون أن يقرأ من الأوراق الموضوعة أمامه، فهو يدرك أنَّ مخاطبة الطلاب بصورة مباشرة أفضل للتواصل معهم، وأبعد تأثيراً فيهم، من مجرَّد تلاوة أوراق بصورة آليَّة. وهو يفضِّل أن تنفذ عيناه في عيون مستمعيه، ويحدِّثهم من القلب إلى القلب بلا واسطة، ليحتك الفكر بالفكر وتتوالد الأفكار.

بلغة بسيطة واضحة، وبحجج علميَّة رصينة، راح المحاضر يفنّد الأوهام الشائعة عن اللغة، مثل : الكتابة هي اللغة، أو وجود رابطة طبيعية بين الكلمات ومعانيها، أو وجود لغات متطوِّرة وأخرى بدائيَّة، أو وجود لغات منطقيَّة وأخرى غير منطقيّة ، أو لغات جميلة وأخرى قبيحة، أو لغات صعبة وأخرى سهلة، أو أنَّ اللغات غريزيّة ينطق بها الوليد عندما يكبر حتّى لو لم يسمعها من أحد. وأكّد في محاضرته أنَّ اللغة هي نظام رمزيٌّ صوتيٌّ، تستخدمه الجماعة الناطقة بتلك اللغة للتواصل والتفاهم، وأنَّ أيَّة لغة تستطيع أن تفي بأغراض الناطقين بها، فللغة وسائلها اللسانيَّة للاستجابة لجميع احتياجاتهم، كأنَّ المحاضر بذلك يردُّ بطريقة غير مباشرة على ادعاءات أعداء التعريب بضرورة الإبقاء على استخدام اللغة الفرنسيّة أو الإنجليزيّة في تدريس العلوم والطبّ في البلاد العربيَّة.

بعد انتهاء المحاضرة الافتتاحيَّة، توجَّه الأساتذة والطلاب إلى قاعات الدروس بحسب جدول الدروس لكلِّ قسم من الأقسام. دخل الدكتور سليم قاعة الدرس المخصَّصة لطلاب السنة الرابعة، فسعد برؤية وجوه طلابه، من الفتيات والفتيان، المتطلِّعة إليه المتلهِّفة للمعرفة، فشعر بسعادة غامرة أنسته جميع همومه، واندمج بصورة لا شعوريَّة بالجوِّ العلميِّ بما فيه من نقاشات مثيرة، وأسئلة محيِّرة أحياناً. هكذا كنتُ دائماً، تلميذاً ومعلِّماً، أنسى مشكلاتي اليوميَّة، حالما ألج قاعة الدرس، كأنَّ جدرانها تفصلني عن العالم الخارجيِّ وتحميني من أخطاره.

77

ثمّةَ وجوه تمرّ مروراً عابراً بنا، ولكنّها تقيم في ذاكرتنا لا تبرحها، وتلتصق بأحداق عيوننا لا تفارقها، حتّى إنّنا نراها في كل التفاتة، وعند كل طرفة عين. وثمّةَ وجوهٌ تعاشرنا مدّة طويلة من الزمن ثمّ تغادرنا، فلا نكاد نذكرها بعد ذلك أبداً، ولا تخطر على بالنا مرّة أخرى، كأنّها لم تكُن من قبل. ونبقى حائرين لا نعرف السبب.

ثمّةَ وجوهٌ تطالعنا في صباح يوم من الأيام، فتبعث الفرحة في نفوسنا، كما تبعث النارُ الدفء في أجسادنا في يومٍ شتائيٍّ عاصف، وتبقى بذرة الفرح ناميةً مزهرةً حيَّة طوال النهار، تمنح ساعاتنا اللون والحركة والبهجة. وثمّةَ وجوهٌ ما إن يقع بصرنا عليها حتّى نشعر بالضيق والنكد يجتاحان أعماقنا، مثلما يخيم الظلامُ على حارةٍ انقطع عنها الكهرباء، واختفت منها القناديل والفوانيس.

ثمّةَ وجه يصادفك في طريقك، فتقرأ في ملامحه الطِّيبةَ ممزوجةً بمحبّة الآخرين، ومحبَّة جميع الكائنات والموجودات؛ فتشعر بأنَّ الخير مازال موجوداً يمشي على رجلَيْن بين الناس. فتنتعش روحك بنسيم الأمل، وترتوي بندى التفاؤل. وثمّة وجهٌ يطير منه اللؤم وينتشر مثل انتشار إشعاع ذريٍّ فتّاك، أو ينتقل مثل انتقال فيروس معدٍ، يصيبك بالتشاؤم والضيق طوال اليوم.

ثمّة وجهٌ تسحرك فيه العينان، تطلُّ منهما على دخيلة صاحبه، وأخلاقه، وصفاته؛ بل حتّى أسراره وخباياه، كما لو كانتا نافذتَين مشرعتَين على دار الجيران المؤثّثة بذوق وجمالٍ وألوانٍ متناسقة، أو كما لو كانتا ينبوعَي مياهٍ صافيةٍ تروي الظمأ، وتطفئ النيران. وثمّة وجهٌ لا تفصح منه العينان ولا الشفتان ولا أيّ جارحة فيه عن معنىً من المعاني الإنسانيّة، كما لو كان جداراً مطليًّا بالقار الأسود.

حينما دخل الدكتور سليم الهاشمي قاعة الدرس الخاصّة بطلاب السنة الثالثة في الكليَّة لأوّل مرّة، كانت هناك وجوه

عشرين طالباً وطالبةً تتطلّع إليه، متلهفة لتلقف ما سيقول، تبدو على ملامحها محبّة المعرفة، والرغبة في التعلّم. جالت عيناه في تلك الوجوه بسرعة خاطفة، ثمَّ فتح دفتراً فيه قائمة بأسماء الطلاب وقال:

ـ أنا سعيد حقاً أن أكون بينكم. سنشترك معاً في رحلة المعرفة، سأتعلّم منكم، كما آمل أن أفيدكم بما أعرف. اسمحوا لي أن أتلو قائمة أسمائكم لأتعرّف عليكم.

وأخذ يتوقّف قليلاً بعد قراءة كلّ اسم ويطيل النظر قليلاً إلى وجه الطالب الذي يجيب بنعم، وكأنّه يريد أن يتذكر اسمه من اللقاء الأوّل. وبعد أن استعرض جميع الوجوه الطيّبة، أحسَّ بأن وجهاً منها ترك أثراً محيِّرا في نفسه.

عينان سوداوان فيهما بوح مبحوح، ونداء مكبوت، عينان سوداوان اختصرا أحزاني. إنّه وجه أشعرني بألفةٍ عجيبة، وكأنّه قادمٌ من مجاهل أحزاني، وجهٌ ارتسمت على تقاطيعه ملامح فتيات سومر في عاشوراء، وجهٌ تتلألأ في عينيه دموع عشتار، وزينب، وأمّي، وليلى العامريَّة، ودموع صبايا بغداد يوم استباحها جيش هولاكو.

في وحدتي كنتُ أسائل نفسي: أما لليل الأحزان من صبح؟ لقد تساقطت أفراحي في خريف الغربة حتّى لم يبق منها شيءٌ يعطي لوناً لحياتي، فهل تعود إليّ أفراحي وتغتني بها روحي كما تكتسي أغصان الأشجار بالورق الأخضر بعد انصرام الخريف؟ لماذا يا قلبي اعتزلتَ الفرح بعد أن كنتَ وإياه رفيقَين لا تفترقان في ملاعب الطفولة وسمر الأهل؟.

78

لاحظ الدكتور سليم الهاشمي أنّه كلّما دخل ذلك الفصل في الكلّيّة لإلقاء درسه، استقرّت عيناه، دون إرادة منه، على ذلك الوجه

الحزين لتلك الطالبة، فيسرع في تذكير نفسه أنَّ عليه أن يعامل طلابه بالتساوي في التفاتاته ونظراته وكلماته وأسئلته وإشارات التشجيع، شأنه شأن الأب الذي ينبغي عليه أن يوزّع حنانه ورعايته على أولاده بالتساوي، حتّى إذا كان في دخيلة نفسه يميل لأحدهم لسببٍ أو لآخر. إنَّه واجبٌ أخلاقيٌّ تحتّمه مهنة التعليم على مَن يتقلّد مسؤوليَّتها الجسيمة. فكان يدير وجهه بقوَّة إلى الجهة الثانية من قاعة الدرس، ولكنَّ عينَيه سرعان ما تعودان لتستقرا على ذلك الوجه الحزين لتلك الطالبة. إنَّ عينَيه لا تستجيبان لإرادته. وعندما لا تستجيب أعضاء الجسم إلى إرادة صاحبها، فإنَّه بلا شكّ في وضعيَّة صعبة. فحين يريد الاتّجاه يميناً وتتّجه رجلاه به إلى اليسار، أو حين ينصت ليسمع شيئاً فتسمع أذناه شيئاً آخر، أو حين يريد أن ينظر إلى الأعلى ليرى النجوم فتصوّب عيناه نظرهما إلى الأسفل لرؤية الوحل أو لا تريان شيئاً، فمن المؤكد أنَّ هذا المرء في مأزقٍ حرج.

79

كان الدكتور سليم الهاشمي في مكتبه في الكلّيَّة ذات يوم، حين تناهت إلى أذنيه أصوات عالية مرتفعة، « يسقط، يسقط، يسقط ». أطلّ من نافذة المكتب على ساحة الكلّيَّة، فرأى عدداً من الطلاب يتجمهرون ويهتفون هتافات سياسيّة. وكان عددٌ من رجال الأمن يقفون عند باب الكلية وهم يراقبون المتظاهرين. عرفهم من أجهزة الهاتف اليدويّ الذي كانوا يحملونه ويتحدّثون به من حين لآخر. فقال في نفسه: « آمل أن لا تؤثّر هذه المظاهرة على سير الدراسة في الكلّيَّة ».

في تلك اللحظة طرق أحدهم باب مكتبه، فعاد مسرعاً إلى كرسيِّه وجلس فيه متظاهرا بالهدوء. ورفع صوته قائلاً:

ـ تفضَّل ادخل.

انفرج الباب ببطء وأطلّت تلك الطالبة ذات الوجه الذي جذب انتباهه ورسخ في ذاكرته. كان اسمها أثيرة.

كانت مفاجأة سارة له، فقال بشيء من فرح، وبنبرة تشجيع:

ـ تفضلي، ادخلي، واتركي الباب مفتوحاً خلفك.

ودخلتِ، يا أثيرة، بنوع من التردُّد والوجل.

ـ تفضلي، اجلسي.

وبخطواتٍ وئيدة، جلستِ على أحد الكرسيين أمام مكتب الأستاذ، مكتبي.

ـ تفضَّلي، هل لديك استفسار عن المحاضرة، يسرني مساعدتك.

وبقيتِ صامتة ولم تتكلَّمي بعض الوقت، ثمَّ قلتِ بشيء من الحرج:

ـ نعم، أردت ...

ثمَّ صَمتِّ. وبقيتِ مطرقةً. وساد الصمت والحيرة جوَّ المكتب. وكانت شفتاك الممتلئتان ترتجفان ولا تفصحان عن حرف. وبعد وهلة قلتِ:

ـ أظن، أنني سآتي في يوم آخر.

ثمَّ نهضتِ وانصرفتِ مسرعةً.

وحالما انصرفتِ، استأذن أحد زملائك بالدخول وطرح جملةً من الأسئلة. .

في سريري البارد، أنا الملك المتوج، أتمدَّد على عرش الغربة، يحيط بي رعاياي : الهمُّ والسهاد والأرق كلَّ ليلة، حتّى إذا مللتْ صحبتهم وعييتْ من حضورهم انصرفوا، لتحاصرني جيوش الكوابيس في منام الوحدة. لا ينسحب منها جيش حتّى يحلّ محلّه جيشٌ أكثر عدةً وأكبر عدداً.

80

بعد بضعة أيام، دخلت الطالبة أثيرة مكتب الدكتور سليم الهاشمي في الكليَّة بعد الدرس الذي ألقاه.

ألقيتِ التحية، يا أثيرة، وجلستِ بشيءٍ من الوجل والخجل على الكرسيِّ أمامي. بقيتِ صامتةً بعض الوقت. وتبادر إلى ذهني أنَّك ترتابين بي، وتحترسين مني، كما لو كنتُ أحمل جرثومةً تنتقل عدواها بمجرَّد الكلام.

ولكي أشجِّعكِ على الكلام، سألتكِ :

ـ هل أنتِ من الرباط؟

ـ لا، فاس.

ـ لا توجد جامعة في فاس، ولهذا فأنتِ بعيدةٌ عن الأهل.

هززتِ رأسكِ موافقة.

ـ هل يؤثِّر ذلك على دراستك أو استيعابك الدروس؟

وظللتِ صامتةً، يا أثيرة. فقلتُ محاولاً مواصلة الحديث:

ـ لا شكَّ في أنَّكِ تحنّين إلى الأهل في فاس وإلى مدينة فاس، فقد سمعتُ أنها مدينة عريقة، جميلة بأهلها وبمعاهدها العلمية الشهيرة.

كان في عينيكِ حزن لا يضارعه إلا بؤسي، والأحزان تتجاوب مع بعضها كما تتناغى الطيور المهاجرة الباحثة عن الدفء والحنان. وتهبّ في نفسي رغبة خفية تدفعني إلى مدِّ يد العون إلى غريقٍ مثلي. غريقٌ يتشبث بغريق. رغبة في معرفة أسباب الحزن المحنَّط في عينيك، والأسى المتشقِّق على شفتَيكِ. كانت الشفة السفلى ممتلئة ومنفرجة قليلا فيها دعوة مكتومة للتهامس. وكان يراودني وهْمٌ في قدرتي على شفائكِ من ذلك الحزن،

وينتابني في الوقت ذاته خوفٌ من الإخفاق. وكم من مرَّةٍ يقف الطبيب عاجزاً عن تحقيق الشفاء حتّى لو استطاع تشخيص الداء. هل كان شعوري نحوكِ جواباً على إشكاليّة وجودي؟!

وقلتِ لي، يا أثيرة :

ـ هل تودّ زيارة فاس، سيسعد أهلي باستقبالك واستضافتك.

قلتُ:

ـ شكراً لكرمكِ ولطفكِ، ولكنّي لا أستطيع تلبية دعوتكِ الكريمة. فليس من اللائق في بلادنا أن يتزاور الأستاذ مع بعض طلابه دون الآخرين، على الرغم من أنَّ الوضع مختلفٌ حيث كنتُ في أمريكا. بالأمس فقط دعاني أحد زملائك لتناول العشاء مع أهله واعتذرتُ إليه كذلك. إنَّه الكرم المغربيّ الأصيل.

عندما التقيتُكِ في الرباط، كان الموت يتربَّص بي عند كلِّ منعطف وخلف أعمدة النور، وفي أغلفة الرسائل الملغّمة، ويبعث رعشةً باردةً في أوصالي، ولكنّي كنت ألتحف الصمت، وأغمد اضطرابي في بطن الكتمان، وأدفن خوفي لئلا تلحظه العيون. كانت سيوف الرعب تحزُّ البسمة في وجهي، وتبذر الجدب في أحشائي. كنتُ ألتزم الحذر، وأتجنَّب التنقّل غير الضروريّ. قليلاً ما أخرج من منزلي الصغير في شارع ابن خلدون الذي لا يبعد إلا دقائق معدودة عن الكليّة. وعندما كنتُ أسير إلى عملي في الصباح، كنتُ أتلفَّتُ بين لحظةٍ وأخرى بصورة لا إراديّة.

كانت السفارة العراقيَّة بالرباط آنذاك مكتظَّة بعشرات الموظَّفين، أغلبهم من رجال الأمن والمخابرات، الذين يحملون ألقاباً دبلوماسيَّة، وقد سمعتُ أنَّهم اغتالوا أحد العراقيِّين المعارضين في الفندق الذي كان ينزل فيه. وفي الأيام العاديَّة، لا شاغل لهم سوى كتابة التقارير إلى بغداد عن العراقيِّين المقيمين في المغرب الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين؛

وعندما لم يعُد لهم ما يخبرون عنه يأخذون بكتابة التقارير عن بعضهم البعض، وكأنّهم يقتدون بقول الشاعر الذي لم يسمعوا به ولا بغيره:

وأحياناً على بكْرِ أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

81

ذات يوم توجّه الدكتور سليم إلى قاعة الدرس لإلقاء درسه على مجموعته من الطلاب، فوجدهم واقفين يتحدّثون بالقرب من باب القاعة. وما إن رأوه حتّى أخذ بعضهم ينظر في وجوه بعضهم الآخر. وبعد شيءٍ من التردُّد دخلوا القاعة، وألقى الدكتور سليم درسه وأجرى المناقشة المعتادة في النصف الثاني من الحصّة. وعندما عاد إلى قاعة الأساتذة حيث يلتقي الأساتذة في أوقات فراغهم لتناول القهوة أو الشاي بالنعناع « أتاي »، دهُش الهاشمي لوجود معظم الأساتذة في قاعة الاستراحة. فسأل أحدهم عن السبب، فقال له إنَّ الطلبة مضربين، فازدادت دهشته، وأخبر زميله بأنّه ألقى درسه كالمعتاد. فقال زميله:

ـ لا شك في أنَّ الطلبة دخلوا قاعة الدرس، عندما رأوكَ أنتَ مجاملةً منهم لك، لأنّكَ ضيف المغرب.

ابتسم صامتاً. أثار استغرابه أنَّ الطلبة يضربون عن الدرس، فإضراب الطالب عن الدرس، بالنسبة إليه، كإضراب المريض عن تناول الدواء أو حتى إضراب الطبيب عن معالجة المرضى. ولكنّه لم يستغرب إكرام الطلاب له، وقال في نفسه لا شكّ في أنّه الكرم المغربيّ. فقد أثار انتباهه أنّ عدداً من طلبته وجّهوا إليه الدعوة لتناول الطعام مع أهاليهم، ولكنّهم، عادةً، لا يوجّهون الدعوة للأساتذة المغاربة. إنّه ضيف المغرب. أمّا زملاؤه من الأساتذة المغاربة فكانوا يلحّون في توجيه الدعوة إليه لتناول الطعام معهم في منازلهم. كان يعتذر إليهم بلطف، لا لأنّه يحاول أن يقلّل من

تنقُّلاته وخروجه من المنزل فحسب، وإنَّما لأنَّه لا يستطيع ردَّ الدعوة إليهم في منزله الخالي من امرأة، ودعوة الضيف إلى مطعم ليس من العادات العربيّة التقليديّة التي تربّى عليها.

ذات يوم التقى الدكتور سليم الهاشمي بالشاعر الأستاذ الدكتور مولاي إدريس، وكان سليم معجباً بشعره. فتحدّثا عن الأدب والشعر عامة، كان الوقت ظهراً عندما انتهيا من الحديث، فقال له الدكتور مولاي إدريس :

ـ يسعدني أن ترافقني الآن لنتناول طعام الغداء معاً في منزلي.

عندما اعتذر الدكتور سليم الهاشمي بلطف، قال له الدكتور مولاي إدريس باسماً :

ـ لا يمكنك الاعتذار منّي أبداً، لأنّي أريد أن أحدّثك عن بغداد التي أمضيت فيها سنوات دراستي الجامعيَّة.

ما إن سمع الهاشمي اسم « بغداد » حتّى بدت عليه الاستكانة والانصياع، كأن الدكتور مولاي إدريس قد نطق بكلمةٍ سحريَّةٍ أو نوّمه مغناطيسيًّا.

أثناء تناولهما طعام الغداء، أخبر الهاشمي مضيفَه مولاي إدريس عما يلقيه من المغاربة من حفاوة وتكريم. قال مولاي إدريس:

ـ لا غرابة في ذلك. فقد كنتُ ألقى الكرم نفسه من قِبل العراقيّين في بغداد عندما كنتُ طالباً هناك. سأروي لكَ طرفتَين بقيتا عالقتَين في الذهن والقلب. وراح يروي الحكايتَين باللهجة العراقيّة التي يتقنها، فقال:

ـ « ذهبتُ يوماً ما إلى مركز الشرطة في بغداد لإجراء التجديد السنويّ لأوراق إقامتي. دخلتُ المركز وتوجّهت إلى مكتب الضابط المسؤول. كان الباب مفتوحاً والضابط منكباً على كتابة شيءٍ ما. فانتظرتُ عند الباب. وما إن رفع رأسه ورآني (وقد حسبني عراقياً

لسحنتي السمراء وجسمي النحيل)، حتّى صرخ في وجهي غاضباً:

ـ ويلك، لماذا أنتَ واقف هنا؟

فقلتُ:

ـ جئتُ لتجديد إقامتي، أنا مغربيّ.

وما إن سمع ذلك حتّى تبدّلت ملامح وجهه وانبسطت أساريره، وقال بابتسامةٍ عريضةٍ على وجهه :

ـ مرحباً، مرحباً، تفضل اجلس هنا :

وعدّل أحد الكراسي بقربه وأشار إليه. ثمَّ صاح منادياً على الشرطيِّ الواقف في باب المركز:

ـ أبو جاسم ، اجلب شاي « سنكين » للأستاذ.

وعندما وصل الشرطيُّ يحمل الشاي، دفع الضابط بأوراقي إليه ليأخذها إلى المكتب المختصّ في الطابق العلوي من المركز، ويعود بها إليّ دون أن أتجشم عناء الانتقال بنفسي.

وواصل الدكتور مولاي إدريس حديثه قائلاً :

ـ « أمّا الحادثة الثانية التي ظلّت منقوشةً على شغاف القلب، فقد حصلتْ يوم ذهبتُ لمشاهدة مباراة ودّية في كرة القدم بين فريق الجيش العراقيّ وبين فريق جيش التحرير الجزائري، وكانت الجزائر قد استقلت قبل أسابيع من ذلك اللقاء الودّي. ونظراً لأنّنا ـ نحن المغاربيّين ـ كنا نحلم بوحدة المغرب العربيّ بُعيد استقلال بلداننا، فإنّني كنت الوحيد من بين المتفرّجين الذي يُشجّع الفريق الجزائريَّ ويصفّق له. وأثار تصرُّفي ذاك انتباه أحد الشبان العراقيين الذي كان ذا جسم رياضيٍّ طويل ومفتول العضلات ويرتدي «دشداشة» (جلباباً) بيضاء ويعتمر طاقيّة بيضاء كذلك، فحدجني بنظرة استهجان. وعندما تكرّر تشجيعي للفريق الجزائريِّ حدجني بنظرة غاضبة، وعندما كررتُ تشجيعي للمرّة

الثالثة، حدجني بنظرة تهديد. وعندما لم أُعر نظراته بالاً وواصلتُ تشجيعي للفريق الجزائري الذي كان يحقّق تقدُّماً على نظيره الفريق العراقيّ مما زاد الطين بلّة وأثار استياء ذلك الشاب العراقي، نهض غاضباً ووقف قبالتي وهو يصرخ :

ـ ويلك، تسكتْ وإلا أشقّ حلقك؟

اعتراني الخوف حقًّا، لأنّني لا أريد أن أدخل في مشاجرةٍ غير متكافئة. فقلتُ له بلهجة اعتذار :

ـ ولكنّني مغربي.

ما إن سمع الشابُّ جوابي باللهجة المغربيّة، حتّى بهّت ثمَّ انهال عليَّ ضماً وتقبيلاً، كأنّه عثر على أخٍ فقده منذ زمن طويل. وفجأةً جرى نحو بائع المرطبات المتجوّل، وعاد إليَّ وهو يحمل مشروباً غازياً « سينالكو » ، وظلّ يردّد باعتذارٍ وخجلٍ وارتباكٍ كبير :

ـ اسمح لي. لم أعرف أنّك مغربي. اشرب سينالكو على حسابي. إنّك تبدو عراقياً تماماً. وأنتَ عراقي. أنتَ في بلدك. مرحباً بك في بلدك. اسمح لي يا أخي. ولم لا؟ فلنشجع، أنتَ وأنا، الفريق الجزائريّ. أنا أتشرّف أن أكون جزائرياً. أنتَ عراقيّ. اشرب سينالكا على حسابي. أنا مغربيّ »

ابتسم الدكتور الهاشمي وقال :

ـ العراقيُّ سريع الغضب، ربّما بتأثير الجوِّ المتطرّف، ولكنَّ قلبه طيّب.

82

ذاتِ يوم، سمع الأستاذ الهاشمي طرقاً خفيفاً على باب مكتبه في الكلّيّة، فقال الأستاذ كعادته :

ـ تفضّل، ادخل.

ودخلتِ أنتِ، يا أثيرة، وعلى شفتَيكِ شبح ابتسامة ساخرة. دخلتِ عليَّ وأنتِ في غاية الأناقة: فستانكِ أبيض، عيناكِ كُحيلتان، عطركِ فوّاح، جيدكِ تزيّنه قلادة لؤلؤيَّة، ونضدٌ من أساور في معصمَيك، وضفيرتك مسدلة على صدركِ بين نهديك. كان لأناقتكِ تلك وجمالك الكافر سطوةٌ على فؤادي الواهن. فشعرتُ بقلبي يرتجف لحضوركِ. ولم تسعفني الكلمات فأشرتُ إلى الكرسيّ. وجلستِ هناك صامتةً بعض الوقت، كعادتك تلك الأيام. أما تزالين تكثرين من الصمت، وأنتِ في صحبة الآخرين؟ كنتِ صامتةً، ولكن أدهشتني بلاغة جسدكِ الرشيق، وفصاحة عينيكِ الكحيلتَين. وفي تلك المرَّة، أحسستُ بأنَّك تريدين أن تقولي شيئاً لي.

ـ ما وراءكِ، يا أثيرة؟

ـ لقد أُغلقت الكلّيَّة.

ـ ماذا تقولين؟

ـ سمعتُ أنَّ القرار اتُخِذ هذا الصباح.

قررتِ الحكومة ذلك، لأنَّ الطلاب لم يعودوا يحضرون إلى الكلّيَّة لتلقي الدروس، وإنَّما للمشاركة في المظاهرات والاجتماعات السياسيّة.

يا إلهي، ماذا سأفعل إذا استمر إغلاق الكلية أو إذا قرَّرت الحكومة اعتبار هذه السنة الدراسية سنةً بيضاء أو سوداء لا دراسة فيها؟ لا يمكن أبداً أن أستمر في قبض راتبي الشهريّ من عمادة الكلّيَّة في الوقت الذي لا أفعل فيه شيئاً. إذاً لا بدَّ أن أبحث عن عمل في مكانٍ ما. صحيح أنَّني أستطيع العودة إلى الولايات المتّحدة للتدريس. ولكنَّني سأحكم على نفسي بالموتِ غربةً. نعم الموت غربةٌ. لقد فكّر الحكّام منذ القديم في طرائق تنفيذ حكم الموت على معارضيهم، فحكموا عليهم بالموت

حرقاً، وبالموت سمًّا، وبالموتِ شنقاً، وبالموت قتلاً بالرصاص، وبقطع الرأس بالمقصلة، وبالموت بالكرسيّ الكهربائيّ، ولم يفكّروا لحدٍّ الآن في الحكم على أولئك البائسين بالموت غربةً. نعم الغربة تقتل، كنصلٍ يُغمَد في كبد الإنسان. أين سأذهبُ، يا ربّي؟ معظم الأقطار العربية يعاني بطالة المثقّفين، وهم ليسوا بحاجة إلى أساتذة جامعيِّين.. لا حاجة لمزيد من الأساتذة الجامعيِّين. الحل بسيط إذا زاد عدد الطلاب. توسيع القاعات الدراسيَّة أو عدم حضور الطلاب المسجَّلين قاعة الدرس إذا لم تتّسع لهم. المهمُّ الكليات تسجل الطلاب الراغبين. أمّا نوعيَّة الدرس فهذا أمرٌ آخر.

وفجأة تناهى صوتكِ إليَّ وأنتِ تقولين :

ـ ما دامت الكُلِّية قد أُغلقت، لم أعُد أنا طالبةً ولم تعُد أنتَ أستاذاً ، وبذلك تستطيع أن تَقبل دعوتي لتشرفنا في المنزل.

وقلتُ لكِ وأنا شارد الذهن :

ـ إن شاء الله.

83

توقَّفت الدراسة في الكلِّيَّة. ولكنَّ الأساتذة ظلّوا يأتون إليها، ويلتقون في قاعة الأساتذة لتناول الشاي ومناقشة أوضاع البلاد السياسيّة، أو يجلسون في مكاتبهم للعمل في بحوثهم. وكان الأستاذ سليم الهاشمي يذهب إلى مكتبه كلَّ يوم وتوافيه أثيرة هناك.

شيءٌ غامضٌ يعوق تجاوب قلبها مع قلبي، ويعرقل انطلاق روحها في دروب روحي. كلّما افترَّت شفتاها عن ابتسامة حلوة، سرعان ما تجمَّدت تلك الابتسامة في منتصف الطريق لتمسي شاحبةً محنَّطةً على شفتَيها. وكلّما انفرجت عيناها بالفرحة، انسدلت ستارة وَجَلٍ على صفائهما لتغتال المعنى الوليد فيهما،

وتحيلهما إلى مجرَّد نافذتَين مشرعتَين على لاشيء. حيَّرني تقلّب عواطفها اتّجاهي. يومٌ أحسُّ بها وهي مقبلة نحوي بكل مخزون عاطفتها؛ وفي يوم آخر ألفيها منكمشةً على نفسها لا حركة فيها. خطوةٌ إلى الأمام خطوتان إلى الوراء على طريق الحبّ. آه لو كنتُ أعرف قراءة الأفكار والأسرار، لأرحتُ نفسي من التساؤل والتعامل مع المجهول. ليتها أفضت إليَّ بمكنون فكرها. لا أعرف شيئاً عن طبيعة علاقتنا، لا أعرف شيئاً عن موقعي في خريطة قلبها، فالمعرفة تتأتّى من الفهم، والفهم يتأتّى من الوضوح، وليس هنالك شيءٌ واضحٌ لي.

أنا متأكّد من أمرٍ واحدٍ هو أنّني أستطيع أن أقترب من عينَيها، أحصل على ابتسامةٍ باهتةٍ من شفتَيها، أضمن إقبال مَسمَعيها على ما أقول، غير أنّني واثقٌ من عدم استطاعتي ولوج قلبها مطلقاً، فهو مغلقٌ، موصدٌ بإحكام، مُقفلٌ، ليس بإمكان كلماتي ولا نظراتي ولا دقّات قلبي من فتحه.

في روايتها الجميلة « عابر سرير »، تقيم الروائيَّة الجزائريَّة أحلام مستغانمي مقابلةً بين أجناس النساء وأنواع الأبواب. فالأوربيَّات مثلا كالأبواب الزجاجيّة للمحلات التجاريَّة العصريَّة، ما إنْ تقترب منها حتّى تنفتح لك، أمّا النساء العربيّات فيشهرن في وجهكَ وقارهن كأبوابٍ خشبيةٍ سميكةٍ عليها كثيرٌ من الأقفال والألسنة، ولكنَّهنَّ يتركنَ لكَ المفتاح تحت دوّاسة الباب .. كما عن غير قصد.

بيدَ أنّي لم أجد المفتاح لقلب أثيرة في أيِّ مكان، رغم عمق التفكير وطول البحث. ولا يمكنني تفسير ذلك إلا لأنّها لا تملك المفتاح مطلقاً، فهي لم تقفل الباب بنفسها، وإنّما تمَّ إقفاله من الخارج، فهي حبيسة في الداخل لا تستطيع خلاصاً.

لم أكن أنا أقلَّ تردُّداً منها. كلّما تجمَّعت حروف كلمة غزل على شفتَيّ، تذكرتُ أخلاقيَّات المهنة فأجهزت عليها بحسام الأمانة.

84

عندما كنتِ تغربين عن أُفق انتظاري ليوم أو يومَين، تتسرَّب برودةٌ جليديَّة إلى أعماق روحي، وينساب صِلّ القلق إلى تخوم قلبي، فتنتفض حروفي مثل عصافير مذعورة، في جميع الاتجاهات، لتسأل عنكِ. وها أنا ذا طريح الفراش منذ أمدٍ طويل، ولم تجد النخوة طريقها لحرفٍ من حروفكِ. بقربكِ أحسُّ بوجودي حقيقةً، وبُعدكِ يمسي وجودي مجازاً.

تعالي أيّتها الحبيبة البعيدة أنجديني. طلّي عليّ أيّتها الحبيبة، هلّي عليَّ في هذا الظلام الدامس، بلّي شفتَيَّ فقد أذبلهما الظمأ، دلّي خطاي على الوجهة التي تريدين. حطّي قدميَّ على الطريق الصحيحة.

كنتُ في مكتبي بالكلية أنتظر قدومكِ في الوقت المعتاد. فتأخرتِ عن الحضور. فداهمني شعور بأنّني تعيس حقًّا وكأنّني أعيش على زياراتك القصيرة، أو أحيا على أمل اللقاء بكِ يوميًّا. كان لا بدّ لي أن أعرف وضعي. وحينما فكرتُ بعمق، تساءلتُ ما إذا كنتُ قد وقعتُ في غرامك. فجميع العلامات من أرق في الليل وهمٍّ في النهار، قد أصابتني. ها أنا ذا أرتجف الآن في مكتبي لأنّني أفكّر فيك، أتوقّع قدومكِ، أخشى عدم حضورك. هل أعترف لنفسي بأنّني أحبُّك فعلاً. فجميع علامات الحبِّ بادية عليّ. وهي علاماتٌ لا تخفى حتىّ على أعمى، فهذا الطبيب الضرير داود الإنطاكي يقول في كتابه « **تزيين الأسواق في أخبار العشّاق** » :

« **علامات الحبّ هي أحوالٌ يتّصف بها البدن كتغيُّر الألوان والعيَنين، وتواتر النبض والخفقان؛ وربّما ازدادت هذه عند رؤية المحبوب أو سماع ذكره، حتّى إنّها تقضي بالهلاك...** ».

عليَّ أن أعترف الآن بأنني وقعتُ في غرامك، ولم ينفع احتراسي ولم يُجدِ ارتيابي بزياراتك، وأنّكِ استعبدت قلبي في

مملكة العشق، فصرتِ المليكة. فنبضي يتواتر، وقلبي يخفق بشدَّة، وعيناي تدمعان لمجرَّد أن تخطري ببالي. عليَّ أن أعترف بأنَّني عاشق. عليَّ أن أدرك أنّي مريض بالعشق. فهذا خير لي، إذ إن المريض الذي لا يعترف بمرضه ويتصرَّف كما لو كان صحيح البدن، سيؤذي نفسه، ويودي بحياته.

85

كان تردُّدك يقتلني ويحييني. نظراتُ عينَيك تدعوني إلى الغوص في الأعماق، وكلمات شفتَيك تردّني مكفَّنا بالخيبة. فلا أدري ما إذا كان عليّ أن أتقدم خطوةَ رغبةٍ نحو حضرة الحبِّ، أم أتراجع خطوتَي رهبةٍ نحو محراب العزلة. وأنا أطمئنُّ إلى أُذنَيّ أكثر مما أصدِّق عينيَّ، لأنَّ أُذنَيَّ مفتوحتان دائماً أردتُ ذلك أم لم أُرد، أمَّا عيناي فغالبا ما أغمضهما بغير إرادة مني، عندما يشتدُّ بي التَعب وأغفو قليلاً، أو عندما أراك فلا أقاوم جمالك المشرق وإغراءك الطاغي، فأجدني أغمضهما كما لو كنتُ أحلم، أو كما يغمض الإنسان عينَيه عندما يتعرَّض فجأةً لنور هائل، أو كما لو كنتُ أريد أن أحتفظ بصورتكِ في بؤبؤ العين، فأُغلق عليها الجفنَين.

كنتُ أقلِّب الظنون وأتصفّح الهواجس. أتراها محاطةً بالمُعجَبين فلا يتَّسع وقتها لمُعجبٍ جديد؟ أتراها كانت تستعرض مُعجبيها لتختار أوسمهم وأشدَّهم شكيمةً، كما تفعل الأيّل الأنثى حين يحلّ أوان تزاوجها فتستعرض الأيائل الذكور وتختار أكبرهم قروناً وأشرسهم منظراً فتدعوه. إذا كان الأمر كذلك، يا سيدتي، فأنا أنصحكِ بتوفير الجهد والوقت. لقد حطّمت الغربةُ قرني وفتَّته. لم يعُد لي قرن أجابه به المصائب. أم تراها ذات معرفةٍ معمَّقة في علم الفراسة الذي يسمّونه اليوم علم الملامح، فاستدلّت من تباعد عينَيَّ على أنّني صبور، ومن ارتفاع أرنبة أنفي على سذاجتي، فراحت تمعن في دلالها دون أن

تخشى ثورتي. ما أشدَّ بساطتي، كنتُ أظنُّ أن ارتفاع أرنبة الأنف دليل على الشمم، ولم أدرِ أنَّ علم الملامح أثبت بأنَّه دليلٌ على السذاجة. لا، لا تقرئي شيمي من ملامح وجهي، فغربتي الطويلة وأحاسيسي المهيضة غيّرت ملامح وجهي، يا سيدتي.

86

كم من مرَّة تمنيتُ أن أفعل كما يفعل العشاق في بلدان أمريكا اللاتينية، فأصطحب معي فرقة من عازفي الغيتار، وأقف تحت شرفة دارك، وهم يعزفون أحلى الألحان وينشدون أرقَّ الأغاني طوال الليل في ضوء القمر، تحت نافذة دارك، لعلك ترقّين لحالي، وتطلّين ولو للحظة واحدة، وترمين وردةً حمراءَ تعبيراً عن رضاكِ عني، وعطفكِ عليَّ، وحبِّك لي.

سألتك، أيَّتها الحبيبة البعيدة، سألتكِ أيَّتها الطائرة المرفرفة في فضاء روحي منذ الأزل، سألتكِ أن تعيريني بعض ريشك لأبني عشًّا ثابتاً بين الضلوع لأحزان القلب. أعينيني، ارفديني بشيءٍ منك، وإلا فأيُّ طائر غيرك، يا سيدتي، يمنحني ريشه؟ لقد ضاق بي المكان على اتساعه حتَّى لم يعد بإمكاني أن أطلق يمام أحلامي أو عصافير أشجاني.

أتيتك أبحثُ فيكِ عن ذاتي، ولكنَّكِ أبيتِ أن تفتحي قلبكِ لي. تمنيتُ أن أكتب قصَّة حبِّي بدمع عينيّ ورضاب شفتيكِ وأنتِ جنبي تمسكين بيدي. فبعد أن التقيتك لم أعُد أحسن الكتابة إلا عندما تطلّ عليّ عيناك كالحُلم.

87

كنتُ مريضاً حقًّا. ترتعش يداي، وترتجف شفتاي، ويتهدَّج صوتي واهناً عندما أتحدَّث. وكنتُ في أعماق نفسي أعرف أنَّ

مرضي ليس نتيجة جرثومة أصابتني، أو عدوى ألمّت بي، وأنّني إن لجأتُ إلى طبيب، لن ينفعني بشيء، فلا الدواء، ولا الغذاء بنافع في حالتي. ومع ذلك ذهبتُ إلى طبيب، فحصني وأعطاني بعض الأدوية المهدِّئة. استخدمتها مدّةً، فلم تُجدِ. وعرضتُ نفسي على طبيب آخر، فحصني وأكثر من التحليلات في مختبرات حدّدها لي، كما لو كانت له حصّة في رأسمال تلك المختبرات أو أنَّ أصحابها يعطونه عمولةً عن كل تحليل يأمر به، وأعطاني بعض الأدوية المهدئة، وأقبلتُ عليها وأنا أعلم أنّها لن تُشفيني. كنتُ مستعدًّا أن أضحّي بكلّ ما أملك من أجل أن أعثر على طبيب يخرجني من مصيبتي. فها هي قريبة مني بجسدها تأتيني كلّ يوم، وهي بعيدة عني بقلبها، لا أستطيع أن ألج فيه.

كنتُ مستعداً أن أفعل أيَّ شيء لأكسب قلبكِ، أو أبرأ من حبّك.

في تلك الأيام العصيبة، عاد الأستاذ سليم صديقُهُ وزميله المغربيّ، سيدي محمد. اطّلع على حالته. اقترح عليه أن يذهب به إلى طبيب. وعندما أخبره سليم أنَّ الطبَّ لا ينفع في حالته. ونوّه له بسرّ مرضه، قال سيدي محمد بحماسٍ واضحٍ، وثقةٍ كبيرة:

ـ إذن، عليكَ أن تذهب إلى لالة عيشة البحريّة. سآخذك بسيّارتي.

سأله سليم :

ـ ومَن هي لالة عيشة البحريَّة؟

ـ إنّها أشهر وليَّة صالحة في المغرب، وهي راعية الأحباب وحارسة العزّاب. ما لجأ إليها عاشق واستجار بها إلا وتشفَّعت له عند الله فنال مراده.

ـ وكيف بلغتْ تلك المنزلة عند الله؟

ـ لذلك قصَّة حزينة تذكرها الروايات وتسجّلها المصادر عندما

تتناول سيرة الولي الصالح أبي شعيب الردّاد الذي عاش في مطلع القرن العاشر الهجري الموافق بداية القرن السادس عشر الميلادي. فقد رحل أبو شعيب الرداد من بلدته أزمور في المغرب إلى بغداد في طلب العلم ودراسة علوم القرآن وأصول الدين. وهناك التقى بفتاةٍ عراقيّة صالحة اسمها عائشة، وتعلّقا ببعضهما، فطلب يدها للزواج من أهلها. ولكنّه فوجئ برفضهم، لعلّهم كانوا يخشون أن تتغرّب ابنتهم. فعاد أبو شعيب الردّاد إلى المغرب كسير القلب. وفي أزمور طار صيته وتناقلت البلاد أخبار زهده وكراماته. وما لبثت عائشة العراقيّة أن عقدت العزم على لقاء الحبيب، فشدّت الرحال إليه في رحلة بحريّة خطيرة. وما بلغت أطراف الشاطئ عند مصب وادي أمّ الربيع في المحيط الأطلسي قرب أزمور حتّى أدركها الموت غرقا دون أن تنال حظوة اللقاء بالحبيب. فدفنها الأهالي هناك، وشيّدوا على قبرها ضريحاً كبيراً أبيض اللون، ولقّبوها بلالة عيشة البحريّة. وحزن الولي الصالح أبو شعيب الردّاد حزنا عميقاً عليها، وعاش باقي حياته عازباً وفاءً لها.

وأضاف سيدي محمد مبتسماً :

ـ وما دمتَ عراقياً مثل لالة عيشة البحريّة، فأنّا متأكّد من أنّها ستشفع لكَ، فتحقّق أمنيتكَ.

واصطحبه صديقه سيدي محمد بسيّارته إلى بلدة أزمور التي تبعد مدّة ساعتين بالسيارة عن الرباط، ومنها توجّها إلى ضريح لالة عيشة البحريّة.

ومشيتُ أدوس بحذائي على شهادة الدكتوراه التي حصلتُ عليها في أمريكا وعلى جميع ما تعلّمته هناك من الروح العلميّة الموضوعيّة التي لا تقبل الخوارق ولا تقرّ بالمعجزات. وقابلنا الحاجّة القيمة على الضريح، وبيّنا لها حاجتنا، فقالت بشيء من الخجل :

ـ إنَّ زائرات لالة عيشة البحرية، هنَّ من الشابّاتِ. ولا يأتي الرجال هنا، بل يذهبون إلى ضريح الولي الصالح أبو شعيب الرداد.

أجاب سيدي محمد قائلاً:

ـ إنَّ صديقي سليم عراقيّ، ولا شكَّ في أنَّ لالة عيشة البحريَّة ستشفع له.

وافقت القيِّمة على مضض وأخذت تشرح لهما طقوس الزيارة:

أوّلاً، التبرُّك بالضريح وتقبيل شبّاكه وجدرانه،

ثانياً، تقديم القرابين للقيِّمة على الضريح: نقود، شموع، دجاج، وما إلى ذلك.

ثالثاً، اقتناء لوازم التطهُّر من عين المكان: مجمر صغير، حناء، بخور، ماء الورد.

رابعاً، الاغتسال بماء البئر الساخن، ودفع ثمن ذلك إلى القيِّمة على الضريح.

خامساً، مزج الحناء بماء الورد، واستخدام العجين لكتابة اسم العاشق واسم المحبوبة على جدار مدخل الضريح .

فعلتُ كلَّ شيء بدقَّة لئلا أقع في خطأ قد ينال من الشفاعة، وأتيتُ بعجينة الحناء وماء الورد لأكتب اسمي واسمكِ، يا أثيرة، على جدارٍ مدخلِ الضريح فلم أجد مكاناً لأكتب اسمينا عليه. كانِ الجدار كلّه مليئاً بالأسماء، ورحتُ أدور وأدور حول الجدار بحثاً عن مساحةٍ صغيرة تكفي لكتابة اسمينا، حتّى وجدت فراغاً صغيراً في زاوية هناك، فكتبتُ اسمكِ أولاً بأجمل خطّ تمكّنت منه، ثمَّ كتبتُ اسمي تحته.

88

أخذت أثيرة تزور الأستاذ الهاشمي كلَّ يوم تقريباً في مكتبه

بالكلّيّة. يشجّعها على الحديث معه. تطفح المحبّة من عينَيه وهو يوجّه كلامه إليها.

وقلتُ لكِ، ذات يوم:

ـ أثيرة، أرجوكِ أخبريني عن سرّ هذا الحزن الماثل في عينَيك.

طرحتُ هذا السؤال عليك كثيراً، فلم تجيبي عليه، أمّا ذلك اليوم فقد رجوتكِ بإلحاح.

ترددتِ كثيراً، ثمَّ أخذتِ تتكلّمين بصوتٍ هامسٍ وعباراتٍ متقطعة :

ـ « كنتُ متزوجة ... وسعيدة. تزوّجَني وعمري ثمانية عشر عاماً... بعد تخرجه من الكلّيّة الطبيّة،... واصطحبني معه إلى باريس حيث واصل دراساته التخصّصيّة... أمضينا معاً أربع سنوات في باريس... كنتُ سعيدة جداً. سعيدة بحبّه وإخلاصه وتضحياته... لم أرزَق بمولودٍ خلال سنتَين من زواجنا مع حرصي الشديد على أن أهدي له طفلاً،... فأخذني إلى أرقى مستشفىً متخصّص في باريس، وأجرينا الفحوص معاً. وبعد ثلاثة أيام جاءني بنتيجة الفحوص،... وبهدية كبيرة ليخفّف من ألم النتيجة عليّ: هذه القلادة التي أتقلدها دائماً لتذكّرني به. أقتناها من محلّ مجوهرات فخم في ساحة الفاندوم في باريس. قال لي وهو يعرض عليّ الأوراق الطبيّة :

ـ يؤسفني أن أخبرك أنَّ الفحوص...

وتردَّد في مواصلة الكلام. ألححتُ عليه، فقال :

ـ إنَّكِ... إنَّكِ لا تستطيعين الحمل... ولا علاج لذلك. ولكن صدّقيني. أُقسمِ لكِ بعينيكِ، أنَّكِ أغلى ما في الوجود. ولو أعطوني أطفال العالَم كلّهم، لما استبدلتهم ببسمةٍ منك. أنتِ حبيبتي.

شعرتُ بطعنةٍ تصيب أنوثتي في الصميم. أحسستُ بأنّني امرأةٌ

ناقصةً، امرأةً بلا أمومة. ألم تُخلَق المرأة لتلد، ليستمر الوجود؟ ولكنَّه أخذني بين يديه، أمطرني بالقبلات والعناق. وقال لي :

ـ سأحبُّك أكثر منذ اليوم، سأحاصرك بحبّي بحيث لن تجدي وقتاً للتفكير في الأطفال. خذيني بين يديك، ضمّيني إلى صدرك، فأنا طفلكِ الوحيد الذي يعبدك إلى الأبد.

وظلَّ يغمرني بحبِّه وعطفه ولطفه وهداياه، وكنتُ في غاية السعادة. وانتهى من دراساته التخصُّصية، ونال أعلى الشهادات الطبيّة بمرتبة الشرف الأولى. وكنا في منتهى السعادة.

وعدنا إلى المغرب. ولكن... ».

ولم تتمكَّني من مواصلة الحديث فقد خنقتكِ العبرات. ووجدتني أتلهَّف لمعرفة ما وقع، فأسأل بشيء من الإلحاح :

ـ ولكن؟ ماذا حدث؟ تكلَّمي رجاءً.

لم تستطيعي الإجابة فقد اغرورقت عيناك بالدموع. حاولتِ مرَّتين أن تستأنفي الكلام فخنقتكِ العبرات. ثمَّ رأيتكِ تفتحين حقيبتكِ اليدويَّة بأصابع مرتجفة، وتُخرجين ورقةً مطبوعةً، وتناولينني إياها. ألقيتُ نظرةً عليها، فوجدتها ورقةً منتزعةً من مجلَّة (باري ماتش) الفرنسيَّة، وفيها جزءٌ من تقرير كتبه مراسلها من الرباط، كون كو، ونشرته المجلَّة بتاريخ 1971/7/24، فقرأتُ ما يأتي :

« ... سمعنا بعض الطلقات الناريّة. لا. إنّها مفرقعات. ثمّ هيجان للضيوف. واستمعنا لنداءاتٍ وصرخاتٍ. وفي الخارج، كان الهلع. وسُمعت طلقات الرشاشاتِ الثقيلة، والمسدسات الرشاشة، وبعض الطلَقات القويّة لحاملات الصواريخ. أصاب الضيوف الهلع والدهشة والبلبلة ما جعلهم يدورون كالدراويش داخل القصر الذي أصبح مضماراً لدوران الحمقى، حيث يسقط المدعوون بالرصاص مثل الدمى المتحرّكة.

ماذا يقع، ماذا يمكن تسمية هذا؟ هل هي ثورةٌ أم انقلابٌ عسكريٌّ، أم مجزرةٌ، أم فيلمٌ عبثيٌّ يصوّره رجلٌ مسّه جنون نيروني قد يكون ملأ بالرصاص سلاح ممثّلين مخدّرين؟ لا أحد يعلم، لا أحد يفهم...

يهرع الضيوف في كلّ اتّجاه. ويطلق جنودٌ صغارٌ جدّاً، وهم في حالة تخدير حقيقيّ، النار على الجميع. يسقط رجل عجوز، تخترق جسمه خمسَ عشرة رصاصة، إنّه الأستاذ ديبوا- روكبير الطبيب الجراح، كما قُتل الدكتور بنيعيش، وسقط طبيب القلب الفرنسي الشهير «هيمبير» مصابا بجراحه، أنهت حياته قنبلة يدويّة انفجرت قربه، وقُتل سفير بلجيكا. تمشي في بركة من الدماء، وتتراكم الجثث وسط قوالب الحلوى وأكوام المأكولات المنتشرة والمداس عليها بالأقدام، كما أطلق جنديٌّ النار على خروف يُشوى على قضيب، فطار الخروف ليستقرّ بين جثتين...

رجالٌ مستلقون تحت الشمس وأيديهم على رقابهم...جنودٌ يكسرون آلات التصوير والساعات الحائطيّة. وجنودٌ رصّوا الضيوف على الحائط، ويضربون بأعقاب البنادق مَن يُنزل الرأس أو اليدين... جنودٌ مسعورون يُخرجون جنرالات مرتدين أقمصةً رياضيّةً ويقتلونهم في عين المكان. أين هو الملك؟ يجري الضيوف في جميع الاتجاهات. قتلٌ جماعيٌّ. اضطرابٌ. أوامرٌ أو نداءاتٌ بصوت قويٍّ. مدعوون واقفون ملتحمون أو منفردون، هنا وهناك يؤخَذ مدعوون إلى مصير مجهول، يشتمَون ويضرَبون ويقتَلون. أين هو الملك؟ ساعتان بلا أوّل ولا آخر. ضجيجٌ وهيجان. دوران مجنون لا يفهم أحد بدايته ولا نهايته.

أين هو الملك؟

يواجهه متمرّدٌ وينظر إليه. يحرّك الملك سبحته بيدَيه وينظر إليه بهدوء. فجأة ينحني الجندي ويقبّل يد الملك. يسقط الستار...»

أغمضتُ عينَيَّ وقلتُ في ذات نفسي: أنتِ الأخرى ضحية الانقلابيّين العسكرتاريين. يا للمأساة. فقد فهمتُ أنّ التقرير الصحفيَّ يتحدّث عن انقلاب الصخيرات الفاشل. ولا بدّ أنَّ زوجك كان من المدعوّين ولقي حتفه هناك.. ورحتُ أبحث عن كلماتٍ

لمواساتك. فوجدت أنَّ الكلمات تقزَّمت أمام المأساة. وكان لا بدّ لي أنَّ أقول شيئاً. فقلتُ لك:

ـ آسف جداً. إلى رحمة الله. أسأل الله أن يلهمك الصبر.

89

في تلك الليلة لم يستطِع سليم النوم فقد داهمته رغبة الكتابة.

لا تسأليني، يا أثيرة، كيف أكتب؛ وهل يُسأل الزهر كيف يعبق شذاه؟ وهل يُسأل الطير عن طيرانه؟ إنّه يجد جناحيه يرفرفان بعد أن ينبت لهما ريش. وأنا ألفيت نفسي أكتب ذات يوم دون أن أعرف السبب.

كنتُ كلّما تحدَّثتُ معكِ، يا أثيرة، تبرعمتْ في روحي رغبة الكتابة مثل زهرة ربيعيَّة، وتموسقت في مسمعي كلماتٌ لم تُنطَق من قبل، وحلّق في فكري الشوق، مثل سنونو مهاجرة في فصل الربيع، لعناق القلم. حتّى لو كنت صامتةً مطرقةً أثناء لقائنا، كنتِ تفجّرين فيَّ تلك الرغبة الجامحة في الكتابة مثل ينبوع جبلي. كانت حاجتي إليكِ حاجةَ المزمار للهواء، وحاجةَ النغمِ للوتر.

يقولون إنَّ الكتابة كالحبيب المتسلّط الغيور الذي يدمّر كلّ من سواه وما عداه. ولكنَّ الكتابة عندي وصيفة مسخَّرة لإرادتك، وفيَّة لذكراك. تأتي بعد ابتسامة منك، فتحمل صورتكِ إلى ناظري، وتُجري حروف اسمكِ على قلمي. الكتابة منكِ ولأجلكِ، ولم تكُن غريمتك أبداً. أستسلم لهاجس الكتابة الذي يداهمني وأنا مخدّر معدوم الإرادة كأنّني أستسلم لهمساتك، للمساتك، لسحرك أنتِ. يداهمني هذا الهاجس المستبدّ كيفما شاء وحيثما شاء؛ طوراً بعد منتصف الليل فيسلبني النوم، وطوراً وأنا في رفقة الآخرين فيحرمني صحبتهم. إنّه كالقدر لا يُرَدّ، وكالطوفان لا يقف في وجهه سدّ.

لم أكُن أنشر ما كنتُ أكتب. لا جدوى من ذلك. في وطني كنتُ أكتب في فتوتي لكي يقرأني أهلي وأصدقائي ومعارفي، فأشعر بالفخر. أمّا في الغربة، فأنا ألجأ إلى الكتابة عندما يمسي عالمي حزيناً يستحيل العيش فيه. فأكتب لكي أعيد تشكيل العالم حولي بقوّة القلم. يُسكرني حفيفُ الحرف فألوذ بالخيال وأحتفي بحياة لا علاقة لها بالواقع. قلمي كان معولي أقطع به الأسوار، أهدّها، أهدمها، لأنطلق في الفضاء الرحب. ولكن لا داعي لنشر ما أكتب. لماذا أنشر في الغربة؟ لا أستطيع أن أطلعك على بَوحي. ولا يعرفني أحد من القراء في بلدك. فأنا مجرّد غريب عابر أو ضيف مسافر. وما يُكتَب في قطرٍ عربيٍّ لا يصل إلى الأقطار الأخرى إلا لماماً، تصدّه الحدود والقيود مثل سلعة مهرّبة، مثل بضاعة محرّمة، مثل عار ينبغي طمسه.

بعدما غادرتُ وطني، لم أكُن أكتب للنشر، بل لكي أكسر الطوق من حولي، وأخرج من عزلتي، وأتواصل مع الذين بعدوا عني أو بعدتُ عنهم، ولكنَّهم مكثوا في وريدي. أكتب في محاولة يائسة لأعيد بكلماتي الواهية عالماً خلّفته ورائي؛ أكتب لعلني بحروفي العليلة أستطيع أن أعيد بناء وطنٍ فقدتُه بحماقة وجُبن؛ أكتب كي أقترب من نفسي، أغوص في أعماقها، أحسّ بوجودي، أتنفس نسيم الأفكار حولي؛ أكتب كيما أبني بحروفي الرهيفة خميلةً وارفةً احتمي بظلالها من هجير الغربة وعَسْف الترحال الدائم... ليس المهم أن يقرأني الآخرون، فمتعتي الحقيقيَّة تكمن في فعل الكتابة ذاته. ففي الكتابة تكتسب الأشياء حولي بُعداً رابعاً، وينضاف إلى كياني حسٌّ سادسٌ، فأصوغ نفسي من جديد، وأشكّل عيني ولساني ومن خلالهما أشكّل العالم من حولي، أبدع عالماً جديداً ألوذ به، أداري فيه خيبتي، وأعوّض عن عجزي تجاهك. في الكتابة أتخلّص من سجني ومنفاي، فأستعيد حرّيَّتي وأمارس إنسانيَّتي. ولكن كثيراً ما يشنقني الحرف وترجمني الكلمات.

تحلّق كلماتي بلا أجنحة في فضاء الحُلم، تخترق غيوم الأعالي، تستحم في مياه الأمطار قبل أن تولد، تغسل عن ريشها غبار الدلالات البالية، تقترب من النجوم فتتجمل ببريقها، ثم تحطّ على القمر بكامل زينتها لتغفو على تخومه. ويبقى الأمل يراودني أنّني بعد رحيلي الوشيك من هذا العالم ستعود كلماتي هابطة من القمر إليه، نابضة بالحياة، لتمارس عملية الخلق بعد أن كانت مخلوقة.

يهطل الألم غزيراً في فيافي القلب، حتى تفيض به جميع أنحائه، وترتفع درجة حرارة الضياع في أعماق الروح، فأحاول أن أسطّر الألم على الورق، وأبثُّ الحُمّى بين السطور، في محاولة لرقئ النزيف الداخلي وتخفيض حُمّى الأحاسيس. أحفر قبراً لحروفي وكلماتي، ألحدها فيه حتّى يعثر قارئ مجهول عليها يوما ما فيبعثها حيَّةً من مرقدها، وقد تغيرت ألوان سحنتها على شفتيه، وتبدَّل رنينها على مسمعيه.

عندما كنا نلتقي في اليوم التالي، كنت تنظرين إلى عينيّ وتقولين: « دكتور سليم، لا شك في أنّك أمضيتَ سهرةً مثيرة، فآثارها في عينيكَ المُحمرّتين». فأعتصم بالصمت. ثمَّ يثير صمتي شكوكك فتسألين: « مع مَن أمضيتَ السهرة؟» فأجيب وابتسامةٌ ساخرةٌ على شفتَيّ: « معك، يا أثيرة ». ويظهر شبح ابتسامة على شفتيكِ، ابتسامة يجهضها الحزن في عينيكِ، والقنوط في خديك. كنتِ لا تجودين بأكثر من ابتسامة في أحسن الأحوال. كنتِ تتجنبين الضحك، تهابينه، تمجينه، لا أدري، ولكن لم أحظَ يوماً منك برنين ضحكة تنطلق من رئتين واسعتين أو من حنجرة صافية، كأنّكِ والضحك في خصام. ولكن لماذا ألومك على ذلك في حين أنا نفسي لم أكُن قادراً على الضحك منذ أن فارقتُ بلدي، وأمسيتُ أعجب ممَّن يستطيع أن يضحك، وأتساءل في نفسي : « يا تُرى ما الذي أضحكه؟ ». لم أنتبه إلى أنّني كنت عاجزاً عن قول شيءٍ مضحكٍ لكِ، وعاجزاً عن الضحك لو سمعتُ ما

يُضحك. فقد خبرت الضحك عندما كنت صغيراً. كنا نحن الأطفال في القرية نضحك من أعماقنا لأتفه الأسباب، نضحك بصوت عالٍ يشيع الفرحة في الفضاء حولنا، وتزدهي الألوان، وتغرّد العصافير.

90

« سمراء هيفاء، أنيقة الهندام، جذّابة الملامح، لجيدها لفتة الغزالة، ولخدَّيها نضارة الشباب، وعلى شفتيها حمرة العافية، تمتزج في جفنيها خطوط الكحل بظلال الأسى. تواجه البحر فيداعب بنسيمه شعرها الطويل ويحرّك خصلات منه، ولكنَّه لا يستطيع أن يزحزح غلالة الحزن الشفافة المنسدلة على عينَيها الواسعتَين الهدباوَين.

بجانبها رجلٌ طويل، مفتول العضلات، في ذروة شبابه، يرتدي نظّارة طبيّة لا تقلّل من وسامة وجهه الذي بدت على تقاطيعه حيرة، وفي عينَيه تساؤل وانتظار.

كانا يقفان جنباً إلى جنب على صخرةٍ من صخور الشاطئ، كأنَّهما يتطلّعان إلى الشمس الغاربة في الأفق البعيد؛ بَيدَ أنَّ هوَّةً سحيقةً من الصمت تفصل بينهما، ولا تلتقي نظراتهما عند قرص الشمس الآفل، وإنَّما تطفو على أمواج البحر المنسابة في اتِّجاهات مختلفةٍ من الشاطئ.

منذ ثلاثة أشهر وهما يلتقيان بعد ساعات العمل عصر كلِّ يوم، فيصطحبها بسيّارته إلى شاطئ البحر. ثمَّ يسيران قليلاً حتّى يبلغا الصخور المطلّة على الجرف، ليقفا هناك ويستمتعا بمنظر الغروب. وعندما تغيب الشمس وراء الأفق، يقفلان راجعين إلى السيّارة لتحملهما إلى المدينة، وينصرف كلٌ منهما إلى منزله.

(يا إلهي! تُرى هل لاحظ اليوم امتقاع لوني وارتعاش شفتيّ حينما مررنا على المقبرة في طريقنا إلى الشاطئ؟ لا أظنُّ ذلك،

فقد كان منهمكا بقيادة السيّارة، زيادةً على أنّه لا يعرف أنّ تلك المقبرة بالذات هي التي تضمّ قبر المرحوم زوجي. ليته لم يمرّ من هناك! فحين وقعت عيناي على القبور المتراصة، شعرتُ بانقباض في نفسي، وتسارعت دقّات قلبي، وازدادت صخباً، حتّى ظننت أنّه سيسمعها. انقضت سنتان وطيفه ما انفك يطاردني. إنّه الغائب الحاضر. أجده في أحلامي وكوابيسي. وأراه حينما أصحو من نومي في الصباح، وأسمع صوته وأنا أتناول طعامي، ويرافقني وأنا في طريقي إلى الكلّيّة، يحدّثني وابتسامته الحنون لا تفارق وجهه. لِمَ غادرنا إذن؟ يا إلهي! لماذا لم يمكث معي يغدق الهناء على حياتي بكرمه، ويملأ وقتي متعةً بلطفه؟ لماذا خطفته يد الموت وهو في ريعان الصحّة والشباب، وفي قمة العطاء؟ أما كان لها أن تأخذ روحاً غير روحه؟ أما كان للقدر أن يختار واحداً غيره؟ كانوا هناك بالعشرات، وكان بوسع الرصاص الطائش أن يصيب شيخاً في آخر عمره لا شابًّا في مطلع حياته. كان بمقدور الرصاصة التي قتلته أن تصيب واحداً من أولئك الأشرار الذين لا نفع فيهم ولا خير، لا أن تقضي على طبيبٍ كانت يده تواسي المرضى، وتعيد البسمة للشفاه المحرومة. كان بمقدورها أن تصيب رجلاً لا زوجة له أو رجلاً لا تحبّه زوجته على الأقلّ. أمّا أن تصيبه هو بالذات من دون الآخرين فهذا هو الظلم بعَينه.

إنّني أشعر بالحيف قد نالني من غير ذنبٍ اقترفته. وهذا الواقف بجانبي ما ذنبه في أن يلتقي بي دون غيري من نساء هذه المدينة، وينجذب إليّ دون سواي؟ ما من مرّةٍ خرجتُ معه لمجرّد النزهة، إلا وشعرت أنّني أخون المرحوم زوجي، فيطير من شفتَيّ الكلام. وأبقى صامتةً صمت هذا البحر، وفي أحشائي أنينٌ، وفي أعماقي صراخ.

كان يقول لي إنّ الخيانة أنواع وألوان: خيانة بالفعل وخيانة بالقول وخيانة بالنظر. وعلى الرغم من أنّه توفي منذ سنتَين، فأنا لا أستطيع أن أتخلّص من الشعور بأنّني ما زلت متزوّجة. لم أعُد،

في الواقع، متزوّجة. إنّني أرملة. هذا ما يقوله الناس جميعاً، وهذا ما هو مدوّن في جميع الوثائق التي أحملها. بيدَ أنّي أشعر بأنّني ما زلت زوجته، مدينةً له بالوفاء، وملزمةً بواجب الإخلاص. كثيرٌ من المتزوّجات لا يتّصفن بذلك الإخلاص وهذا الوفاء اللذين أحسُّ بهما مثل قيدٍ على قلبي. معظم الأرامل يتحرَّرن من الذكرى بعد عامٍ من الحداد.

كانت أمي تقول عن جارتنا إنّها تزوّجت بعد أكثر من أربعة أشهر بقليل بُعيد وفاة زوجها بمجرّد انقضاء عِدّتها. أمّا أنا فقد مرّ عليّ عامان كاملان وكأنّه لم يرحل ولم يغادر البيت. أشمُّ رائحته في ملابسه التي ما تزال معلّقةً في مكانها. وأحسُّه يضمني في فراشنا عندما يجنّ الليل.

لقد بقيتْ دارنا كما كانت عليه عندما كان حياً، تحمل كلُّ زاوية منها ذكراه: هنا كان يقرأ جريدته وهو يحتسي قهوة الصباح، وهناك كان يتناول طعام العشاء معي ويطري مهارتي في الطبخ، وهناك كنا نجلس نشاهد التلفزيون ويده تمسّد شعري بحنان. وها هي صورنا ضاحكين فرحَين معلّقة على الجدران. على كلّ قطعة من أثاث منزلنا لمسةٌ من أنامله، وعلى كلّ عتبةٍ من عتبات غرفها أثرٌ من قدميه.

أُدرك في قرارةِ نفسي أنَّ طيفه مجرَّد وهْم وأنا أسيرة هذا الوهْم الجائر الذي سيتلاشى يوماً ما بعد فوات الأوان كما تتلاشى ظلال الغيوم على صفحة هذا البحر بعد المغيب. وحينذاك سأشعر بوحدةٍ قاتلة.

لقد آن لي أن أتحرَّر من قبضة هذا الوهم وأبدأ مرحلةً جديدةً من حياتي وأمدَّ يدي إلى هذا الرجل الطيّب الواقف إلى جانبي. إنّه لا يدرك عمق مشاعري. أنّى له ذلك وأنا لم أصارحه بشيءٍ منها؟ كنت آمل أنَّ لقائي به سيساعدني على النسيان ويخفّف من عذاب الذكرى. وما يزال الأمل يراودني. وفي كلّ يوم

أفقد الأمل، وفي كلّ يومٍ أعيد المحاولة علّ وعسى).

((ها نحن يخنقنا الصمت مرَّةً أُخرى، لا أجد ما أقوله لها، ولا أسمع منها ما يبعث الأمل في النفس. هاأنذا محاصرٌ بصمت البحر مرَّةً أخرى. ما الذي جذبني إليها؟ لا شكَّ في أنَّ الحزن المتدفِّق من عينَيها له مفعول السحر عليّ. أهو الحزن المترسِّب في داخلي جعلني أتجاوب مع حزن عينَيها الكحلاوَين؟ أم أنَّني ظننتُ أنَّها في حاجةٍ إليّ بعد ما أخبرتني بمصابها؟ قرأتُ ذات مرَّة أنَّ الحبَّ، في وجه من وجوهه، يمثل حاجة الإنسان إلى الإنسان.

منذ البداية صارحتني بأنَّها ما زالت تفكِّر في زوجها الراحل. وقلتُ في نفسي إنَّها ستنساه حين تكتشف صدق مشاعري نحوها. توهَّمتُ أنَّ الموتى لا يملكون قوَّة الفعل. الأحياء وحدهم هم الذين يقولون ويفعلون. ظننتُ أنَّ تعلُّقها بميِّت لا يعدو أن يكون وهْماً سرعان ما يذوب بفعل حرارة عاطفتي نحوها. الموت هو العدم بعينه، فكيف يمكن أن يهبَ الوجودَ لشيء؟ ولكن هاأنذا ألفي نفسي في تجربةٍ شبيهةٍ بتلك التي دمّرت أعصاب فان كوخ عندما أسقطه حظّه العاثر في حبِّ أرملةٍ خرقاء، كلّما حدّثها عن حبِّه لها، حدَّثته عن وفائها لزوجها الميِّت. لعلّني أحسن حظاً منه، فهي لم تذكره أمامي إلا مرَّةً واحدةً في بداية لقاءاتنا. ذكرته بدافع من الصدق والأمانة. وأنا لا أثير الموضوع معها لئلا يتحوّل حديثي إلحافاً في السؤال وإلحاحاً لا جدوى منه. العاطفة لا يستدرّها سؤال وإنّما تتدفّق تلقائيًّا مثل ينبوع. ليتني أدرك ما يدور في داخلها! ولكن ألا يدلّ ترحيبها بالخروج معي على تجاوبها مع ما أكنُّه لها من عاطفةٍ نبيلة؟

إنَّها قضيَّة غير قابلة للبرهان، لأنَّها ذات صلة بنبض القلب وليست متعلِّقةً بنشاط العقل. ولكن هل أستطيع أن أستنبطها من قضيَّة أخرى؟ وكيف أعرف أنَّني أعرف ما أعرف؟ وهل هنالك فرق بين « المعرفة » و « اليقين » ؟ وعندما أقول « أنَّني أعلم

ذلك » فهل أنا أعلم حقًّا؟ لا أدري أين ستقودني هذه الدروب الموحشة المظلمة. فالغموض يلفّ كلّ شيء ولا وضوح يبدّد الظلام. والوضوح يساعد على الفهم، والفهم يؤسّس للمعرفة. ولكن كيف أحصل على الجواب الواضح منها؟!

لا شكَّ في أنّها مفجوعة. طعنها الموت في الصميم ودمّر حياتها وهي في أوّل الطريق. وأنا آتي بها إلى البحر أملاً في أن تريح رحابتُه عينَيها المتعبتَين، ويساعدها صفاؤه على النسيان. لعلّ أمواجه تمسح الحزن العالق بفؤادها كما تمسح آثار الأقدام على رمال الشاطئ. فهل بوسع البحر مداواة جرحها أم تراه يتخلّى عن تلك المهمة للزمن؟ البحر والزمن صنوان خالدان، ما يبدأه أحدهما يكمله الآخر. ولكن ها قد مرَّ عامان من عمر الزمن ولم يقُل كلمته! ترى، هل بمقدوري أن أفعل ما يعجز عنه البحر والزمن؟ إنّني أشك في ذلك حقًّا. وهل بمقدور حزينةٍ مثلها أن تهَب المواساة لغريبٍ وحيدٍ مثلي؟ إنّني أرتاب حقا في ذلك)).

عندما ركبا السيّارة عائدَين إلى المدينة، استرعى انتباههما بعضُ الجنود وهم يمدّون أسلاكا شائكة على مدخل الشاطئ ويعلّقون لوحة كُتِب عليها "منطقةٌ عسكريّة. الدخول ممنوع."

التفت إليها وقال بتوجس:

ـ يبدو أنّه ليس بوسعنا العودة إلى الشاطئ بعد اليوم.

هزّتْ رأسها موافقةً. ولفهما الصمت".

91

أُغلِقت الكلّيّة ولم يعُد الأساتذة يؤمّونها إلا لماماً.

ألححتِ عليَّ أن ألبّي دعوةَ أهلك لزيارتهم في فاس وقضية بضعة أيام هناك. وقبلتُ دعوتك، يا أثيرة، وجلستِ بجانبي في السيّارة ذلك الصباح راضية مسرورةً. وقدتُ السيّارة في اتّجاه فاس.

الشمس مشرقة، والهواء منعش، والطريق إلى فاس يترنّح ثملاً بالجمال، بين السهول والتلال، والوهاد والجبال، والوديان المتخمة بالمياه المتدفقة. وأشجار الصفصاف السامقة تنتصب مرفوعة الرأس على جانبَي الطريق، كما لو كانت تحيّينا، ترحّب بنا، ترافقنا، تزفنا إلى فاس. والمروج المترامية على مدى البصر تزدان بالخضرة المزركشة بألوان الزهور البيضاء والصفراء والحمراء، كأنّها في مهرجان يرحّب بالربيع القادم بعد بضعة أسابيع. واللافتات على الطريق تحمل أسماء القرى والمناطق: المغاوير، بلاد الدندون، غابة المعمورة. حتّى الأسماء تنم عن حضارةٍ عريقةٍ وذائقةٍ فنّيّةٍ متميّزة. التفتُّ إليكِ وقلتُ:

ـ بلادكم جميلة رائعة، أثيرة.

أجبتِ بنبرةٍ حزينة :

ـ ولكنَّ الأغنياء والسيّاح الأجانب فقط هم الذين يستمتعون بها. أمّا معظم الناس فيعانون الفقر، ويرزحون تحت وطأة الجهل والمرض.

صمتُّ قليلاً ثم قلتُ :

ـ ما دام للشباب أمثالكِ هذه المشاعر النبيلة، فإنَّ مستقبل البلاد سيكون بخير.

ولكي أغيّر الموضوع، سألتُكِ كيف ينبغي أن أخاطب والدكِ الكريم، لأنّني كنتُ أعلم بأنّه من الفقهاء العلماء. قلتِ:

ـ كُن طبيعيًّا معه. لقد فقدَ بصره مؤخّراً. ولكنّه حين يصافح شخصاً أوّل مرّة، يشعر ما إذا كان هذا الإنسان طيّباً أو شريراً. فإذا أحسَّ بأنّه طيّب، ظلَّ قابضاً على يده، وإلا فإنّه يطلقها مع دفعة خفيفة، وكأنّه يرفض الشخص نفسه.

قلتُ :

ـ فقدَ بصره فتعاظمت لديه حاسة اللمس لتعوّض الفقدان.

فالحواس ينوب بعضها عن بعض. وهذا ما يسميه أهل التصوّف بـ « تراسل الحواس ».

وأردتُ أن أتغزّل بك بطريقةٍ غير مباشرة، فأضفتُ قائلاً :

ـ وأحياناً يصبح السمع مرهفاً لدى الضرير ليقوم مقام البصر. ومن هنا قال الشاعر الأعمى بشّار بن برد :

يا قومُ أُذني لبعضِ الحيّ عاشقةٌ
والأُذن تعشقُ قبلَ العينِ أحيانا

قالوا: بمَن لا ترى تهذي؟ فقلتُ لهم:
الأُذنُ كالعينِ توفي القلبَ ما كانا

نظرتِ إليّ بارتيابٍ كأنَّكِ أدركتِ قصدي، وقلتِ مازحةً :

ـ آمل أنَّك تعشق المرأة بكلِّ حواسك وجميع جوارحك، وليس بعينَيك الذكيَّتَين فقط.

عندما وصلنا إلى منزلكم في فاس، كنتُ متهيباً الدخول، فرُحتِ تشجعينني بالترحيب بي. وقدتني إلى حيث يجلس والدكِ الكريم. كانت الطيبة بادية على وجهه. وكانت لحيته البيضاء تزيده وقاراً. اقتربتُ منه وجلاً، وسلمتُ عليه، وصافحته باحترام. فما كان منه إلا أن شدّ على يدي بكلتا يدَيه، وأبقاني جنبه وهو يمسك بيدي ويبالغ في ترحيبه بي.

92

كان اعتزازي بتلك الزيارة لفاس لا حدَّ له، بحيث إنَّني عندما كنت آوي إلى غرفتي في الطابق العلوي من منزلكم، كنتُ أدوّن في دفتر مذكراتي ما شاهدت ذلك اليوم. وكثيراً ما كنتُ أعود في أيام غربتي اللاحقة إلى ذلك الدفتر وأقرا فيه عن تلك الزيارة. أتريدين أن تقرئي معي بعض ما كتبتُ؟.

اليوم الأول من الزيارة: الجمعة 1/15

في مساء هذا اليوم، وفي صالة منزلكم الفسيحة، كنتُ أجلس مع والدك، ووالدتك، وأختك الطالبة في كلّيّة الطبّ، وأخيك طبيب العيون، وخالك، وخالتك وزوجها. كنا نتحدّث عن التقاليد المتشابهة والعادات المتقاربة في مختلف الأقطار العربيّة، عندما فتح الباب ودخل جمع من الموسيقيّين المُنشدين يحملون آلاتهم الموسيقية واتّخذوا مقاعدهم في صدر الصالة. كانوا سبعة. وكانوا يرتدون الزيَّ المغربيَّ التقليديَّ الأنيق: طربوشاً أحمر، وقميصاً أبيض وعليه جلبابٌ أصفرُ ينتهي بجورب أبيض وبُلغة (حذاء) صفراء. يتوسّطهم قائد الفرقة الموسيقيّة ومعه عوده ذو الخشب المزخرف, وجلس على يمينه اثنان من عازفي الكمان وثالث يعزف الجلو، وعلى يساره عازفُ ناي، وعازفُ دربوكة، وعازفٌ على الطبلة.

قمتِ أنت بتوزيع وريقاتٍ طُبعت عليها القصائد التي ستنشدها الفرقة الموسيقيّة على الجالسين من أهلك، في حين كان أعضاء الفرقة الموسيقيّة يضبطون آلاتهم. وبعد إشارة من قائد الفرقة أخذ الموسيقيّون بعزف موسيقى الآلة التي نسميها نحن في المشرق بالموسيقى الأندلسيّة، فبدأوا بالمدائح النبويَّة. أذكر منها صنعةً من بحر البسيط :

يا أهلَ طيبةَ لي في ربعكم قمرٌ
بَرّ عطوفٌ لفعلِ الخيرِ أمّارُ
يا خيرةَ الرُّسْلِ يا أعلى الورى شرفاً
قد أثقلتْ ظهري آثامٌ وأوزارُ
وأشغلتني ذنوبٌ عنكَ مؤلمـــةٌ
أخافُ تحرقني من أجلها النارُ
فكنْ شفيعي لما قدّمتُ من زَلَـــلٍ
ومن خطايا، فإنّ الربَّ غفارُ

ولفت انتباهي أنَّ كثيراً من الحاضرين والحاضرات كانوا ينشدون مع الفرقة من دون النظر إلى الأوراق. كانوا يحفظون تلك القصائد عن ظهر قلب ما يدلّ على شغفهم بالموسيقى الأندلسيَّة وأناشيدها. وبعد حصَّة المدائح النبويَّة، انتقلت الفرقة الموسيقية إلى إنشاد قصائد غزليَّة، فأنشدت صنعة من مخلع البسيط:

يا واحدَ العصرِ في الجمـالِ وطلعـةَ البدر في الكمـالِ
أراكَ تَلْوي، في كلِّ حيـنٍ، طـرفَـكَ عـني، ولا تُبـالِ
أذاكَ مما قد جنيتُ جهـلاً أم ذاك من نخبـوةِ الدلالِ
اسقِ العراقيَّ صرفَ العراقِ وامنحْ عُبيدكَ طيبَ الوصالِ
وليس عندي للنفسِ أشهى سـواكَ، يا منتهى آمـالي

مرَّة أُخرى، العراق. أينما ذهبتُ العراق. العراق يسكنني حتّى في فاس.

وتناولنا طعام العشاء على أنغام الموسيقى .

اليوم الثاني من الزيارة: السبت 1/16

في اليوم الثاني أخذتني في جولةٍ في مدينة فاس القديمة. وهي مدينة رائعة حصينة تقع على نهر يُسمّى اليوم «وادي فاس».... دخلنا من باب أبي الجلود أو أبي الجنود وسرنا في أسواق متخصّصة مثل سوق الصناعات الجلديّة والأحذية، وسوق الأقمشة والملابس التقليديَّة، وسوق الجزّارين، وسوق الحدّادين، وما إلى ذلك. وكان لكلّ حارةٍ من حاراتها مسجدها الذي يُستخدَم في الوقت ذاته ملتقىً للدرس والتعلّم، فالمساجد كلُّها توظّف كتاتيبَ يتعلّم فيها صغار الأطفال، ومن هنا يسمى الكُتّاب في المغرب « مَسيد » (أي مسجد). وذكرتِ لي أنَّ السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين جعل التعليم إلزاميًّا لجميع الأطفال، فحينما دخل

فاس قبل حوالي ألف عام، ألزم أهل كلّ حارةٍ ببناء مسجدٍ يتعلّم فيه أبناؤهم.

ودخلنا مدرسةً قديمةً رائعةَ المعمار، مزيَّنة البناء، محكمة الترتيب بحيث أفردت غرفٌ لإدارة المدرسة، وغرفٌ للأساتذة والدرس، وغرفٌ لسكنى الطلاب. وقلت لي إنَّ السلطان أبو عنان المريني ، قبل أن يقدم على بناء المدرسة، بعث بالعلامة ابن خلدون، صاحب « المقدّمة » الشهيرة ومعه معماريّون إلى بغداد، للاطلاع على الجامعة المستنصريَّة، والوقوف على هندستها وتصميمها، للإفادة منها في بناء مدرسته تلك.

ثمَّ وصلنا إلى جامع القرويِّين، الذي يُعدّ أقدم جامعةٍ في العالم. وقلتِ لي إنَّ رجلا من أهل القيروان في تونس اسمه محمد بن عبد الله الفهري قدِم إلى المغرب أيامَ الأدارسة، واستقرَّ في فاس رفقة زوجته وابنتيه فاطمة ومريم. وبعد وفاته ورثت منه ابنتاه ثروةً كبيرة، وكانتا من المُحسِنات الصالحات، فأنفقت فاطمة من مالها الخاصّ لبناء مسجدٍ كبيرٍ رائعِ البناء على أرض فسيحة في محلّة العالية على الضفة اليسرى لوادي فاس. وقد استُخدِم هذه المسجد للعبادة والعلم، وسُمّي باسم نسبها « جامع القرويين» (أي القيروانيِّين). وبنَت أختها مريم مسجداً أصغر منه على الضفة الأخرى من الوادي حيث يسكن الأندلسيّون...

وفيما كنتِ تسردين عليّ تلك الصفحات الخالدة من تاريخكم الوطنيِّ، لحظتُ على قسمات وجهكِ وفي عينيكِ بريقَ الاعتزاز والافتخار ببنات جنسكِ، وكأنكِ تقولين لي: « ها أنت تشاهد بأمِّ عينَيك ما قدَّمته المرأة المغربيّة لوطنها ».

ودخلتُ الجامع وصلَّيتُ فيه ركعتيْن ترحُّماً على روح أُمّي، وركعة ثالثة للحبِّ.

وواصلنا جولتنا حتّى وصلنا إلى ضريح مولاي إدريس الثاني

حيث الشموع تضيء الضريح من كلّ جانب، وروائح العطور والبخور تعبق في المكان، فذكّرني بأضرحة آل البيت في العراق. وقلتِ لي إنّه ضريح إدريس الثاني بن إدريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. وكان أبوه الإمام إدريس الأول قد فرّ من المشرق بعد أن ثار في المدينة المنوّرة مع الحسين بن علي بن الحسن المثلث أيام الخليفة الهادي العباسي سنة 169 هـ وعندما قُتل الحسين وفشلت الثورة، فرّ إدريس إلى مصر ومنها إلى المغرب الأقصى، فنصره أهلها لفضله وعلمه وقرابته من رسول الله، وخلعوا طاعة بني العباس فأسّس إدريس أوّل دولة مغربيّة إسلاميّة عام 172 هـ وتزوّج من كنزة المغربيّة الأمازيغيّة التي ولدت له إدريس الثاني، ولكن الإمام إدريس الأوّل توفي قبل أن يرى ولده النور.

ودخلتُ المسجد الملحق بالضريح وصليتُ ركعتَين للغربة، وثالثةً للعشق.

اليوم الثالث من الزيارة: الأحد 1/17/....

عُدنا ضحى اليوم من فاس متجهين إلى الرباط لنزاول أعمالنا في اليوم التالي، يوم الاثنين. فعلى خلاف أقطار المشرق العربيّ، تعطّل الدوائر الرسميّة في المغرب يومي السبت والأحد بدل الخميس والجمعة، ويوم الاثنين بداية الأسبوع. واقترحتِ، يا أثيرة، أن نسلك طريق فاس ـ صفرو ـ إيفران ـ الرباط، على الرغم من أنّه أطول من الطريق الرئيس، طريق فاس ـ مكناس ـ الرباط، لتُريني تلك المنطقة من جبال الأطلس المتوسط ذات الطبيعة الخلابة الزاخرة بالجبال والتلال والوديان والوهاد والهضاب والبحيرات والغابات. ولم ينَل الجوُّ البارد الغائم شيئاً من جمال الطريق. كنتُ مأخوذاً بروعة المكان، منتشياً بالطبيعة التي كانت تكشف عن مفاتنها أمامنا عند كلّ منعطف في الطريق. وكانت أغصان أشجار الصفصاف الباكي المخضلّة بقطرات المطر، تلامس

السيّارة بلطف بين وهلةٍ وأُخرى، كأنها تمسح دموعها بها؛ وشدو العنادل واليمام وتغريد الطيور المتنوّعة يصل إلى أسماعنا مثل سمفونيّة شجيّة.

وصلنا إيفران قادمين من صفرو. كانت إيفران ذلك اليوم عروساً في ليلة زفافها، وقد ارتدت فستاناً حريريًّا أبيضَ فضفاضاً ، إذ كانت جميع بناياتها وطرقاتها وأشجارها مغطّاة بالثلوج. فقد تساقط الثلج طوال الليلة الماضية. أدهشتني تلك البلدة الرابضة في ذرى الأطلسِ بنقاءِ هوائها، وكثرة أشجارها، ووفرة مياهها: الماء يتدفق من كلّ فجٍ، من الينابيع، والشلالات، والنافورات في الشوارع. كان الوقت ظهراً، فقُلتِ لي أنّكِ تعرفين مطعماً صغيراً يمكننا أن نتناول طعام الغداء فيه، قبلَ أن نواصل سفرنا إلى الرباط. إنّه يطلّ على «ضاية (بحيرة) عوا» التي لا تبعد أكثر من عشرة أميال عن إيفران في طريق فاس.

بهرتني ضاية عوا برونقها، وبهائها، والتلال المكسوة بالأشجار الباسقة المطلّة عليها. والدرب المشجَّر المحيط بها، وأسراب البطّ والإوز والبجع التي تجوب أرجاءها. كان المطعم الذي قصدناه في الطابق السفلي من بناية صغيرة على ضفة البحيرة اليمنى، بناها مُعمِّر فرنسي وزوجته لتكون نُزُلاً صغيراً يقصده الصيادون الذين يؤمون تلك المنطقة، إمّا لصيد الطيور والثعالب البريّة في الغابات، أو لصيد الأسماك في البحيرات العديدة هناك، فيمضون ليلتهم في ذلك النُّزُل الصغير أو يتناولون طعامهم في مطعمه الأنيق المطلّ على البحيرة.

هبطنا من السيّارة فلفحنا البرد القارس، فأسرعنا إلى دخول المطعم. كان دافئا بفضل المدخنة التي تتوسَّطه وبجانبها كومة من قطع الخشب، ولكنّه خالٍ فيما عدا طاولة في الوسط جلس إليها صاحب المطعم وزوجتُه وهما يتناولان القهوة. رحبّا بنا وأجلسانا إلى طاولةٍ بجانب الواجهة الزجاجيّة المطلّة على البحيرة.

وخرجٍ من المطبخ نادلٌ حاملاً إلينا قائمة الطعام. لم يكُن الاختيار كبيراً غير أن الطعام كان لذيذا شهيًّا، وطُهي بعناية وبمجموعة متوازنة من التوابل.

أخذنا نتناول الطعام ونمتّع نظرنا بالبحيرة المنبسطة أمامنا. وكان عددٌ من القوارب بالقرب منا مربوطة إلى أوتاد على ضفة البحيرة، أسرابٌ من البط والأوز والبجع تجوب المياه. ثمَّ أخذ الفضاء حولنا يتحوَّل شيئاً فشيئاً من اللون الرماديِّ إلى اللون الأبيض، وراحت حبيبات صغيرة من الثلج الأبيض تنثال من السماء، وسرعان ما ازداد حجمها حتّى أصبحت مثل ندف القطن، وراحت تغطّي سطح الفندق، والأشجار، وضفاف البحيرة، والممرات المؤدِّية، إليها وكلّ شيءٍ في الوجود، وتكسوه بلونٍ أبيضَ ناصعٍ.

أردنا شيئاً وأراد القدر شيئاً آخر. كنا ننوي مواصلة السفر نحو الرباط، ولكنَّ السماء أسقطت وابلا من الثلوج التي غطّت الحقول والمروج والأشجار والأشياء والطرق وقلبي. أخذ قلبي يخفق بشدّة كما لو كان يرتعش من البرد، ولكنَّني كنتُ أحس بالدم يتدفّق منه حاراً إلى شراييني وعروقي وتجتاح الحُمّى جبهتي وخدّي وجسمي كلّه. ترى هل كان قلبي يرتجف خوفاً من أن أمضي تلك الليلة معك في تلك القرية الجبلية، في ذلك النُّزُل المنعزل الفارغ من النزلاء؟ هل كان قلبي يرتجف تحسُّباً لأحداثٍ لم يتوقّعها، ولأمرٍ لم يتأهّب له؟

لقد هبطت الثلوج قبل أوانها، وموسم الصيد والقنص لم يبدأ بعد ولم يؤم الصيادون والقناصون تلك المنطقة، ولهذا كان النُّزُل فارغاً بلا ضيوف.

رأيتُ على وجهك ـ أو خُيّل إليّ أنّني رأيتُ ـ شبح فرحةٍ خفيّةٍ تتراقص بين عينَيك، وتنبض على شفتَيك المكتنزتَين. أتراكِ كنتِ تفكرين في تلك اللحظة في نفس الهواجس وذات المخاطر التي أخشى وقوعها. ووجدتني أقول لك فجأة :

ـ سنواصل سفرنا. هيّا إلى السيّارة.

وألقيتُ بثمن الطعام على المنضدة ونهضتُ.

ـ ولكنَّ الطرق مقطوعةٌ بكلِّ تأكيد.

ـ سنرى.

وجررتِ رجلَيكِ بغير حماسة ورائي نحو السيّارة. وقدتُها وسط الثلوج المتراكمة وتحت الثلوج المتساقطة في اتّجاه الرباط. وما إن قطعنا مسافةً قصيرةً وخرجنا من القرية حتّى اعترضت سبيلنا سلسلةٌ حديديةٌ تُغلِق الطريق، وفي وسطها عُلّقت قطعة حمراء كُتب عليها بلون أبيض: « خطر، الطريق مقطوعة».

وقلتُ في نفسي وأنا أستدير بالسيَّارة عائدا إلى النُّزُل: « تُرى أين الخطر، أقدامي أم ورائي؟»

ورأيتُ ـ أو خُيّل إليّ أنّني رأيتُ ـ على شفتيْك طيفَ ابتسامةٍ غامضة. فقلتُ:

ـ أنتِ على صواب، أهل مكّة أدرى بشعابها.

فطرُق قريتي الصغيرة في وسط العراق لم تعرف الثلوج، وتكساس حيث درستُ لا تسقط فيها الثلوج إلا نادراً، وكانت تلك المرَّة الأولى التي أرى فيها الثلوج وهي تتساقط، ولم أدرِ ما تخبئه تحتها من نيران محرقة.

لم تعلّقي على كلامي، بل صرفت الحديث إلى جمال الأشجار الباسقة وهي مكسوّة بالثلوج، كأنّها عرائس ترتدي فساتين الزفاف البيضاء، وتجرُّ أذيالها ببهجةٍ وخيلاءَ في حفل عرسٍ جماعيٍّ.

ابتهج صاحب النُّزل الفرنسي وهو يرانا راجعَين إلى النُّزُل حاملَين حقيبتَينا. وطلبتُ منه غرفتَين لتلك الليلة، موضّحاً له عدم تمكّننا من مواصلة السفر إلى الرباط، فقال وعلى شفتيه ابتسامة ذات دلالة بعيدة:

ـ قد نسعد بمكوثكما أكثر من ليلة واحدة، فتساقط الثلوج قد لا يتوقّف قريباً. ولهذا سأعطيكما أفضل غرفتَين في النُّزل، وهما مطلّتان على البحيرة والغابة المحيطة بها.

في ذلك المساء كنا وحيدَين في مطعم النُّزُل الكائن في الطابق الأرضيّ ذي الواجهة الزجاجيَّة المطلّة على البحيرة. جلستِ قبالتي. طفت عيناي خِفيةً على صدرك. كان فستانك الأبيض الأهيف يشكو نفور النهدين. أبعدتُ عينَيَّ عن الصدر، وتطلعتُ في وجهك. رأيت غمّازة الخدَّين تغار من ابتسامة الثغر الأخّاذة فتنافسها فتنةً. التقت عيوننا. هرب مني الكلام.

قدَّم لنا النادل قائمة الطعام، وتركنا بعض الوقت لنختار ما نشتهي من أصناف. وكان الاختيار محدوداً لقلّة الزبائن في ذلك الفصل من السنة. وبعد دقائق جاء صاحب النزل بنفسه ليسجّل طلباتنا. ثمَّ أشعل الشمعة الموجودة على طاولتنا. وبعد قليل تولّى نادلان إيقاد جميع الشموع الموجودة على بقية الطاولات. وبعد ذلك رأيت صاحب النُّزل وهو يضغط على زرٍّ كهربائيٍّ في مدخل قاعة المطعم فتنطفئ جميع المصابيح الكهربائيّة، لتبقى أضواء الشموع وحدها في القاعة في منظرٍ حميميٍّ رائع.

كانت ندف الثلج البيضاء المتساقطة خارج المطعم هي كلُّ ما نرى أمامنا، فقد اختفت البحيرة وأشجار الغابة وراء ستار العتمة الخرساء في تلك الأمسية الفريدة، كما اختفت جميع الذكريات خلف أكمات النسيان في ذاكرتي، فلم أرَ أمامي سوى وجهكِ الأسمر الساحر، وعينَيكِ الواسعتَين المتطلعتَين بلهفة إلى وجهي. كنا صامتَين ولم نسمع سوى موسيقى برامز المنسابة بين أضواء الشموع إلى أذنينا ووجداننا. لا أدري إذا كانت تلك عادة صاحب النُّزل في إيقاد جميع الشموع في المطعم حتّى إذا كان شبه خال، أم أنّه كان يحتفل بلقائنا ذاك. وبدا لي أنّه عدّ وجودنا معاً مناسبةً خاصَّة نادرةً، فأضفى عليها جواً رومانسيًّا بدافعٍ من ذوقه

الفرنسيّ وإحساسه المتأصّل بالفنّ والموسيقى والجمال، أو أنّه كان يحتفي بالحبّ لوجه الحبّ. وتأكّد ظنّي ذاك عندما جاء في آخر الوجبة وهو يحمل قطعة حلوى وعليها شموع صغيرة عديدة، كما لو كان أحدنا أو كلانا يحتفل بعيد ميلاده، وقدّمها قائلاً: إنّها هدية النُّزُل لكما.

ترى هل خالج ذهنه أنّنا كنّا في تلك الليلة الشتائيّة نحتفل بميلاد حبٍّ جديد؟.

لم يدرِ صاحب النُّزل أنّ حبنا ولِد معوَّقا، أو أنّه يواجه حاجزاً يصعب عليه اجتيازه. فأنا لم أردكِ جسداً فحسب، بل أردتكِ روحاً وجسداً معاً. ولكنّ جميع محاولاتك الخفيّة في الخلاص من عهود روحك السابقة باءت بعذابي. لقد ظلّت روحك مشدودةً إلى العالَم الأخر بخيوط غير مرئيّة، ولكنّها خيوطٌ متينةٌ لم أقدر على بتّها. وكلّما تقدمت خطوةً نحوي جرّتك تلك الخيوط خطوتين إلى الوراء. وبقيتُ أنا أتعذب. لم يكُن لي الخيار ولم يكُن لديك الخيار. إنّه القدر.

وفرغنا من تناول طعام العشاء وبقينا جالسَين كما لو كنا نخشى مغادرة المطعم. لم نفُه بشيء. لم يكُن لدينا ما نقوله، على الرغم من أنّ روحينا كانتا تجيشان بالكثير من الهواجس والأفكار والآمال والشكوك، ولكن كان من العسير أن نعبِّر عن ذلك الخليط من الأحاسيس والمشاعر بألفاظ ذات معنى. مَن قال إنّ اللغة تستطيع أن تعبر عن الأفكار بأمانة، ومَن قال إنّ جميع الأفكار تستطيع أن تخرج من جوف النفس الإنسانيّة لتحلّق في الفضاء على شكل أصوات مسموعة مفهومة؟ بقينا صامتَين تلك الليلة، إنّها الهوة العميقة بين الفكر واللغة. كنتُ أخشى أن أجرح شعورك الرقيق، وكنتِ تخافين أن يزداد جرحي نزيفاً.

وأخيراً جررنا سيقاننا بتباطؤ نحو غرفتَينا الكائنتَين في الطابق الأوّل، وودّعنا صاحب المطعم الفرنسيّ وزوجته اللذان كانا

يحتسيان نبيذاً على طاولةٍ عند مدخل المطعم. ودَّعنا الرجل قائلا:

Bonne nuit. Amusez vous :

وأضافت زوجته وكأنَّها تُسدي إلينا نصيحةً وديَّة استقتها من خبراتها السابقة:

Profitez vous. Bonne nuit .

هل كانت تلك المرأة تأسى على فرص فاتتها في شبابها لتنصحنا باغتنام الفرص التي تمرُّ مسرعةً ولا تعود، كما تجري مياه الوادي المتدفّقة في الربيع فلا ترجع البتة إلى النبع؟

في باب غرفتكِ، وقفنا للوداع. طأطأتِ رأسك لئلا تلتقي عيوننا. قلتُ :

« تُصبحين على خير ». وطبعتُ بشفتَين مرتجفتَين قبلةً على خدِّك، ثمَّ دلفتُ إلى غرفتي المجاورة.

أغلقتُ الباب خلفي، ولكن لا أدري لماذا لم أقفله في تلك الليلة، فقد كانت عادتي، وحتَّى هذه الليلة وأنا أواجه الحمّى والمرض وحيداً في هذه الدارة المنعزلة على شاطئ البحر وأنا في مسيس الحاجة لمن يأتي يعودني، يعينني، ينقذني من عذابي، أن أقفل الباب خلفي. ولكنَّني في تلك الليلة الشتائية العاصفة، لم أقفل بابي. أوصدته فقط. لا أدري لماذا؟.

وتناولتُ كتابي من حقيبتي، واندسستُ في فراشي، وأضأتُ المصباح الجانبيَّ، وأخذتُ في القراءة. كان صرير الريح يبلغ مسمعي، وكانت حبّات الثلج تقرع زجاج نوافذ غرفتي، ولم أستوعب ما كنتُ أقرأ. فقد كنتُ أتشظّى ظمأ وحرماناً وأنا على بعد آهتين من النبع. واختلطت الأفكار في ذهني. وأغمضتُ عينَيَّ، وسقط الكتاب من بين يدي على صدري. وكنت بين النوم واليقظة. وبعد لحظات تناهى إلى سمعي صرير الباب، أهو صرير

الباب أم صرير تلك الريح المجنونة؟ وخيِّل إليَّ أنَّ دقَّة الباب تنفرج ببطء وتدخلين أنتِ. أحسستُ بكِ تتوقَّفين لحظةً، ثمَّ تتَّجهين صامتةً بتؤدةٍ نحو فراشي. هل كان إحساسي مصيباً؟

هل كنتُ ما أزال مستيقظاً عندما دخلتِ عليَّ في غرفتي تلك الليلة؟ أم كان الوسن قد أغمض عينَيّ بعد أن هدهدتني القراءة في الفراش؟ هل كنتُ أحلم أم أنَّك كنتِ حقاً تلجين غرفتي. خُيِّل إليّ أنَّ السكون قد أطبق على غرفتي، وعلى الفندق، وعلى البحيرة، وعلى الكون كلِّه. سكونٌ يغلِّفه ظلامٌ حالك، ثمَّ اقتربتِ مني، لم أسمع خطواتكِ، ولكنَّ عبق عطرك.قد فاح في الغرفة وانتشى به المكان. خُيِّل إليّ أنَّني كنتُ أسمع أنفاسك اللاهثة، ووجيب قلبكِ .. خُيِّل إلي أنَّكِ، ودون أن تنطقي بكلمة، اندسستِ في الفراش إلى جانبي. وامتدَّت ذراعك بتؤدةٍ وتوجُّسٍ إلى زرِّ المصباح الجانبيِّ وأطفأته.

خُيِّل إلي أنَّكِ تمرِّرين أصابع يدكِ الرقيقة الناعمة على جبهتي ثمَّ على خدَّي.أحسستُ بأنَّ أصابعكِ البضَّة اللدنة تمرُّ على صدري. يرتجف شعر صدري. وأخيراً مسستِ شفتَيَّ بسبابتكِ، أحسستُ بشيءٍ حلو كنتُ أتذوقه؟ هل هي أصابعك فعلاً ، أم أنَّني كنتُ أحلم بتذوُّق حلوى « أصابع العروس » التي كنتُ أحبُّها في طفولتي والتي كانت أختي الكبرى نعيمة تجيد صنعها وتفخر بذلك؟ هل كنتِ أنت العروس تلك الليلة؟ عروساً لم تُخطَب، ولم يُعقَد عليها، ولم تُزفَّ إلى عريسها، وإنَّما اقتحمت عليه غرفته في حندس تلك الليلة، وهو بين اليقظة والنوم، بين الحقيقة والحُلم، بين الواقع والخيال. أرجوك سيدتي خبِّريني، فإنَّني لم أعد متيقِّناً من شيءٍ مطلقاً.

اندسستِ في فراشي تحت الغطاء، أحسستُ بنهديك المنتصبَين يلامسان صدري، وبجلدك الناعم يغطّي جسدي.. هل انتضيتِ ثيابكِ الداخليَّة قبل أن تأتي إلى غرفتي؟ أنفاسك

حارّة تقترب مني، تلفح وجهي، تنفذ إلى رئتَيّ. سَمعتُكِ تهمسين بصوتٍ مرتعش النبرات، طغت عليه رغبةٌ عارمة، سمعتُكِ تهمسين بلهجتك المغربيّة أو هكذا خُيّل إليّ :

ـ أنتَ ولفي هذه الليلة...

هل قلتِ « ولفي؟ » تدرين كم هيَّجت هذه الكلمة السومريَّة من شجن في نفسي؟ إنّها منغرسة في مجاهل الروح واللاشعور منذ عصور التكوين الأولى والألف الأولى عندما اخترع الإنسان الكتابة وجعل صورة الأليف أَوَّل علامة كتابية تدل على تآلف الإنسان والثور في الحرث الذي أسَّس للحضارة الإنسانية.

لماذا أطفأتِ المصباح في تلك اللحظة، يا سيدتي؟ هل كنتِ تخشين رؤيتي معكِ في الفراش؟ أم كنتِ تريدين أن تتخيليه هو في الظلام؟ هل كنتِ تستعينين بالظلمة على الخوف؟ أمّا أنا فأحبّ أن أرى وجه الحنان عارياً واضحاً لأعرف موطئ روحي. أمّا أنا فأفضّل أن أرى الحبَّ متجرّداً من كلّ لبس، يغمره ضوء الحقيقة ساطعاً. هل تدركين ما أقول؟ كنتُ أفضل أن أرى عينَيك تنفذان في عينَيّ عندما يلتحم الجسدان في كيان واحد.

لماذا أطفأتِ المصباح ، سيدتي؟ أحقًّا كنتِ تفضّلين الظلمة حياءً أم كنتِ تستعينين بها على إخفاء مشاعركِ الحقيقيَّة؟ أكنتِ تخافين أن أرى ما كنت تظنّينه خيانةً على ملامح وجهك؟ فقد كنتِ قبل ذلك تقولين لي إنّني أميل إليك، ولكنَّني أشعر بأنّني أخون حبَّه بذلك.

في تلك اللحظة لم أكن واثقاً من شيء. وحتّى لو منحتني ليلة حبٍّ واحدة، ما الذي يضمن لي أنّك نسيت حبّ ذلك الميت؟ ألا ينبعث من مرقده غداً أو بعد غد عندما نعود إلى الرباط، وتصبحين أنتِ في مرابع الحبيب الأوّل، ومراتع الذكريات، ومواجع الأحزان. فما نفع ليلة واحدة؟ هل يمكن لشجيرة الفرح الصغيرة في ذلك

اليوم أن تغطّي غابة الحزن الكثيفة المتّسعة اتساع العمر كلّه؟ وهل تستطيع شمعة النشوة الموقدة تلك الليلة أن تبدّد ظلمات روحي المتراكمة؟.

93

مرَّ شهران علي ليلة ضاية (بحيرة) عوا، كان الجوُّ خلالهما متقلباً، شديد التقلّب. يومٌ صحوٌ يُشرق فيه مُحيّاك بابتسامتك الحلوة، فتسري حرارة المحبَّة في أوردتي وشرايبني وأشعر بالأمل. ويومٌ غائمٌ تبدو على وجهك غمامة الحزن فتحجب كلّ الشموس والأقمار والنجوم، ويسود الاكتئاب، وتسودُّ الدنيا في ناظري. كنتِ خلال هذين الشهرين، يا أثيرة، مثل ملك الحيرة، النعمان بن المنذر، كما تقول لنا الأسطورة الجاهلية: له يومان، يوم السعد ويوم النحس، فمَن أتاه في يوم سعده أغناه النعمان بن المنذر بعطاياه وأغرقه بنبيذه وخمره، ومن ساقه سوء طالعه إليه في يوم شؤمه، قتله النعمان شرَّ قتلة. ولما كنتُ متعلّقاً بك، فقد كنتُ أراكِ كلَّ يوم: في يوم سعدكِ وفي يوم نحسكِ. وكنتُ قتيلاً في كلا اليومَين.

لم أكُن أعرف مكانتي لديكِ حقًّا، ولم أُدرك حقيقة عواطفكِ تجاهي. هل تدرين أنّني اتخذت قراري بالرحيل بعيداً عن المغربِ لا لإغلاق الكليّة فحسب وإنّما كذلك للتخلّص من عذاب الشك والحيرة الذي كنتُ أقاسيه بسبب غموض عواطفك نحوي وتقلّبها. ومما حيَّرني أنّني عندما أخبرتكِ بقراري، لم تُبدِ اعتراضاً.

في منزله، يجلس سليم وحيداً في المساء يستمع إلى عبد الحليم حافظ يغني قصيدة نزار قباني :

إن كنتَ حبيبي
ساعدني ... كي أرحلَ عنك
أو كنتَ طبيبي
ساعدني... كي أُشفى منك

ذات يوم أقبلتِ عليّ بصورةٍ غريبةٍ عجيبةٍ. لم أستطِع أن أعرف إن كان ذلك اليوم من أيامِ السَعد أم مِن أيام النحس. كانت ابتسامة الفرحة تُشرِق على شفتيك، مطلّةً من بين غيوم القلق الكثيفة التي تُغرِق عينيك. كنتِ منقسمةً على نفسك: نصفكِ فَرحٌ مستبشِر، والنصف الآخر رعِبٌ مسربَلٌ بالأسى. كنتِ تجمعين بين النقيضَين: نصفكِ يتّجه يمينا والنصف الآخر يندفع يساراً. لم أرَ كائناً واحداً يسير في اتّجاهين متعاكسين في حياتي إلا مرّةً واحدة عندما كنتُ أزور أطلال مدينة بابل بالقرب من مدينة الحِلّة في العراق، وكنتُ أشاهد بإعجاب الحيوانات الجميلة المنحوتة الناتئة على جدران بابل. معظمها غزلانٌ بديعةٍ التكوين، وأسودٌ أليفةٌ بوجوهٍ آدميّة. وفجأةً رأيتُ أفعى لها في كلّ نهايةٍ من نهايتَيها رأسٌ، وكلّ رأسٍ يتّجه بقوّة وعنفٍ في الاتجاه المعاكس لحركة الرأس الآخر. أرعبتني تلك الأفعى. ولم أرَ أفعى غيرها على جدران بابل. ذكّرتني تلك الأفعى بعيني ذئبٍ مرتعبٍ منهَكٍ ورد في قصيدةٍ لشاعرٍ قديمٍ يدعى حميد بن ثور، يصفُ فيها ذلك الذئبَ المتوجِّس الحذِرَ في نومه، فهو نائمٌ من شدّة الإعياء، وهو في الآن ذاته محترسٌ يقظان :

يَنامُ بإحدى مقلتيهِ، ويتّقي   بأُخرى المنايا، فهو يقظانُ هاجعُ

عندما أتيتِ إليّ ذلك اليوم. كانت عيناك مشرقتَين بنوعٍ غريبٍ من الفرحة، ولكنّها فرحة مكتومة. تريدين أن تقولي ليّ شيئاً مثيراً جديداً. وفي الوقت نفسه لا تريدين ذلك الشيء. أمرٌ غريبٌ تماماً لم أرَ مثله من قبل.

لم أفهم حالتك ذلك اليوم، يا أثيرة. نظرتُ إليكِ متسائلاً بعينَيّ، كمُتهمٍ يتطلّع إلى شفتَيّ القاضي وهو على وشك إعلان الحُكم عليه. قُلتِ بعد تردُّد:

ـ أتيتُ لأشكركَ.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّكَ أنقذتني من أكذوبة كنتُ أسيرتها ثلاث سنوات. واليوم تحرَّرتُ منها. وأشعرُ أنَّني في طريقي لأصبح طبيعيَّة.

ـ لا أفهم. أرجوك، ساعديني على الفهم قليلاً.

أطرقتِ قليلاً. رفعتِ رأسك، ثمَّ زممتِ شفتيكِ. وغابت نظراتكِ وراء الأفق. وتريثتِ بعض الوقت. ثمَّ فجأة أطلقتِ عبارة قصيرة، وكأنَّك تتخلَّصين منها، أو كأنَّكِ تُعلنين حدثاً سعيداً لا يحتاج إلى شرح. قلتِ:

ـ أنا حامل.

ورغم المفاجأة التي اجتاحتني قلتُ لك:

ـ أنا سعيدٌ بهذا الخبر. إذن سأكون أباً مع زوجةٍ جميلةٍ.

ولدهشتي سمعتكِ تقولين :

ـ ولكنَّ الأهمَّ هو أنَّني استعدتُ أُنوثتي وأُمومتي التي سرقهما مني زوجي الراحل بأكذوبةٍ انطلتْ عليَّ.

قلتُ :

ـ إنَّها كذبة بيضاء، فقد كان المرحوم يحبُّكِ ويخشى أن يفقدكِ لو أخبرك حقيقةَ كونه لا يُنجب لسببٍ ما.

ـ الحبّ لا يترعرع في بركة آسنة من الكذب. الحبُّ الحقيقيُّ هو الذي يقوم على الصفاء والصدق. الآن أدركتُ أنَّ حبَّه لي لم يكُن حبًّا حقيقيًّا. قيَّدني بأكذوبةٍ أفقدتني حرِّيتي وراحتي النفسيَّة حتّى بعد وفاته. أتدري كيف كنتُ أشعر طوال تلك السنوات الثلاث؟ كنتُ أشعر بأنَّني لستُ امرأةً حقًّا، لن أستطيع أن أهب الحياة لطفل. حتّى رؤية الأطفال الصغار كانت تذكّرني بمأساتي.

قلتُ لكِ:

ـ الآن الحمد لله، ها أنتِ تعودين امرأة رائعة وستلدين طفلاً

جميلاً. وعليَّ أن أتقدم لخطبتكِ من أهلك ونعقد قراننا. قلتِ :

ـ الوقتُ ليس مناسباً. سنلغي هذه الولادة. لأنكَ بعد شهرين ستسافر إلى الرياض لتعمل أستاذاً في جامعتها. وعندما تستقرُّ هناك سألتحق بك، وسننجب أطفالاً بالعدد الذي تريد. لم أعُد أستطيع العيش بدونكَ. أنتَ وهبتني حياةً جديدة.

عندما كنتِ تتحدَّثين معي عن الأمل والمحبَّة والوفاء، كان صوتك نغماً يوغل في أغوار روحي، وعباراتك جُملاً موسيقيَّة تطرب وتهتزّ لها نياط قلبي. كنتُ كالطفل الذي يتلمظ عند سماعه وعوداً بحلوى. لم يدُر في خلدي ذات يوم أنَّ وعودكِ مجرّد كلام يحتمل الصدق والكذب. صوَّركِ الحبُّ لعينَيَّ ملاكاً لا يمكن للكذب أن ينال من نقائه وصفائه. لم أكُن مغروراً ولا غراً لأصدِّق الوعود المعسولة، ولكنَّ الحبَّ صوَّركِ لعينيّ ملاكاً. حبّي أعماني. ولم يكُن في مقدوري أن أتصوَّر قلبكِ قادراً على الخديعة؛ أنتِ التي كنتِ تذمّين الكذب والرياء، وتنوّهين بالصدق والصفاء.

لقد وضعتني في موقف يستحق الرثاء والشفقة حقاً، كموقف النفري حين قال له سيده :

ـ « إن أردتَ أن تثبت فقف بين يدي في مقامك ولا تسألني عن المخرج ».

94

في نهاية تلك السنة الدراسيَّة البيضاء، أخبرتكِ بالموعد الذي اخترتُه لرحيلي، وواسطة السفر. قلتُ لكِ:

ـ سأسافر بسيّارتي من الرباط إلى الرياض.

قلتِ :

ـ إنَّه طريق طويل. أليس من الأسهل أن تسافر بالطائرة؟

قلتُ:

ـ ولكنّي لا أفارق كتبي المرجعيّة. وعندما نقلتها في الطائرة معي من أمريكا إلى باريس، كلفتني كثيراً. ما عليّ إلا أن أغلّفها في ثلاثة أو أربعة صناديق، وأحملها في المقعد الخلفيّ للسيّارة وعلى ظهرها.

وأتيتِ، يا أثيرة، إلى منزلي ذات مساء لمساعدتي في تجميع الكُتب، ووضعها بعناية في صناديق الورق المقوّى. وهناك دسستِ كتاباً مصوَّراً عن المغرب دون أن أدري، لكي أكتشفه بعد وصولي إلى الرياض فأتذكّر المغرب. وأنّى لي أن أنسى المغرب وأنتِ مغربيّة؟ فحبّي لك من حبّي للمغرب. وحبّك عمّق حبَّ المغرب في جرح فؤادي.

شرحتُ لكِ خطّة الرحلة على خريطة أعددتها. أنطلق كلَّ يوم عند بزوغ الشمس بعد صلاة الفجر، وأقود السيّارة حتّى الظهر فأتوقّف لتناول طعام الغداء والاستراحة لساعةٍ أو ساعتَين، ثمَّ أستأنف قيادة السيّارة بعد ذلك حتّى قبل مغيبِ الشمس، فآوي إلى فندقٍ من الفنادق حتّى الصباح، لأنّني لا أريد أن أسوق السيّارة في الليل، حين تتضاءل الرؤية وتتفاقم الأخطار. وسأمرُّ بالجزائر وتونس وليبيا ومصر، ثمَّ أنقل السيّارة بإحدى البواخر إلى بيروت، ومنها أقود السيارة عبر سوريا والأردن فالسعودية.

واقترحتِ عليّ، يا أثيرة، أن أمضي ليلة السفر في منزلكم في فاس ، وفي الصباح انطلق منها إلى تازة فوجدة، ثمَّ أعبر الحدود إلى وهران حيث سأمضي الليلة لدى عمَّتي التي كانت أستاذة زائرة في جامعة وهران. هي الأخرى لم تستطع العودة إلى العراق، فعملت أستاذة في جامعة بكين مدَّة، ولكنَّ الحنين إلى العراق جعلها تبحث عن عمل في بلد عربيٍّ، فحصلت على منصب أستاذةٍ زائرةٍ في جامعة وهران. ها أنتِ ترين أنّنا عائلة من المشردين والمنبوذين والبدو الرُّحَّل.

وصلنا فاس بالسيَّارة عصرا. وكان الجو رائقاً والنسيم عليلاً.

وأفردتم لي غرفةً في الطابق العلويّ من المنزل. وعندما حان وقت العشاء، حملتِ الخادمة الطعام لنا ووضعته على طاولة نُصبت في شرفة المنزل. ولم يشاركنا أهلك الطعام، وإنّما تركونا وحيدين. وقلتِ لي:

ـ لنتناول طعامنا مبكراً، لكي تأخذ قسطاً من الراحة وتنام مبكراً ، فتُصبح مستعداً لبدء رحلتك الطويلة.

ولكنّنا بقينا نتحدّث حتّى بعد منتصف الليل. وعندما أويتُ إلى فراشي لم يغمض لي جفن، لا خوفاً من الرحلة ولكن حزناً على فراقك. وأظنّك لم تنامي تلك الليلة أيضاً، فقد أيقظتِني في الفجر لصلاة الصبح، فتوضأتُ بماء فاس وتباشير ضوء فجرها الوليد، وصليتُ ركعتَين لله وثالثةً للوداع، ثمّ جلبتِ طعام الفطور بنفسك. وتناولنا الفطور معاً، ولكنّكِ لم تستطيعي الأكل، وإن تظاهرتِ به، وكنتِ تدارين الدمع الذي اغرورقتْ به عيناك الكحيلتان.

ونزلتِ معي إلى السيّارة. ووقفنا للوداع. رأيتُ، يا حبيبتي، كثيراً من الدموع في حياتي. فقد كانت أمّي تبكي كثيرا من أجل البؤساء والفقراء والمنكوبين والمعذبين. ولكنّني كنت أرى دمعها يسيل على الخدّين. ولم أرَ في حياتي من قبل، دمعاً يتجمّع في مؤق العين على شكل كريّات صغيرة بحجم حبات اللؤلؤ لتهبط الواحدة تلو الأخرى. كيف جمعتِ كلّ ذلك اللؤلؤ في عينيكِ؟ كنتِ في غاية الألم. ونطقتِ بصعوبة عبارة لم تكن واضحة، أظنّها : « ليتني لم ألتقِ بك ». قلتُ :

ـ ماذا تقولين؟

وضعتِ ذراعيك حول عنقي، ورأسكِ على كتفي، لئلا أرى دموعكِ المتساقطة على خدّيكِ الأسيلَين، وقلتِ وقد حاصرك النشيج :

ـ سأكتب إليكَ.

أسرعتُ في ركوب السيّارة لئلا تنهمر دموعي أمامك، وأدرتُ المحرّك.

ورأيتكِ في مرآة السيّارة العاكسة تلوّحين بيدٍ واهنة، ثمَّ تجلسين بباب المنزل. وعندها تأتي أختك، فتضمُّك إليها، وتدخلان إلى المنزل..

وظلَّتْ كلماتكِ ترنُّ في أذنيّ، وأنا أقود السيارة والدموع المترقرقة في عينيَّ تجعل من الصعب عليّ أن أرى الطريق بوضوح.

ما أجمل كلماتك وأحلى وعودك وأروع وداعك، يا أثيرة. بيدَ أنَّي كنتُ أخشى غدر الزمن إذا ما افترقنا وطال البعاد.

ورحتُ أخفِّف من مخاوفي، وأردِّد بصوتٍ مسموعٍ وأنا وحيدٌ في طريقي الطويلة: ولكنَّها وعدتني أن تكتبَ إليَّ. قد تأتيني بدلاً من رسالتها. وظللتُ أبعث إليكِ ببطاقة بريدية من كلِّ بلدةٍ توقفتُ فيها للاستراحة أو لتناول الطعام أو للمبيت طوال الطريق من فاس إلى الرياض.

95

" تتعثَّر عيناه بعقارب الساعة المُثبّتة على الحائط. عقاربُ ثابتةٌ لا تتحرَّك ولا تدور، أو هكذا تبدَّتْ لعينيه اللتَين أرهقهما الأرق. يصوِّب نظراته إليها بين لحظة وأخرى، يستحثّها على الحركة حتّى يكاد يدفعها برموشه؛ بيدَ أنَّها أبطأ من أرجل سلحفاة خائفة منكمشة في صدفتها، بطيئة حتّى السكون، يسمع دقّاتها ولا يلحظ تحوّلاتها. تَعَلَّم أنَّ الضوء أسرع من الصوت ولكنَّ هذه الساعة تدحض جميع نظريات الفيزياء.

كلّما عزم على التركيز في عمله وتوجيه نظره إلى الأوراق أمامه، ألفى رأسه مرفوعاً بقوّةٍ خفيّة، وعينَيه منجذبتَين بِشِدّة إلى

عقارب الساعة. ولكنّها لا تتحرّك، فهي لا تزال في عين الموضع الذي رمقها فيه آخر مرّة. أخذ يظنُّ أنّ الأرض قد توقّفت عن الدوران، فمات الزمن، ولم تَعُدِ الساعات تعبأ بِعَدِّ دقائقه وثوانيه.

في الساعة الثانية بعد زوالِ كلِّ يوم، يصل البريد إلى مكتبه قبل موعد الانصراف بنصف ساعة، غير أنّه منذ دخوله المكتب في الساعة الثامنة صباحاً وهو يرصد عقارب الساعة في انتظارِ موعدِ البريد، فتبدو له العقارب تارةً مراودَ تكحّل عينيه، وتارةً أسياخَ متوهِّجةً تحرق أجفانَه. يخفِق فؤادُه للأملِ برهة، ويغوص في بئر الخوف من الخيبة برهةً أخرى. في كلِّ مرَّةٍ يُفتَح باب مكتبه، ينتفض قلبُه بين ضلوعه، ويستبق عينَيه ليحتضن القادم الجديد علّه يحمل البريد.

وعندما يصل الموظَّف الذي يوزِّع البريد أخيرا، يهبُّ واقفاً مادًّا ذراعَيه ليتناول ما وصله منه، كمن يهبّ لمعانقةِ حبيبٍ عادَ لتوِّه من سفر بعيد. يأخذ البريد بسرعة. يبعثر مظاريفه على المكتب. تلتهم عيناه العناوين بِنَهَم. ولكنَّ معظمها مطبوع. مراسلات رسميَّة، ولا يتزيَّن أيُّ مظروف منها بذلك الخطِّ المغربيّ المميز الذي يعرفه. لا يصدّق ناظريه، ويعيد فحص الظروف بتأنٍ، ثمَّ تنقبض ملامح وجهه ويمتقع لونه.

منذ وصوله إلى تلك المدينة في أدنى المشرق قبل شهر ونَيِّف وهو ينتظر تلك الرسالة الموعودة من أقصى المغرب. يحلم بوصولها بُعيد بزوغ القمر، ويترقَّبها مع الغسق. وفي كلِّ يوم عند الظهر، يُصابُ بطعنة يأس. ثمَّ يعود الأمل يغمره، مثلما تغمر موجةٌ جديدة طفلاً يسبح في شاطئ البحر. لا يغمض له جفنٌ في الليل إلا لماماً، وحينذاك تمتلئ غفوتُه العابرة بالرؤى، والأحلام، وتختلط عليه الكوابيس. يحلم بأنّه يبكي، فيستفيق من نومه ليجد عينَيه وخدَّيه نديَّة بالدمع.

لم يترك شيئاً لم يفعله من أجل تلك الرسالة الموعودة. كان

يستعجلها فيبعث بثلاث رسائل يوميًّا. كان يصلي صلاة الاستسقاء عدَّة مرّات في اليوم يستنزل تلك الرسالة. كان يمارس سحراً أبيض بالكلمات، لعلّ الكلمات الحاضرة المنطوقة تستدرُّ الكلمات البعيدة المكتومة، كما يقذف الرعد بالمطر. ولكن في كلّ يوم كان البريد يمزّغ عينيه وقلبه في وحل الخيبة والأسى، ويسلّمهُ إلى انتظارٍ جديدٍ يجلده بلا رحمة.

كان يتخيّل تلكَ الرسالة يمامةً تُحلّق في السماء، لا تُعيقها التلالُ ولا الجبال ولا الحدود. وعندما تعانق ناظرَيه تتوحَّدُ أنهارُ المغرب والمشرق، تتسع المنابعُ والمصبات، تتهاطل الأمطار، تخضرّ الحقول، وتكثر الغلال، ويشبع الجِياع، وتمرح المواشي في المراعي المعشبة، وتشترك الأطيار في أغنية واحدة يتردَّد صداها من الخليج إلى المحيط.

قفزتْ عيناه وساقاه وقلبُه في آنٍ واحد عند دخول موزّع البريد ظُهْرَ هذا اليوم. فمنذ الصباح وقلبُه يحدِّثه أنَّ الرسالة قادمةٌ لا محالة. رآها بين الظروف في يد الموزّع حتّى قبل أن يقرأ العنوان. أوصد الباب. وافتضَّ الظرف بارتباكٍ. وراحت عيناه تفترسان الحروف.

وعندما دخل الآذِن بعد نصف ساعة لينظّف المكتب ويكنس أرضيته، فوجئ به مرمياً على الأرض مغشيًّا عليه، وقد تصلّبت أصابعُ يديه على ورقة فيها بضعُ كلماتٍ فقط: " أُحبُّكَ أُحبُّكَ، ولكنّي لا أستطيع أن أفارق بلدي."

96

لكنّني هذه الليلة وحيد حزين. أسير في دروب التيه، أواصل النشيج والنشيد الجنائزي، وأرتّل بكائيّات الوحدة، تصدّني أسوارُ الغربة فأرتدُّ إلى براري الخيبة. أحسُّ بقلبي يغطس إلى أعماق مستنقع الأسى، وهو مثقلٌ بأكبال غدركِ وخيانتكِ. أحلامي

حطّت على جناح فراشة عمياء تذروها رياح هوجاء في ليلة ممطرة. ليتني أتحرّر من ذاكرتي التي تستحوذين عليها، تملئينها بحكاياتك، وصورك، وألوان فساتينك، ويعبقُ فيها عطرك، وأنفاسك فيها تتردّد، فأين أهرب؟ كيف أتخلّص من هذه الذاكرة التي لم تعُد ذاكرتي، وإنّما ذاكرتك أنت؟ لقد أحرقتُ أوراق ذاكرتي مراراً كي أتخلّص منك إلى الأبد، ولكنّكِ في كلّ مرّة تنتفضين من بين ذرّات الرماد كالعنقاء، وتحلّقين في أعالي الروح.

حبّك، سيدتي، عنقاءٌ مغربيّة لا تضاهيها عنقاء الآشوريّين التي كانت تنتفض من رمادها وتحلّق مرّة كلّ خمسمائة عام. أمّا عنقاء حبّك فهي ترفرف في فضاء روحي كلّ ثانية، وتملأ كياني صفقاً وصخباً وضجيجاً. تخطفني على جناحيها وتطير في رحلةٍ أثيريّة، تجمعني معكِ في وحدةٍ شهودية، تُفنيني فيك وتحييني، تحرقني بلهيب الشوق، ثمّ ترميني إلى الأرض مُعْدماً لا أملك سوى رماد آمالي.

هل جُنَّ هذا المُتجبِّر الذي يتسلّل إلى كياني، ينهل من وريدي ولا يرتوي، يمتصّ دمي حتّى الثمالة ولا ينتشي؛ يقتات على أحزان القلب ولا يشبع، يراود راحتي ليل نهار ولا يكتفي ولا يملّ ولا يهدأ. حبُّك هذا ما أقساه. أحبّه وأبغضه، وأبغضه وأحبّه، وهو هو لا يرعوي ولا يبالي ولا يتغيَّر. يرميني في آبار الوجد حتّى أوشك أن أختنق، ويطير بي في سماوات الحنين حتّى أتشظّى بنيران الشوق.

حبُّكِ بركانٌ ثائرٌ هائجٌ متوهِّج يتلظّى بشكل دائم؛ تتساقط حممه الوجدانية على أمِّ ذاكرتي، وتتسرَّب سائلة إلى منافذ الروح ومسارب القلب، تشعل الحرائق في كلّ مكان، حرائق لا تنفع معها فرق الإطفاء، ولم يرَ مثلها خبراء مكافحة الحريق، ويندهش لضراوتها علماء البراكين.

أمضيتُ أياماً وشهوراً وسنين أحوم كفراشة حول نار حبٍّ

مستحيل، فكنتُ اشتعل، وأحترق، وأنطفئ، وأتلاشى دخاناً في فضاء الحرمان. ناديتكِ بدمع عيني، وناجيتكِ بوجيب قلبي، فما سمعتِ النداء ولا استَجبتِ للرجاء. وأخذ الليل يفقد طعمه، والنهار كذلك. فلا أصيل يلوح في الأفق، ولا شروق يُرتقَب، ولا أحد بالقرب مني أشكو له علّتي. وراح الحرمان يعشّش ويفرّخ كالبوم في روحي، وأخذتْ نفسي تعجّ بالخواء. كنتُ أقف على عتبة الحبّ دون أن أجرؤ على الخطو نحو باحة الجذل. لعلّني إذا كتبتُكِ هذه الليلة تخلّصت منك إلى الأبد. سأكتب عنكِ إليك، فلعل جرثومة الحزن تنتقلُ مني إليك. أليس الحزن داء ينتقل بالعدوى مثل بقية أدواء القلب؟ ولكن، هل يمكنني تكثيف ما في قصّتنا من مأساةٍ في عباراتٍ صغيرةٍ لها قدرة خارقة على التصوير والتعبير والتغيير؟.

يقولون لا تغمض عينَيكَ على الذكرى، فإنّها ستعذبك؛ ولا تطبق شفتَيك على السرّ، فإنّه سيقتلك. بُحْ بسرّك، واسرد قصتك، فذلك سيزيح الغمّ من صدرك، ويخفّف عنك. وها أنا ذا أكتب قصتي لعلّي أتخلّص منك.

يزعمون أنّ الإبداع موكلٌ بالتجربة وصدق الإحساس؛ فهل هنالك تجربةٌ أقسى من تجربتي معكِ، وعواطفُ أصدق من عاطفتي نحوكِ؟ ولكن، هل يمكنني تكثيف ما في حبّنا من مأساة في جُملٍ قليلةٍ لها قدرة خارقة على التعبير؟ هل أستطيع أن أعبّر عن جميع تلكَ الأشياء المعقّدة بكلماتي البسيطة؟ هل أقدر أن أصف أحاسيسي المضطرمة بحروفي العارية الكسيرة؟ هل أتمكّن من التوحّد فيك هذه الليلة بالكلمات الأثيريّة فقط، كلماتٍ تبقى معلّقة في الهواء دون أن يلتقطها أحد؟ هل لي أن أتوحّد فيك كما أتوحّد في حياتي وموتي؟ ماذا لو عاد النهر إلى مجراه؟ ماذا لو أشرقت الشمس ثانية؟ ماذا لو انفتحت أبواب الأسوار، وخرجتِ أنتِ إليّ بفستانك الأبيض ؟ هل تذكرين فستانك الأبيض؟.

كنتُ آمل أن يتكفّل الزمنُ بحبّك ذات يوم؛ يصيبه بالوهن، بالنسيان، بالكِبَر، بالهزال، مثلما أصابني. ولكن ها قد مرّت قوافل الشهور وطوابير السنين وهو ما يزال في فتوته، يتبعني حيثما ذهبتُ، يوشّح ليلي بأكاليل الألم. ظلّ يلاحقني في ترحالي من محطة إلى أخرى، ومن مطار إلى آخر، ومن مرفأ إلى ثانٍ، وأنا مسافر بلا حقائب، مسافر دوماً حتّى لم يعد السفر وسيلة لوصول مطار أو محطة أو مرفأ، وإنّما أمسى غاية في ذاته كالهروب.

97

لم يعُد الدكتور سليم قادراً على التركيز في محاضراته، يصيبه شرود الذهن، فيصمت في إثناء الكلام، ويطول صمته، حتّى لم يعُد في مقدور طلابه الاستفادة منه. فأنهت الجامعة عقده في نهاية العام. فرحل باحثاً عن عملٍ هنا وهناك. وفي كلّ مكان يعمل فيه سرعان ما يُكتَشف شرود ذهنه، ويفقد عمله.

أن ألتقي بك مرّةً أخرى حلم كسيح كساعةٍ جداريّةٍ معطّلة خرِست دقاتها وشُلّت عقاربها. فأمست حياتي بعدك مثل مأساةٍ مسرحيّةٍ تُمثّل على خشبة وضعت بشكل مقلوب. ولا أستطيع التخلص من وضعي هذا إلا بالسيطرة عليه أو رفضه بالمرّة. فأمّا السيطرة عليه فهي فوق إمكاناتي المحدودة، وأمّا رفضه فليس في وسعي، لأني سأبقى دائماً حيث أنا موجود، كما يقول فرناندو باسوا.

تاهَ وجهي في فيافي الأحزان وأنا بلا بوصلة. أضناني التيه وأدمى روحي الترحال والتشرد والتشتت. أنا تائه في دروب هذا العالم، وأنا ضائع في ردهات ذاتي، أتساءل: مَن أنا؟ أزجي الوقت بالتسكّع فوق أرصفة الحزن وأزقّة الغربة أو الجلوس في مقاهي الضياع والتيه على كومة من مسامير الهمّ؛ وأحياناً أجدني ذاهباً إلى محطّات القطار في تلك المدن الغريبة، فأقعد وحيداً على

مصطبة خاوية في أحد الأرصفة كما لو كنتُ مسافراً، أو كما لو كنتُ في انتظار قادم لن يصل. وتتوقّف القطارات واحداً تلو الآخر، وتلفظ العربات ركّابها على الرصيف. تتلقّف بعضهم أذرع المستقبلين، وينغمسون في العناق وتبادل القبلات في لهفة اللقاء، ويسير الجمع بخطىً سريعةِ الإيقاع إلى باب المحطة. كم تمنّيت أن أضيع في الزحام المندفع نحو باب المحطة، بيدَ أنّي أظلّ قابعاً أتطلّع إلى آلاف العيون المارة، أستجدي التفاتةً يتيمة، ولكنّها كانت تمرق جنبي بدون اكتراث، فتنحسر نظراتي متعثّرة بأشلاء كبريائي. ثمّ تنطلق القطارات إلى جميع الاتجاهات، وترحل إلى كلّ البلدان، ما عدا بلدي. وأمكث أنا وحيداً في مقعدي ونكهة الصمت تشيع في أرجاء حزني، ساكناً كالنخلة العراقية، جذورها متشبّثة بأعماق التربة، وسعفها يمتطي الريح في كلّ الأنواء. وطني الغربة ومستقرّي أشواك الرحيل الدائم.

تجول عيناي في زوايا المطار أو محطة القطار، أبحث في الأماكن المتوارية عن الأنظار عن موضع ألوذ به، أقضي ليلتي على بلاطه، مثل أيّ متشرّدٍ بلا مأوى، أو متسكع لا أحد ينتظر عودته. أتوسّد سترتي، ألتحف معطفي البالي، أصمّ أذني بقصاصات من ورقٍ الجرائد الملقاة على قارعة الطريق أو في سلّة المهملات لعلّي أخفّف من ضوضاء المحرّكات المزمجرة، أملاً في أن يأنس النوم إلى جفني. أفترش الغبراء وألتحف السماء وأمنّي النفس بأحلام اللقاء. لا أتذكّر أنّي نجحت في اصطياد غمضة عين هانئة ذات ليلة. النوم لا يؤمّ إلا البيوت السعيدة الهانئة الهادئة، يستهويه السكون، ويغويه الصفاء؛ يهرب من الحركة، ويبتعد عن الضجيج.

وعند الفجر أنهض كأني أستيقظ من نوم، ألج دورات المياه لأغسل وجهي، وأبحث عن رشّاش ماء لأغتسل. عودوني على النظافة في طفولتي. ولم يتنبّأوا بمصيري. في بعض المطارات ومحطات القطار في البلدان التي تحترم حقوق الإنسان، يوفّرون

رشاشات الماء مجّانا للمسافرين، ولكنّهم لن يوفّروا وطناً لمن فقد وطنه. قد يوفّرون الدواء لجريح أو مريض، ولكنّهم لا يخفّفون من المعاناة النفسيّة التي يرزح تحتها أمثالي. ولكن، لقد تذكرتُ، بإمكاني أن أتّصل هاتفيا بمكاتب خاصّة بمحادثة البائسين واليائسين والمقبلين على الانتحار، فيشبعونهم كلاماً، كلمات لا أكثر ولا أقلّ. ولكن هل يستطيع لاجئ متشرّد مثلي أن يستغني عن بعض القروش ويرمي بها في جهاز الهاتف ليستطيع أن يتحدّث مع تلك المكاتب؟ نعم، انتبه بعضهم إلى ذلك، فجعل بالإمكان التحدُّث مع هذه المكاتب بالمجان. يا للكرم!

أتنقّلُ من مدينة غريبة إلى أُخرى، ومن فندق حقير إلى آخر. وعندما أستيقظ من نومي ـ وكثيراً ما كنتُ أستيقظ أثناء الليل ـ لا أدرك أين أنا، ولا أعرف مكاني، أنكر فراشي كما ينكرني. أستيقظ فأتلفّتُ حولي مستغرباً وهلةً، لأتذكّر كيف وصلتُ إلى هذا المكان. ثمّ أعود إلى الواقع المرّ والألم يغمرني. وجودي كابوس لا ينتهي. أغبطكم، أيّها النائمون في أسرّتكم، في أحضان زوجاتكم، في بيوتكم، وبين أهاليكم، وفي وطنكم. هنيئاً لكم. طوبى لكم. أما نحن اللاجئين فقد كُتب علينا أن نترنّح تحت صليب الغربة الذي يُثقلُ ضمائرنا، متشرّدين من لامكانٍ إلى آخر. نتذكر قول أبي الغرباء، أبي حيان التوحيدي، لنهوّن من مصيبتنا :

" يا هذا! هذا وصف غريبٍ نأى عن وطنٍ بُني بالماء والطين، وبَعُدَ عن أُلاف له عَهْدُهم الخشونة واللين... فأينَ أنتَ من قريبٍ قد طالت غُربته في وطنه، وقلّ حظّه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنتَ عن غريبٍ لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان؟ ..."

أسيرُ في أزقة المدن الغريبة، فأراكِ في جميع الوجوه حولي، وأشمُّ عطركِ كلّما هبّ النسيم، وأسمع صوتك في الأنغام القادمة من بعيد. عندما أتذكركِ، أبصركِ بقلبي، فأغمض عينَيَّ لئلا أرى أحداً غيركِ ولكيلا أرى شيئاً آخر. أغمضُ عينيّ عليك لأحتفظ

بك متوهِّجةً في ذاكرتي أطول مُدَّة ممكنة؛ متوهِّجة حتّى نقطة الاتّقاد والاشتعال والاحتراق.

98

على درب الأحزان، جررتُ أقدام الغربة والترحال، وعدتُ إلى المغرب بعد خمس سنوات من تلك الليلة في ضاية (بحيرة) عوا. لا أدري لماذا، ربَّما لأفتح جراحات القلب ثانيةً، وأنشج بكائيات الفراق مرَّةً أخرى، فقد أدمنتُ على معاقرة الحزن ولا أمل بالشفاء، وصار دوائي الوحيد هو الداء نفسه.

توجهتُ إلى فاس. اخترتُ طريق إيفران. وعرَّجتُ على ضاية عوا كما كان بعض أجدادي البدو ممن كُتِبَ عليهم الحزن والترحال، يعرِّجون على أطلال الأحبَّة، يقفون أمامها واجمين، يذرفون دموعاً سخيَّة سخينة بصمت، حتّى تملّ مطيُّهم الوقوف، ويضجَّ صحبهم بحثِّهم على مواصلة السفر. عرَّجتُ على ضاية عوا. لا أدري لماذا، ولكن وجدتني أقترب منها. وحالما وصلتُ الموقع، لفحت وجهي رياح الأسى وزكمت أنفي رائحة الجفاف والموت.

رأيتُ، يا حبيبتي، وليتك لن تري ما رأيتُ أبداً. رأيتُ بحيرة ضاية عوا قد استحالت أرضاً جرداءَ وقاعاً صفصفاً؛ أرضاً خاويةً من الماء وقاعها يابساً جافاً تملأه الشقوق العميقة. رأيتُ فيها جفاف قلبي وفطوره. كانت الأشجار حول البحيرة ذابلةً صفراءَ جرداءَ قد تساقطت أوراقها فكنستها الريح فلم يبقَ لها أثرٌ. وبقيت أغصانها عاريةً تماماً، وسيقانها بلا رواء تقف ميّتةً وكأنّها تعبّر عن ازدرائها للموت. ومع ذلك فقد كان بعض تلك الأغصان يتدلّى على أرض البحيرة مثل أذرع راحت تجسُّ مريضاً لفظ أنفاسه الأخيرة وفارقته الحياة.

التفتُّ يميناً أبحث عن البط والإوز والبجع الذي كان يمخر ماء البحيرة. التفتُّ شمالاً أبحث عن القوارب الصغيرة التي كانت

تجوب أرجاء البحيرة. لم يقع بصري إلا على أرض جافة يابسة مزّقتها الشقوق تماماً مثل خريطة الوطن العربي الذي تمزقه حدود رُسمت بأقلام رصاص على خريطة. التفتُّ ورائي أتطلّع إلى النُّزُل. وجدتُه كالحاً فقدَ نضارته. تردَّدتُ لحظات ثمَّ اتّجهتُ نحوه، دفعتُ دفة بابه، فانفتح الباب بأزيز مثل صوت كمان في لحنٍ جنائزيٍّ. ولجتُ صالة الاستقبال فيه فألفيتها خالية. لم تكن تلك السيدة الفرنسيَّة ولا زوجها عند النضد. دلفتُ إلى صالة المطعم المطلّ على البحيرة. كانت فارغة تماماً. الكراسي والمناضد كانت هناك ولكن لا أحد يجلس إليها. جلستُ إلى طاولتنا المفضَّلة محاذاة الواجهة الزجاجيّة. ورحتُ أحملق في البحيرة الميتة في ذهولٍ كما لو كنتُ أتأمل مأساة الخليقة منذ الأزل . ونسيتُ نفسي. لا أدري كم مرّ عليّ من الوقت وأنا في تلك الحال.

في تلك الساعة تذكرتُ البحيرة كما كانت يوم أمضينا ليلتَين في ضيافتها، يرقص الأمل فينا على أنغام خريرها. ثمَّ أخذتْ تتمثَّل لناظري تلك السويعات الهنيئة التي أمضيناها معاً في ذلك الفندق. الوجبات اللذيذة التي تناولناها معاً في المطعم، الرحلات القصيرة التي قادتنا دروبها الضيقة بين الأشجار إلى قلب الغابة المكللة بالثلج وسفح الجبل المتوَّج بالبياض، الجولات العديدة التي قمنا بها بالقارب في البحيرة، وكنتِ تمدّين يدك في الماء المثلج خفية وتلقين بشيءٍ منه على وجهي ضاحكة، وسربٌ من البط والإوز والبجع يتبع القارب. هل كنتِ تلقين إليه بفتات الخبز دون أن أراك أم أنَّه كان منجذباً مثلي إليك؟ وفجأة أفزعني صوتٌ من ورائي:

ـ سيدي، إنَّ المطعم مغلق.

التفتُّ إلى مصدر الصوت، فرأيتُ رجلاً طويلاً نحيلاً شاحب الوجه يرتدي مريلة قديمة، كان أحد الندل القدامى الذين كانوا يقدِّمون لنا الطعام أيام إقامتنا في الفندق ولم يتذكّرني. سألته:

ـ وماذا عن صاحب الفندق وزوجته؟

ـ انتقلا إلى رحمة الله منذ سنوات.

وجدتني محاصراً بالموت أينما توجَّهت. الموت من أمامي ومن ورائي، يحيط بي كما يحيط الخاتم بالبنصر. وليس من فائدة تُرجى من إلقاء أسئلة أخرى على الرجل وسط هذه العبثية المؤلمة. قمتُ بتكاسل وجررت قدميَّ خارجاً. وجلستُ على المسطبة المهترئة الوحيدة الباقية على ضفة بحيرة (ضاية عوا) الميتة. وأطرقتُ، وحلَّق فكري بعيداً. ها هي البحيرة أمامي، ولكنَّها بلا ماء، وها أنا ذا أجلس على ضفتها ولكن دون أن تكوني معي، وتذكَّرتُ مارتين وبحيرة لامارتين.

كان الشاعر الفرنسيّ لامارتين يستجم على ضفاف بحيرة (بورجيه) ذات المياه المعدنية. وهناك تعرَّف على شابة جميلة اسمها جولييت فربط الحبُّ بين قلبيهما. وافترقا على أمل اللقاء بعد سنة عند البحيرة نفسها. وعاد لامرتين إلى البحيرة ولم توافه جولييت، إذ ماتت بعد بضعة أشهر من ذلك اللقاء. جلس لامارتين على ضفة البحيرة واشتدّ به الوجد والشوق، فكتبَ قصيدة «البحيرة»:

أهكذا أبداً تمضي أمانينا ... نطوي الحياةَ وليلُ الموت يطوينا

تجري بنا سفنُ الأعمارِ ماخرةً ... بحرَ الوجودِ، ولا نُلقي مراسينا

بحيرةَ الحبِّ، حيّاكِ الحيا، فلكم ... كانتْ مياهُكِ بالنجوى تُحيِّينا

99

اصطفتني الغربةُ خليلاً، فأنشبتْ مخالبها في أعماق الروح وأوتار القلب، وامتصّتْ دماء الفرحة من أوردتي وشراييني، وكحَّلتْ عينَيّ بالأشجان. وتمطَّت وتثاءبت على حبال الزمن حتّى

أخذتُ أخشى أنّني سأكون غريباً في وطني إذا ما عدتُ إليه. لقد غرَّبت الغربة بي وشرّقت. فتردَّدتُ على صناديق مَن لا عنوان لهم في البريد المركزي بمدريد، باحثاً عن رسالةٍ لم تُرسل.

وفي كوبنهاكن تجمَّدت أمام تمثال حوريّة البحر وقد حاصر الصقيعُ قلبي وشلّ مشاعري.

وفي جزيرة جربة التونسية، قصدتُ جامع الغرباء، توضأتُ بالضوء وبالدمع، وصليت ركعةً للوطن وركعتين للغرباء والبؤساء، فما استُجيب الدعاء.

وسهّدني الليل في فاس حتّى سمعت عند الفجر جميع أدعية « مؤنس الغرباء » من صومعة الجامع. صحّحوا كلامي قائلين: إنّه « مؤنس المرضى ». قلتُ: وما الفرق؟ أليس الغريب مريضاً؟ أنا مريض، يا صاحبي! هل تظنُّ الصحّة مجرّد الخلو من الأمراض والإعاقة؟ لا يا صاحبي. لقد جانبك الصواب هذه المرّة. فالصحّة حالة من التكامل البدنيّ والعقليّ والنفسيّ والروحيّ والاجتماعيّ. وهي تتطلّب تكاملاً بين العوامل البشريَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة. فأنا مريض، لأنّي أشعر بالغربة تسحق روحي ونفسي وعقلي. إنّه مؤنس الغرباء فهم كذلك من المرضى، يا صاح.

وفي الشواطئ المهجورة في جزر المالديف، غطستُ وحيداً في مياه المحيط الهندي، شاهدتُ ملايين الأسماك بألوانها الزاهية، وكلّ صنفٍ منها على شاكلة حيوان من الحيوانات البرية: فرس البحر الشبيهة بالخيل، وعروس البحر التي على شاكلة الفراشات، والسمك الذئبي الشبيه بالذئاب، أمّا أنا الإنسان الوحيد بينها فقد تمنيت لو كنتُ سمكة على شاكلة واحدة من تلك الأسماك، أنساب بنعومة في المياه، وأتنقل من محيط إلى بحر، ومن بحر إلى نهر، حتى أصل نهر قريتي، لأرتشف قطرة أو قطرتَين من مائه الفرات قبل أن أموت، فأنا رجل طاعن في الغربة والبؤس.

وفي جزيرة زنجبار، جزيرة الغربان والحنين، ذرفتُ دمعةً على الغربة والغرباء، وذرفتُ دمعةً أخرى على بقايا العمانيّين الذين كانوا سادة هذه الجزيرة التي عمّروها وحضّروها ورقّوها بالأمس، وصاروا اليوم فقراء غرباء في ديارهم.

وفي القاهرة، كنتُ أتسكّع في الشوارع لعلّي أقع على مؤسّسة أعمل فيها. فرأيتُ مجموعةً من السياح يقودهم دليل سياحيٌّ إلى داخل المتحف المصريّ. ذاهلاً ساهياً دخلتُ معهم. وراح الدليل يسرد تاريخ الفراعنة، كما حفظه في الدورات التدريبية. وأخذ يعلّق على التحف واحدة واحدة. كنتُ أسمع الصوت ولا أعي القول. ثمَّ وقف أمام مجموعة من القناني الصغيرة، أغلبها أزرق اللون. وسمعته يقول:

ـ « كانت عادة المصريين زمن الفراعنة، عندما يفقد أحدهم صديقاً أو جاراً، يسكب دموعه عليه في قنينة مثل هذه القناني، ويحملها إلى أهل الفقيد، ليريهم مقدار حزنه عليه ».

وفجأة، وجدتني أسأل الدليل بغير إرادة مني:

ـ «ومَن فقدَ الوطن، هل تكفيه قنينةٌ صغيرةٌ مثل هذه لدموعه؟».

حملق فيَّ الدليل مندهشاً. ورأيتُ شفتيه ترتجفان دون أن تنفرجا عن جواب. لا شكّ في أنّه في جميع دوراته التدريبية، وفي جميع جولاته السياحيّة في المتاحف والأماكن الأثريّة، لم يسمع سؤالاً مثل سؤالي. بدت على وجهه نظرة حزينة كما لو كان هو نفسه يفكر في وطنه. أمّا السياح فقد نظروا إلينا ولم يفهموا سبب الحزن الذي بدا على محيَّينا، بينما كانت وجوههم منتشية بابتسامات العطلة والمتعة والسياحة، فتذكرتُ بيت بشار بن برد:

شربتُ زجاجةً وبكيتُ أخرى وقاموا منتشين وما انتشيتُ

100

اختلطت الأمور في ذهني، اكتسحها الضباب، وتلاشى الوضوح. ردّي إليّ بعض عقلي كي أستطيع التفكير، كي أدرك موضعي ووضعي والزمن الذي أنا فيه، كي أتبين الأشياء حولي. أعيدي لي ذاكرتي لأذكر ما فعلتِ بي، لأتلمّس جذور نكبتي. أطلقي لي لساني كيما ينطق بشيء من العتاب نحوك. أرجعي إليّ قدميّ كي أسير بهما إليك، كي أترك مقعدي، فقد سئمت السكون والسكوت والانتظار. أرجعيهما إليّ لأبحث في غابة التيه عن نفسي. فكّي وثاق يدي لأكتب عنك إليكِ، لأخطّ بدمعي ودمي كلماتٍ تضاهي غصّتي، لأسوِّد صفحات تحكي نكبتي، لعلّكِ تقرئينها يوماً، فترثين لحالي وتذرفين دمعةً يتيمةً من أجلي.

أريد أن أتخفّفَ من أثقالي تأهباً لرحيل طويل. ها أنا ذا قد أسقطتُ جميع متاع الدنيا من مركبي المُشرِف على الغرق، فأنّى لي أن أمحو وشمكِ من ذاكرتي، يا سيدتي؟ كيف لي أن أمسح عطركِ العالق في أنفي، وألغي نغمة صوتك المطبوعة في سمعي، وأشطب على ألوان فساتينك الماثلة أمام عيني؟ أنّى لي أن أفعل ذلك وأنتِ تتمددين على سجادة القلب ولا تتركين فسحةً لشيء آخر؟ أنّى لي أن أفعل ذلك وطيفكِ يتعقّبني أينما رحلتُ وحيثما حللتُ؟

ها إنّي أتخفّف من أثقالي تأهباً للرحيل. فجميع أمارات الشيخوخة تحاصرني: سهوٌ متعدِّد، نسيانٌ متكرِّر، ثغرات مفاجئة في الذاكرة، نحول في جسدي، ارتخاء في أعضائي. إنّي أقف على مفترق الطريق في ليلٍ دامس ولا أعرف وجهتي. عيناي في أمّ رأسي تتأمّلان الطريق المُخضرَّة التي أمامي، وعيناي في قذالي تحدّقان في الطريق المسودّة التي خلفتها ورائي، ولا أدري إلى أين ينبغي أن أسير. عشيتْ عيناي من الدموع المتجمّعة في المآقي وزاغ بصري، فلم أعُد أتبيَّن الرؤية.

ضعي أناملك على عيني لأُبصر مرَّة أخرى. والمسي ساقيَّ لينطلقا في طريق الأمل.

الدكتور علي القاسمي

سيرة علمية موجزة

ـ علي بن الحاج محمد بن الحاج عيسى بن الحاج حسين القاسمي (المعروف بالدكتور علي القاسمي).
ـ ولد في بلدة الحمزة الشرقي في محافظة القادسية في العراق في 1942/5/31.
ـ مقيم في المملكة المغربية منذ سنة 1972.
عنوان البريد الإلكتروني: alkasimi@gmail.com

تعليمه:

ـ تلقى تعليمه العالي في جامعات في العراق (جامعة بغداد)، ولبنان (الجامعة الأمريكية في بيروت، وجامعة بيروت العربية ـ فرع جامعة الإسكندرية ـ)، والنرويج (جامعة أوسلو)، وبريطانيا (أكسفورد)، وفرنسا (السوربون)، والولايات المتحدة الأمريكية (جامعة تكساس في أوستن).
ـ حصل على الإجازة (مرتبة الشرف) في الآداب، وليسانس في الحقوق، وماجستير في التربية، ودكتوراه الفلسفة في علم اللغة التطبيقي.

عمله:

ـ مارس التعليم في جامعة بغداد، وجامعة تكساس في أوستن، وجامعة الملك سعود بالرياض، وجامعة محمد الخامس بالرباط. وحاضر في جامعات أخرى مثل جامعة أكستر في بريطانيا، وجامعة تمبرة في فنلندة، وجامعة مراوي ستي في الفلبين.
ـ عمل مديراً لإدارة التربية في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط؛ ثم مديراً لإدارة الثقافة ومديراً لأمانة المجلس التنفيذي والمؤتمر العام في المنظمة نفسها، ثم مديراً للأمانة العامة لاتحاد جامعات العالم الإسلامي.
ـ يعمل حالياً مستشاراً لمكتب تنسيق التعريب بالرباط .

نشاطه الأكاديمي:

- عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وفي مجمع اللغة العربية بدمشق.
- عضو المجلس العلمي لهيئة المعجم التاريخي للغة العربية في اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية.
- عضو المجلس العلمي لمعجم الدوحة التاريخي للغة العربية.
- عضو الهيئة الاستشارية للمركز الكوري للغة العربية والثقافة الإسلامية في سيئول.
- عضو المجلس الاستشاري للأمم المتحدة حول تقرير «التكامل العربي».
- عضو المجلس الإداري لمؤسسة عبد الهادي بوطالب للعلم والتنوير الثقافي، الدار البيضاء.

مجالات الاهتمام:

التربية والتعليم العالي، تعليم العربية ومناهجها، علم المصطلح، صناعة المعجم، الترجمة ونظرياتها، التنمية البشرية، حقوق الإنسان، القصة القصيرة، الرواية، النقد الأدبي المعاصر. التاريخ الفكري.

اللغات : يجيد الإنجليزية والفرنسية، ويلم بالألمانية والإسبانية.

له مؤلَّفات بالعربية والإنجليزية منها:

في المعجمية :

- صناعة المعجم التاريخي للغة العربية (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2014). 650 صفحة.
- معجم الاستشهادات (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2001)
- معجم الاستشهادات الموسع (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2008)، 1039 صفحة
- معجم الاستشهادات الوجيز للطلاب (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2012)
- المعجم العربي الأساسي (تونس/ باريس: الألكسو/لاروس، 1989، ط2 :1991) ـ المنسّق ـ 1347 صفحة.
- علم اللغة وصناعة المعجم (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2004) ط3.. الطبعتان الأولى والثانية: (الرياض: جامعة الرياض، 1975، 1991).

ـ المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق (بروت: مكتبة لبنان، 2003)

Linguistics and Bilingual Dictionaries
(Leiden: E. J. Brill, 1977, 1981, 1983)

في المصطلحية :

ـ علم المصطلح: أسسه النظرية وتطبيقاته العملية (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2008)،821 صفحة.
ـ مقدمة في علم المصطلح ، الطبعة الثانية: (القاهرة: مكتبة النهضة، 1988)، الطبعة الأولى: (بغداد: الموسوعة الصغيرة، 1985).
ـ مصطلحات علم اللغة الحديث (بيروت: مكتبة لبنان، 1981) ـ مع آخرين ـ

في التربية والتعليم:

ـ الجامعة والتنمية (الرباط: المعرفة للجميع، 2002)
ـ تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى(الرياض: جامعة الرياض،1979)
ـ التقنيات التربوية في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى (الرباط: الإيسيسكو، 1991)
ـ مختبر اللغة (الكويت: دار القلم، 1970)
ـ تنظيم المكتبة المدرسية (دمشق: دار الفكر، 1969، الطبعة الأولى) ـ مع د. ماهر حمادة. الطبعة الخامسة: (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996).

في الفكر:

ـ مفاهيم العقل العربي (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2004)
ـ حقوق الأنسان بين الشريعة الإسلامية والإعلان العالمي ، الطبعة الثانية: (القاهرة: دار الأديب كامل الكيلاني، 2008). الطبعة الأولى: (الرباط: المعرفة للجميع، 2001)
ـ السياسة الثقافية في العالم العربي (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2012)
ـ لغة الطفل العربي (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2009).

في النقد:

ـ الثورة والشعر (تونس: البدوي للنشر ولتوزيع، 2015).

ـ صياد اللئالئ : في الفكر والإبداع المغربي المعاصر (الدار البيضاء : دار الثقافة، 2012)
ـ العراق في القلب: دراسات في حضارة العراق ، الطبعة الثانية: (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2010) 712 صفحة. الطبعة الأولى: (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2004).
ـ النور والعتمة : إشكالية الحرية في الأدب العربي (الدار البيضاء : دار الثقافة، 2009) .
ـ الحب والإبداع والجنون (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2006)
ـ في الأدب المغربي: قراءات (الرباط: منشورات الزمن، 2002)

في القصة :

ـ الأعمال القصصية الكاملة (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2013)
ـ الحب في أوسلو ـ قصص ـ (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2014)
ـ رسالة إلى حبيبتي، مجموعة قصصية (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2008)
ـ صمت البحر ـ مجموعة قصصية ـ (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2003)
ـ أوان الرحيل، ـ مجموعة قصصية (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2008، 2015) ط 3 و 2. الطبعة الأولى:(القاهرة: دار ميريت، 2005)
ـ دوائر الأحزان ـ مجموعة قصصية، الطبعة الثانية : (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2010، 2015) الطبعة الاولى (القاهرة: دار ميريت، 2007).
ـ حياة سابقة ـ مجموعة قصصية ـ (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2010)

Circles of Sorrows, Translated by Musa Halool
(Taif: University of Taif, 2014)

في الرواية:

ـ مرافئ الحب السبعة ـ رواية ـ (الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي، 2012)
ـ عصفورة الأمير : قصة عاطفية من طي النسيان، للأذكياء من الفتيات والفتيان (بيروت: مكتبة لبنان،2005)

في الترجمة :

ـ الترجمة وأدواتها (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2009).

- إرنست همنغواي، وليمة متنقلة ـترجمة . الطبعة السابعة (بيروت/ الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، 2016)، الطبعة السادسة : (القاهرة : دار رؤية، 2013)، الطبعة الخامسة (الرباط: منشورات الزمن، 2013)، الطبعة الرابعة: (القاهرة: مكتبة الأسرة، 2009) ، الطبعة الثالثة: (القاهرة: دار ميريت، 2006). الطبعة الثانية: (الرباط، منشورات الزمن، 2002)، الطبعة الأولى: (دمشق: دار المدى، 2001).
- ألن لايتمن، أحلام أنشتاين ـ رواية ـ ترجمة ـ الطبعة الثانية: (الرباط: منشورات الزمن، 2011)، الطبعة الأولى: (القاهرة : مجلة إبداع، 2011) .
- إرنست همنغواي، الشيخ والبحر ـ ترجمة ـ الطبعة السادسة (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2016)، الطبعة الخامسة (الرباط: منشورات الزمن، 2015)، الطبعة الرابعة (الرباط منشورات الزمن، 2013)، الطبعة الثالثة: (القاهرة: دار رؤية، 2013)، الطبعة الثانية: (القاهرة: دار ميريت، 2008)، الطبعة الأولى: (الرباط: منشورات الزمن، 2008).
- الفلاح البائس : يبه الساكن على التل. الطبعة الثانية: (الرباط: منشورات الزمن، 2013)، الطبعة الأولى: (بغداد: مكتبة الأعظمي، 1969)
- مترجمة عن هولبرغ ـ

Modern Iraqi Short Stories
(Baghdad: Ministry of Culture, 1969) - with W. Frazier

من الدروع الأوسمة:

- يحمل دروعاً عديدة من جامعات حاضر فيها في إندونيسيا، والجزائر، والسعودية، والفلبين، وماليزيا، ومصر، والمغرب، وغيرها.
- وسام الأسد السنغالي، من رئيس الجمهورية الشاعر ليبولد سنغور، لمشاركة القاسمي في تأسيس مدارس حديثة لتعليم العربية والثقافة الإسلامية في السنغال.

تناولت أعمالَه السردية دراساتٌ عديدةٌ منها الكتب التالية:

- سوسن البياتي (الدكتورة)، بنية النص القصصي: رؤية سردية في مجموعة « دوائر الأحزان » لعلي القاسمي (تونس: دار بدوي، 2015).
- محمد مساعدي وإبراهيم عمري (الدكتوران)، النقد النصي

واستراتيجيات القراءة (تازة: مختبر البحث في اللغة والأدب والتواصل بالكلية متعددة التخصصات، 2015)
- إدريس الكريوي، بلاغة السرد في الرواية العربية: رواية علي القاسمي «مرافئ الحب السبعة» نموذجاً (بيروت/الجزائر/ الرباط: ضفاف/ الاختلاف/الأمان، 2014)
- إبراهيم أكراف (المحرر)، دراسات نقدية مختارة عن رواية «مرافئ الحب السبعة» (الرياض: شركة الارتقاء المعرفي للنشر الإلكتروني، 2014)
- محمد صابر عبيد (الدكتور)، حركية العلامة القصصية، جماليات السرد والتشكيل (بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب ، 2014)
- عبد المالك أشهبون (الدكتور)، علي القاسمي: مختارات قصصية، مع دراسة تحليلية (بيروت/ الجزائر/الرباط : دار ضفاف ودار الاختلاف ودار الأمان، 2013)
- الحسن الغشتول (الدكتور)، بين الفكر والنقد (القاهرة: دار الكلمة، 2013)
- فيصل غازي النعيمي (الدكتور)، حساسية النص القصصي: قراءة في مجموعة «حياة سابقة» لعلي القاسمي (بيروت/ الرباط: الدار العربية للعلوم ناشرون ودار الأمان، 2012)
- إبراهيم أولحيان، الكتابة والفقدان: قراءة في التجربة القصصية عند علي القاسمي (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2011)
- محمد صابر عبيد (الدكتور)، التجربة والعلامة: قراءة في مجموعة «أوان الرحيل» لعلي القاسمي (عمّان: عالم الكتب الحديث، 2011)
- إدريس الكريوي، جماليات القصة القصيرة: دراسات في الإبداع القصصي لدى علي القاسمي (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2010)
- عبد المالك أشهبون (الدكتور)، من خطاب السيرة المحدود إلى عوالم التخييل الذاتي الرحبة (فاس: 2008).
- عبد الرحيم العلام، سيرة الفقدان (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2007)
- إحسان التميمي (الدكتور)، المعادل البصري في السرد العربي (الشارقة: جائزة الشارقة للإبداع، 2007).
- شرف الدين ماجدولين (الدكتور)، الصورة السردية في الرواية والقصة والسينما (القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، 2006).
- لحسن حمامة، القارئ وسياقات النص (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2006).
- مصطفى شقيب، دراسة سايكولوجية عن «حياة سابقة» لعلي القاسمي (كتاب معد للطبع)

أنجزت عن بعض مؤلفاته رسائل جامعية منها:

- رسالة ماجستير في الترجمة والتواصل أنجزها الطالب المغربي يوسف مساهل وقدمها لكلية الآداب بجامعة الحسن الثاني، بالدار البيضاء
- عين الشق، بعنوان (كتاب القاسمي «الترجمة وأدواتها» ترجمة جزئية للغة الإسبانية، وتحليل ترجمي وموضوعاتي للكتاب) سنة 2012.

- رسالة ماجستير في علم اللغة أنجزتها الطالبة الجزائرية كاهينة محيوت في جامعة مولود معمري - تيزي وزو- بعنوان (النظرية المعجمية الحديثة في فكر علي القاسمي) سنة 2014. وقد نشرها مخبر الممارسات اللغوية في الجامعة نفسها سنة 2015.

- رسالة ماجستير في علم اللغة أنجزها الطالب الجزائري في جامعة مولود معمري - تيزي وزو - بعنوان (النظرية المصطلحية في فكر علي القاسمي) سنة 2014.

- رسالة ماجستير في النقد الأدبي أنجزها الطالب العراقي باسم كاظم في جامعة تكريت بعنوان (رواية علي القاسمي «مرافئ الحب السبعة») سنة 2014.

- رسالة ماجستير في الترجمة أنجزتها الطالبة المغربية فاتحة تمزارتي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال بعنوان «ترجمة الاستعارة في رواية الشيخ والبحر: دراسة تحليلية مقارنة لترجمتي القاسمي وزاهيد»

- رسالة ماجستير في علم اللغة أنجزتها الطالبة العراقية بتول عبد الكاظم حمد في كلية الآداب بجامعة بغداد بعنوان (المعجمية العربية في فكر الدكتور علي القاسمي) سنة 2015.
- رسالة ماجستير في علوم الكتاب أنجزتها الطالبة المغربية هناء الرحماني في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس بعنوان (فهرسة تحليلية لأعمال الدكتور علي القاسمي) سنة 2016.

- رسالة ماجستير في اللسانيات أنجزتها الطالبة المغربية مرية الشويخ في جامعة محمد الخامس بالرباط بعنوان (علم المصطلح في النظرية المصطلحية لعلي القاسمي) سنة 2016.

Manchourat Az-zaman منشورات الزمن

❖ سلسلة روايات الزمن:

العدد	المؤلف	العنوان	ثمن النسخة الواحدة
الرواية 1	الطاهر وطار	الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي	15،00 د
الرواية 2	محمد عز الدين التازي	ضحكة زرقاء	15,00 د
الرواية 3	يوسف القعيد	قطار الصعيد نفذ	15،00 د
الرواية 4	محمد الهرادي	ديك الشمال	15،00 د
الرواية 5	للروائي العالمي إرنست همنغواي ترجمة: د. علي القاسمي	الوليمة المتنقلة نفذ	20،00 د
الرواية 6	عبد الرحمن مجيد الربيعي	الوشم	15،00 د
الرواية 7	حسونة المصباحي	الآخرون	20،00 د
الرواية 8	هدى بركات	حارث المياه نفذ	15،00 د
الرواية 9	محمد أنقار	المصري نفذ	15،00 د
الرواية 10	نبيل سليمان	سمر الليالي	20،00 د
الرواية 11	الطاهر وطار	الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء	15،00 د
الرواية 12	مجيد طوبيا	الهؤلاء	15،00 د
الرواية 13	شاكر نوري	نافذة العنكبوت	15،00 د

العدد	المؤلف	العنوان	ثمن النسخة الواحدة
الرواية 14	عبد الرحمان مجيد الربيعي	الوكر	20،00 د
الرواية 15	ياسين رفاعية	أسرار النرجس	20،00 د
عدد استثنائي	هنريك ابسن	بيت الدمية نفد	15،00 د
عدد استثنائي	عفيفة كرم	بديعة وفؤاد	19،00 د
الرواية 18	للروائي العالمي إرنست همنغواي ترجمة: د. علي القاسمي	الشيخ والبحر	20،00 د
الرواية 19	عبد الرحمان مجيد الربيعي	الأنهار نفد	20،00 د
الرواية 20	ألن لايتمن. ترجمة: علي القاسمي	أحلام أنشتاين نفد	20،00 د
الرواية 21	لودفيغ هولبرغ. ترجمة: علي القاسمي	الفلاح البائس [ليس للضحك فقط..!]	20،00 د
الرواية 22	ألينا رييس. ترجمة: محمود عبد الغني	حب في افني	20،00 د
الرواية 23	الأبله و المنسية و ياسمين	الميلودي شغموم	20،00 د

***

روايات الزمن 24
2017

مرافئ الحب السبعة

" يمكن الجزم بكل ثقة أن رواية " مرافئ الحب السبعة" لعلي القاسمي، قد ولجت مناخا روائياً متميّزاً، صنعه روائيون أفذاذ بالصبر والدأب والتقليد والمبادرة والتحدي والتنافسية؛ هذا المناخ المتميّز الذي سيّجه عباقرة الحكي العربي في مرحلة متميزة من مراحل النهضة العربية، التي زاحمت بالمناكب نظيرتها الغربية. ويمكن اعتبار هذه الرواية لبنة تسدّ خصاصاً كان لا بُدَّ أن يُسدَّ ليعطي للجدار اللحمة والأمان، ويمنعه من التسوُّر والاقتحام، هذا الجدار الذي ساهم في تمتين مدماكه الدكتور طه حسين بإنجازه السيري " الأيام"، ويحيى حقي بظاهرته " قنديل أم هاشم"، وسهيل إدريس برائعته " الحي اللاتيني"، وشيخ المسرح العربي توفيق الحكيم بقصته البديعة " عصفور من الشرق"، والأديب السوداني الطيب صالح بجوهرته " موسم الهجرة إلى الشمال" ...وها هو الدكتور علي القاسمي يلقي في معرض الأدب الزاخر هذا بروايته النفيسة " مرافئ الحب السبعة" سيراً على خطاهم واقتداء بهم حيناً، واجتهاداً حيناً، مضاهاةً حيناً، وتعديلاً للمشي والخطى أحياناً."

للناقد المغربي إدريس الكريوي

في كتابه " بلاغة السرد في الرواية العربية: رواية علي القاسمي نموذجاً"

مكتبة نوميديا 131
Telegram@ Numidia_Library

منشورات الزمن

30 د

لوحة الغلاف من تركيب «الزمن»